
وزارة
الإرشاد القومى
الإدارة العامة للشئون الثقافية
تأليف بولتن كنج
ماتزينى
ترجمة عبد الوهاب الحناوى

سيرة

ماتزيني

ألفها

بولتن كنج

ترجمها

عبد الوهاب الحناوي



ملتزم الطبع والنشر

مكتبة نهضة مصر ومطبعتها

الفجالة — القاهرة

مقدمة

لقد قيل بحق : « إن ماتزينى كان روح الوحدة الإيطالية ، وغاريبالدى عضدها ، وكافور رأسها المفكر » .

فقد ولد يوسف ماتزينى فى عصر كانت فيه إيطاليا اسما جغرافيا لاتسودها وحدة ولا يعمها نظام ، ولما هوى نابليون انقسمت ، وعادت ترسف فى أغلال الحكم المطلق والرجعية ، فأنشأ الشعب جمعيات سرية أهمها (الكاربونارى) ، ولكنها أخفقت ، فدعت الحاجة إلى انتهاج سبل أخرى للوحدة والحرية .

وكان ماتزينى قد استوى شابا اشتهر بثبات الإيمان ، وصفاء الوجدان وتأجج العواطف ، وقدرة على اجتذاب القلوب ، ومحبة للحكم الجمهورى ، فاشترك فى جمعية الكاربونارى ، وقاسى فى سبيلها ، إلا أنه رآها لا تحقق الآمال القومية ، فأنشأ جمعية « إيطاليا الفتاة » .

وأخذ يذكى نار الوطنية فى مواطنيه ، ويبعث فيهم الأمل بمستقبل بلاده ، وكان يؤمن إيمان أصحاب الرسالات بأن « إيطاليا سيدة العالم لن تموت » .

وكان يرمى إلى تحقيق وحدة قومية يحكمها نظام جمهورى بعد أن يُجلى المحتل عن بلاده بحرب العصابات ، فلم يوفق ، وفر إلى سويسرا فإنجلترا ، غير أنه كان قد بث العقيدة التى أحيت موات النفوس .

وفى إنجلترا عاش حقبة رائعة من كفاح المغترب المعدم ، فضرب مثلا لما يستطيعه الشوامخ من صبر وإيمان ودعوة إلى حرية بلادهم .

ثم قام الرجال العمليون المعتدلون فى إيطاليا ، فعملوا على حريتها واتحادها وإن لم يكونوا كماتزينى طموحا ووطنية ، فبدأت حركة الإصلاح ، وانتشرت الثورة ، وأعلنت بيدمونت الحرب على النمسا ، ولكن النمسا ، أنزلت بها هزيمة ماحقة فى كاستوزا ونوفارا ، فسادت الرجعية ، إلا أن جمهوريات توسكانية وروما والبندقية قاومتها بزعامة جيراتزى وماتزينى ومانين ، وإن لم تعمر هذه الجمهوريات طويلا . وسيظل حكم ماتزينى فى جمهورية روما صفحة خالدة من صفحات الإنسانية والعدل والديمقراطية .

وطاب غرس السنوات الطوال التى بدأها ماتزينى ، فقام وزير بيدمونت « كافور » ، وكان صادق الوطنية راجح العقل شجاعا واقعيا مما جعله الرأس المفكر للوحدة الإيطالية ، فعمل على طرد النمسا ، وهزمها فى « سولفرينو » Solferino ، وأخذ يحقق آمال للبلاد فى الوحدة ، فانضمت الولايات الوسطى إلى بيدمونت ، وأرسل غاريبالدى المتطوعين لينتزع مملكة نابولى ، فهزم جيشها ، ودخل عاصمتها مما جعله بحق عضد الوحدة الإيطالية ، ثم اكتملت الوحدة بضم البندقية وروما ، فتم العمل المجيد الذى نادى به ماتزينى طوال حياته ، ولو أن أمله فى الجمهورية لم يتحقق .

وإن كانت سياسة ماتزينى قد أخفقت ، وحاز النصر النهائى المعتدلون والملكيون وكافور وغاريبالدى — فحسبه أنه أحيا الإيطاليين ، وكان رسولا لحريتهم ووحدتهم ؛ إنه المفكر العظيم والمعلم الأخلاقى الكبير الذى عاش فى بدء مرحلة هامة من التاريخ وعاون على صياغة أوروبا من جديد .

وكان ماتزينى مصلحا دينيا متفردا بآرائه فى المسيحية ، كما كان أديباً ممتازاً تحمل كل صفحة من كتاباته علامة الفكر القوى الأصيل ؛ مما جعله من كبار النقاد فى القرن الماضى .

ومات ماتزينى بعد أن بذل لبلاده فوق ما يستطيع الناس ، مات فى « بيزا » مختفيا تحت اسم مستعار ؛ فقد حكم عليه بالإعدام فى صدر شبابه ، وظل هذا الحكم مصلتا على رأسه إلى أن مات .

ويبدو أنه سيظل من متعارف الناس أن يقيموا أقواس النصر ، ويعقدوا أكاليل الغار للفاتحين والساسة ، على حين يبقى أكثر أصحاب المثل والقديسين والشهداء والصالحين أرواحا هائمة فى سماء الإنسانية ، كثيرا ما يخطئها التكريم ، وتزور عنها المواكب وإن أضاءت طريق الناس جميعا إلى الحرية والحياة الفاضلة .

١٧ من يونيو سنة ١٩٥٧

عبد الوهاب الحناوى

الفصل الأول

المنزل فى جنوة

١٨٠٥ — ١٨٣١ م من ميلاده إلى الخامسة والعشرين

الطفولة والشباب — حياة الجامعة — الدراسات الأدبية — الكلاسيكية والرومانتيكية — الانضمام إلى الكاربونارى — القبض والمنفى

ولد يوسف ماتزينى فى « فيالومولينا » بجنوة فى الثانى والعشرين من يونيو سنة ١٨٠٥ م ، وكان والده طبيباً على جانب من الشهرة ، وأستاذاً لعلم التشريح بالجامعة ، ديمقراطيًّا فى عقيدته وحياته ، ينفق كثيراً من وقته فى الخدمات المجانية للفقراء ؛ وكان فى منزله ودوداً محبوباً ، وإن كان فى بعض الأحيان قاسياً مستبدًّا .

وكانت والدته — وقد أشبهها ماتزينى شبهاً قويًّا فى حياته فيما بعد — امرأة قديرة موفقة ، ليس فيها من ضعف الأمهات الإيطاليات إلا اليسير ، وقد نشأت أطفالها على تحمل صدمات الحياة ، وكانت تهتم اهتماماً بالغاً بالحركات القوية التى كانت تعيد صياغة أوروبا حين ذاك ، وتلذع الحكام

والحكومات بنقداتها بين جدران منزلها الأربعة . وكان منزلا سعيداً نشأ فيه « بيبو » قرة عين والديه وأخواته الثلاث طفلا رقيقاً حساساً مهذبا نشيطاً راغبا فى التعلم بالرغم من مخاوف أبيه على صحته ، وقد أقام الدليل المبكر على مواهب لامعة ، وكان يناهز التاسعة من عمره حين تحطم نظام نابليون ، وذهب الإمبراطور إلى إلبا .

ولاشك أن ماتزينى سمع من والده أن نابليون إيطالى المولد ، وأنه نفى إلى جزيرة إيطالية ، وقد شعرت جنوة بصدمة سقوط نابليون ؛ فإن هذه المدينة الأبية التى كان اللورد وليم بنتينك قد وعدها باسم إنجلترا استقلالها السابق — عرفت « أن الجمهوريات لم تعد ملائمة للعصر » ، ورأت نفسها وقد فقدت المعين — تعاد إلى حكم بيدمونت الأجنبى ، فغضب أهل جنوة لذلك غضباً مراً . ومن المؤكد أن حديثاً عن الجمهورية كان يدور فى منزل ماتزينى ، وقد استقرت هذه الأحاديث فى عقل هذا الطفل المفكر ، وذكر هو نفسه المؤثرات التى وجهت عقله فى الصبا إلى الديمقراطية وهى :

بشاشة والديه لكل الطبقات على نسق واحد ، وذكريات حروب الجمهورية الفرنسية فيما كانوا يتناولونه من أحاديث فى منزله ، وبعض الأوراق الجيرونديه القديمة التى كان يحتفظ بها والده ويخفيها بين كتبه الطبية خشية الشرطة ، وأكثر من هذا كله ما كان ماتزينى قد قرأه من الكلاسيكيات على معلمه فى اللاتينية ؛ إذ كتب أحد زملائه الطلبة يقول : « إن تاريخ اليونان

وروما وهو الشيء الوحيد الذى كنا نتعلمه بعناية فى المدرسة — لم يكن إلا طعناً ظاهراً موجهاً للملكية وثناء على الشكل الديمقراطى للحكومة » .

وإذ فرض على ماتزينى فى تمرينات المدرسة أن يطنب فى مدح كاتو والبروتى كما فرض على الكثيرين من أولاد ذلك العصر — أخذ ينظر إلى الجمهوريات على أنها المواطن المختارة للحقيقة ، وكانت هذه هى الثمرة غير المقصودة لتلك المرانة التقليدية التى ربت عليها الحكومات المستبدة فى ذلك العصر شبانها ؛ لتصونهم من عدوى الابتداع !

وهكذا عاش ماتزينى حياة منزلية هادئة ، مغرما بالبحث ؛ حتى وقعت حادثة ذات بال عندما كان يقارب السادسة عشرة ، فغيرت مجرى حياته : فقد انتهت ثورات الكاربونارى سنة ١٨٢٠ ، ١٨٢١ م إلى انهيارها المتوقع ، وازدحم أحرار البيدمونتيين المهجورين المنهزمين فى جنوة وسامبيردارنا حيث كان لديهم متسع من الوقت للهرب إلى إسبانيا ، وقد فر بعضهم خالى الوفاض . وإذ كان مازينى يسير مع والدته لاحظ وجوههم البائسة ، وراقبهم وهم يجمعون من الشوارع ، فاستقرت ذكراهم فى روعه ، فتاق إلى تتبعهم بحماسة الصبى نحو أبطاله ، وأهمل دروسه ، وجلس مكتئباً مستغرقاً لا يهمه إلا تسقط أخبار المنفيين ودراسة تاريخ انهزامهم ، وأشرف به نفاد صبره على الحقيقة ، فشعر : « بأن هؤلاء المنفيين ما كانوا لينتصروا حتى لو أنهم جميعاً قاموا بواجبهم » وقد حيرته هذه الفكرة واستولت عليه ، فأصر على

لبس السواد ، وتمسك بهذه العادة طوال حياته ، كما أكب على كتاب فوسكولو المسمى « جاكوبو أورتيس » حتى ران عليه التشاؤم السقيم بفضل ذلك الكتاب ، فخشيت عليه أمه الانتحار ، وكانت محقة .

وبمرور الزمن استرد اتزانه ، وعاد إلى مطالعة كتبه بحماسته السابقة ، وكان يدرس حينئذ الطب مصمماً على أن ينسج على منوال والده ، غير أنه أغمى عليه فى أول مرة حضر فيها غرفة العمليات ، وتبين له أنه لن يكون جراحاً ؛ ولاشك أن هـذا كان خيبة أمل مؤلمة لوالده الذى يبدو أنه سلم بالأمر الواقع ، وسمح للفتى بدراسة القانون ؛ ولـكن ماتزينى كان قليل العناية تقريبا بدراساته الجديدة ؛ فإن الدراسة التى كانت تسود القانون فى ذلك العصر كانت دراسة مملة لا يهتم بها ، ولم تـكن لتستهوى إلا فى القليل من كان يرغب معرفة علل الأشياء ، ولـكنه واظب ووفق فى امتحاناته بالرغم من أنه كان ينفق جزءاً كبيراً من وقته فى قراءة الشعر والتاريخ ، وكان إذ ذاك فى الجامعة . ومن المحتمل أنه ذهب قبل ذلك إلى المدرسة ، ولو أن بعض الشك يدور حول هذه المسألة . ومهما يكن يبد لنا أنه نجا من التربية السيئة الوحشية التى كانت تجعل الحياة المدرسية بوجه عام فى ذلك الوقت بؤساً طويلا لفتى سامى المبادئ أو رقيق الشعور .

وكانت الحياة الجامعية فى إيطاليا تبدأ فى سن مبكرة ، فأعد ماتزينى نفسه فى جنوة لدخول الجامعة عندما كان فى الرابعة عشرة ، وعاش فى بيئة سعيدة إذ تعلق به زملاؤه الطلبة تعلقا شديداً ، ولـكنه كان تلميذا متعباً متمرداً على

الشكليات التى تكون جزءاً كبيراً من الحياة الجامعية : فقد رفض حتى النهاية أن يحضر المشاهد الدينية الإجبارية ، لا لأنه يكرهها ، ولكن لأنها إجبارية . ولما كانت السلطات متسامحة إلى حين فقد أغضت عن تمرده .

ولم تكن جامعة جنوة ذات شهرة عالية لارتياد العلم فضلا على ما شابها من عيوب خاصة فى ذلك الحين ؛ فإن الثورة قد أفزعت الحكومة حتى خشيت أن يزلزل بضع مئات من الفتيان أركان الدولة ، ولم يكن يستطيع أحد أن يتخرج دون شهادة تثبت أنه كان يحضر الكنيسة والاعتراف بانتظام . كما كان على الذين لا يملك آباؤهم قدراً معيناً من الأراضى أن يجتازوا امتحاناً أصعب من غيرهم ! ولكنه على أسوأ حال امتحان محتمل غير مستعص . ونبهت الحكومة على المحاضرين وخدام الكنيسة والبوابين أن يجعلوا الحياة عسيرة على الطلبة ؛ فلم يكن يجرؤ أفضل الأساتذة على أن يلحظ أحد عليه أى رفق أو إنصاف ، وكان إعفاء الشوارب محرماً باعتباره علامة على الفكر الثورى ، ولو جرؤ طالب ما فأطال شواربه لحمله اثنان من المسلحين إلى حانوت الحلاق !

وسرعان ما أصبح ماتزينى قائداً للتلاميذ ذوى الحياة النظيفة المحبوبين المندفعين، وكان منظره وقت ذاك كما كان دائماً — أخاذاً ؛ إذ كان له شعر كثيف أسود ، وجبهة بارزة مميزة ، وعينان سوداوان لامعتان ، ووجه جاد رصين ، يبدو قاسياً فى بعض الأحيان ، بيد أنه يمتزج كل الامتزاج بألطف الابتسامات .

وعاش ماتزينى حياة متفردة يولع بالدراسة ، ويهوى الألعاب الرياضية واللعب بالسيف ، ويقل ارتياده للملاهى ، وكانت السجارة والقهوة عادته الوحيدة ، ينفق نهاره فى مطالعة كتبه ، فإذا ما أقبل المساء قضاه مع والدته أو فى المسير الطويل على انفراد بالرغم من رداءة الجو ، أو فى زيارات نادرة يختلسها للسرح ، ثم لا يلبث أن يغادره بعد الفصل الأول ؛ لأن أبواب المنزل كانت تغلق بنظام صارم فى الساعة العاشرة .

وبالرغم من أنه كان بطيئاً فى عقد الصداقات الوثيقة لم يكن يكره الناس ، وكثيراً ما كان يعزف على الجيتار يغنى عليه غناء جيداً ، وكانت مواهبه الموسيقية وإلقاؤه الواعى سر إقبال البيئة المتوسطة وأصدقائه النبلاء عليه ، ولم يكن قد خالطه بعد — ذلك الحزن المرير الذى ران على حياته المستقبلة ، فكان لماحاً ، يحس الفكاهة إحساساً ألمعيًّا ربما ورثه عن والدته . وكان فى مقدوره عندما يلتهب حماسة أو سخطاً أن يتحدث فى فصاحة مشبوبة الأوار اشتهرت حتى بين الشبان الإيطاليين المقاويل ، وقد كتب فيما بعد : «إن روحى كانت آنئذ ابتسامة لكل المخلوقات ، وكانت الحياة تبدو أمام خيالى المبكر حلماً من أحلام الحب ، كما كانت أكثر أفكارى تحرراً تدور حول حب الطبيعة ، والمرأة المثالية لشبابى » .

وكان يطرب للمكارم ، فيشرك أصدقاءه الفقراء فى كتبه ونقوده ، بل فى ملابسه ، غير أن قوة أخلاقه الطيبة هى وحدها التى أتاحت له السيادة عليهم ، والطبيعة المخلصة المحبة للعدالة هى التى جعلته بطلا لدى كل ضحية من ضحايا

الضغائن التي يكيدها الطلبة أو الأساتذة بعضهم لبعض ، ونقاء التفكير الذى كان يكبح كل كلمة نابية أو جارحة تصدر من الذين حوله ، كما أن الروح النقية العالية التى لاتخالطها أثرة ولاتعرف الخوف ، الروح المتحمسة للعدالة — قد منحته منذ كان صبياً القوة التى اختص بها القديسون وحدهم .

وكان ألصق أصدقائه به ثلاثة إخوة : جاكوبو ، وجيوڤانى ، وأجستينو رافينى . وربما كان لجاكوبو وهو أكبر الثلاثة — تأثير على حياة ماتزينى أكثر من تأثير أى رجل آخر : فقد ولد جاكوبو فى اليوم الذى ولد فيه ماتزينى نفسه ، ووافقت حياته الرقيقة المحسة المتحمسة حياة ماتزينى موافقة طيبة ، وأثر القدر المحزن الذى عجل بوفاة جاكوبو فى نفس ماتزينى فيما بعد ، وزاد نفوذاً إليها وقوة ، ولكن ذكرى ذلك العزيز الذى وهب حياته فى سبيل غاية استهدفاها — بقيت إلهاماً يحفظ عقيدة ماتزينى قوية فى السنوات التى لحقته فيها المتاعب والإخفاق ، أما الأخوان الآخران فلم يكن لهما من طبيعة جاكوبو إلا القليل : فكان جيوڤانى فى ذلك الوقت شاباً لطيفاً فكهاً ذكياً . أما أجستينو فكان سريع التأثر ، ضعيف التأثير ، ذا طبيعة سريعة من طباع الفنانين .

وقد أثبت الذين صحبوا ماتزينى عن قرب بضع سنين أنهم قلما يرتفعون إلى المستوى الرفيع الذى وصل إليه ، وكانوا يجزون عطفه عليهم بالعزوف عن صداقته ونكران جميله ، وبخاصة أجستينو ؛ فقد بلغ فى ذلك درجة كبيرة فى كل الأحوال . وسلك الأخوان الطريق المحدود الذى رسماه لحياتهما ،

فصار أجستينو نائباً فى برلمان بيدمونت ، وأصبح جيوڤانى وزيراً فى باريس ، كما شقا طريقهما فى المجتمع الإنجليزى ، ونالا بعض الشهرة هناك ، فكان أجستينو أستاذاً حيناً من الدهر فى أدنبرة ، وهو الذى كان يقص قصة « كلير الفقير » فى « ركن السيدة جاكسل حول الأريكة » ، أما جيوڤانى الذى برع فى الإنجليزية براعته فى لغة بلاده فقد كتب قصتين مشهورتين ، ولكنهما الآن تكادان تنسيان ، وهما « لورنز وبينينو » ، و « دكتور أنتونيو » وكانتا من أفضل قصص الصف الثانى فى ذلك العصر .

وقد كونت هذه الجماعة من الأصدقاء فى جنوة تحت زعامة ماتزينى جمعية لدراسة الأدب والسياسات ، وهرّبت الكتب القيمة ؛ إذ أن نصف روائع الأدب الأوروبى المعاصر فى ذلك الوقت حرمته الرقابة ، ولم تسمح من الصحف الأجنبية إلا بجريدتين فرنسيتين ملكيتى النزعة ، فكان التهريب من مستلزمات الدراسة الأدبية . ومال ماتزينى بهوايته القوية إلى الأدب فقرأ بشراهة باللاتينية والفرنسية والإنجليزية وترجمات من الألمانية ، وكانت كتبه المفضلة — كما أخبرنا — هى الكتاب المقدس ودانتى وشكسبير وبيرون ، وبرزت معرفته الوثيقة بالأناجيل فى كل شىء كتبه .

وقد أهدر ماتزينى — فى الواقع — التمسك بالآراء السائدة منذ بدأ يفكر . وكان يذهب إلى القداس فى بعض الأحيان عندما كان صبياً ، ولكنه يقرأ كوندورست « أسكويز » ، وقد أخفا فى كتاب الصلوات ، وكذلك كان يرفض الذهاب إلى الاعتراف منذ بدأ يعرف معناه . ومن الواضح

أن هذا هو الشيء الوحيد فى حياته كلها الذى آلم والدته . ومر ماتزينى لأمد قصير فى طور من الشك سرعان ماأنقذته منه والدة ريفينى فهُدى إلى اعتقاد دينى عميق بقى ينبوعاً لكل حياته .

وكان أحب الشعراء إليه دانتى وبيرون ، وظل مخلصاً لهما طوال حياته ، وتعلم من دانتى كل أفكاره الرئيسة ، وهى مبدأ اتحاد الإنسان ، واتحاد القانون ، والوطنية المتحمسة ، والاعتقاد فى إيطاليا وروما اللتين قدر لهما أن تكونا أستاذتين للعالم ، والاعتقاد فى الاتحاد الإيطالى ، والقوة الأخلاقية التى تجعل الحياة صراعاً طويلا من أجل الخير .

وعندما كان فى العشرين من عمره كتب مقالة عن وطنية دانتى ، وهى وإن كانت ذات أسلوب صبيانى — قد أثبتت معرفته الوثيقة بهذا السيد ، وكان بيرون حين ذاك فى أوج شهرته ، وكان ماتزينى يعتقد فيه كما ظل يعتقد دائماً أنه أعظم الشعراء الإنجليز المحدثين ، وربما أعظم الشعراء الأوروبيين المحدثين على الإطلاق ، كما كان مفتوناً كل الافتتان بجيته ، وكان يقول دائماً : « إن اليوم الذى تمضيه معه أو مع عبقرى مثله هو أصفى أيام الحياة » أما كيف تناقص إعجابه بجيته على حين نما إعجابه ببيرون فسنذكره فى الفصل الثامن .

وقرأ شكسبيرَ ، قرأه دائماً فى وعى أكثر مما للتسلية ، وأصبح شكسبير بالنسبة إليه مثل ما كان جوته . . وكان يعتقد فى سيلو اعتقاداً سامياً ، ووضعه مع أخيل وشكسبير باعتباره ثالث مؤلف للتمثيليات فى العالم ،

وقرأ قدراً صالحاً من الأدب الإنجليزى ، وكان فى ذلك الوقت معجباً متحمساً « لسكوت » ، غير أنه فيما يبدو قد ذهب اهتمامه به بعد ذلك ، كما كان يعرف على الأقل شيئاً عن وردسورث ، وشلى ، وبيرنز ، وكراب .

أما الأدب الفرنسى الحديث فلم يرقه فى ذلك الحين (حتى كتابات جورج ساند ولامنيه) ، اللهم إلا كتابات ديفينى وبعض كتابات فيكتور هيجو ؛ وذلك لأنه كره اتجاهات الرومانتيكية الفرنسية ، وكانت هذه بدء تحامله على كل ما هو فرنسى طوال حياته .

وكان من المفضلين لديه من بنى جلدته المحدثين ، الفييرى ، وفوسكولو ، كما قرأ مانزونى وجيراتزى ، ولكنه قرأهما لينتقدهما ، ولو أنه كان على استعداد لينصف كلا الرجلين فى قوته . وكان يعتقد أن ميكيويتزك الشاعر البولندى الوطنى « أقوى طبيعة شعرية فى ذلك العصر » ولا ريب فى أنه قرأ الكلاسيكيات بتوسع كما كان كل صبى وقت ذاك مجبراً على قراءتها ، ولكن يبدو أن أياً منها لم ينطبع عليه انطباعاً كبيراً ما عدا تاسيتش وأخيل الذى كان احترامه له غير محدود . .

وكان ماتزينى ينفق وقتاً كبيراً حين ذاك وبعد ذلك فى قراءة الكتّاب الميتافيزيقيين والسياسيين : قرأشيئاً عن هيجل ولكنه كرهه لقدريته السياسية ، كما قرأ شيئاً عن كانت ، وفيختة ، ولكن الألمانى الذى أثر فيه أكثر من غيره هو « هيردر » الذى أصبح نسياً منسيًّا الآن ؛ فقد تعلم من هيردر أو أكد منه مبدأه الروحى فى الحياة ، واعتقاده فى الخلود ، ونظريته فى تقدم الإنسانية

ومعاونة الإنسان فى عمل العناية الإلهية . كما درس من الفلاسفة الإيطاليين «جيوردانو برينو» ، و «فيكو» ، وقدر هذا الأخير حق قدره ، واعتبره كوكباً كبيراً لمدرسة إيطالية فى الفكر بدأت — باعترافه — منذ فيثاغورس.

وكان مكيافلى أكثر الكتاب السياسيين انطباعاً على ماتزينى بدون شك باعتبار مكيافلى وطنياً إيطالياً كبيراً ، وقد برر ماتزينى أخلاق مكيافلى ، فاعتبرها حصيلة لزمنه ، ويبدو أن ماتزينى عرف كثيراً عن فولتير وروسو .

أما عن الكتاب السياسيين المعاصرين فقد قرأ هو وحلقته فى جنوة كثيراً من كتابات جيزو ، وفكتور كوزين اللذين جعلتهما محاضراتهما فى ذلك العصر الناصحين المرشدين لمبدأ الحرية الناشئ . وسجل ماتزينى أن الجماعة فى جنوة كانت تتبادل نسخاً خطية من هذه المحاضرات ، وقبست الإلهام من هذين الرجلين ، وإن اعتبرتهما فيما بعد خائنين .

وكان الأدب فى ذلك الوقت وبعده لأمد طويل مورداً عذباً لماتزينى : فمنحه حبه، لأن السياسات والتآمر كانت واجبات اضطرارية غير مرحب بها. وكانت خطته فى الحياة حين ذاك أن يصبح كاتباً للتمثيليات أو للقصص التاريخية ، وكثيراً ما ظل فى سنواته المتأخرة يتطلع لذلك اليوم الذى تتحد فيه إيطاليا وتتحرر ويكتمل عمله السياسى ، فيستطيع أن يكرس نفسه لمشروعاته الأدبية التى لا يزال يعزها إعزازاً ، وهى : تأليف تاريخ للنظريات الدينية ، وتاريخ شعبي لإيطاليا ، وطبع سلسلة من أعظم التمثيليات فى العالم ؛ ولكن عبء بلاده أناخ بكلكله عليه ؛ حتى نسى ذلك أمداً طويلا ، ولم يعد هناك

وقت لدراسات ذاتى أو كتابة المسرحيات . وأقنع ـــ سهو نفاهو آسف مقهور الإرادة ـــ بأن الأدب الخالص ليس أول عمل وطنى فى مثل ذلك الوقت ، وأن على الكاتب ـــ مالم يتنصل من واجبه ـــ أن يجعل عمله سياسيًّا ؛ ومع ذلك كان النقد الأدبى لايزال يظهر فى كل صفحة من صفحاته ، ولكن فحوى تعاليمه انحصر كله فى أن قيمة أى كتاب هى فى قدرته على صياغة روح القارىء على حب بلاده والجنس البشرى ودفعه إلى خدمة مواطنيه بعمل سياسى مراقباً ربه . واعتبر من الجهد الضائع أن تصنع ما كان يحاول صنعه مانزونى ، أى أن تعلم الفرد أن يحيا حياة فضيلة ، رواقية ، حياة كانت مستحيلة على الكثيرين فى مجتمع فاسد أو مخدّر ؛ إذ رأى أن الدين والأخلاق لا يستحقان عمل الكاتب إلا إذا كرسا الناس ليعملوا للمصلحة العامة ، ويسترخصوا فى سبيلها الرفاهية والدعة ، بل الحياة نفسها إذا لزم الأمر طالما يُعجز الاستبداد والخطأ الحيوانات الأخرى ، وطالما يصيح الرجال والنساء حولهم من أجل الحرية .

ووجد ماتزينى فرصـــته فى الخلاف الناشب مابين الرومانتيكيين والكلاسيكيين ، ذلك الخلاف الذى كان يقسم العالم الأدبى فى إيطاليا إلى حزبين عنيفين . صحيحٌ أنه لم يتمسك بأن الرومانتيكية هى الشكل النهائى للأدب المبرأ من الخطأ على أى وضع ، إلا أنه إذا ما وهبت إحدى نظريات العبودية الأدبية مثل الكلاسيكية نفسها للاستبداد السياسى ، وأخمدت القوى الحيوية والروحية للبلاد ، على حين أن هناك حركة فتية قوية لتحرير الأدب قائمة

من أجل الحرية فى كل مكان — فإنه يقف بالضرورة إلى جانب هذه الأخيرة ؛ لأنه لن يكون ثمة بعث سياسى أو اجتماعى لإيطاليا إلا إذا كان لها أدب يعمل فى سبيل الحرية والتقدم .

وكان ماتزينى يصر على أن « هذه المنازعات الأدبية إنما تتصل بكل ما هو هام فى الحياة الاجتماعية والمدنية ؛ لأن تشريع الناس وآدابهم يتقدمان دائماً بخطوات متساوية ، وتقدم الثقافة العقلية ذو صلة وثيقة بالحياة السياسية للبلاد » .

وكان هدف الرومانتيكيين عنده « أن يمنحوا الإيطاليين أدباً قومياً أصيلا لا أدباً كالموسيقى العابرة التى تقرع الأذن وتتلاشى ، بل أدباً يفسر لهم إلهاماتهم وأفكارهم واحتياجاتهم وحركتهم الاجتماعية » . ؛ ولذلك كان مع معرفته بقدر مانزونى يتطلع إلى الفييرى وفوسكولو الذى قارع الأخطاء السياسية فقرعها ، ودعا إلى مقاومة الطغيان ، كما يمدح كتاب الكونسيليتور Conciliatores وجريدة ميلانو القصيرة العمر التى كان يصدرها « سلفيو بيليكو » و « كونفالونييرى » الذى حول — مثل ماتزينى — الرومانتيكية إلى أغراض سياسية .

وكانت كتابات ماتزينى هنا وهناك فى ذلك العصر تلميحاً سياسيًّا مباشراً فى كثير أو قليل يقصد به الهرب من عين الرقيب ، وقد تكلم لأول مرة عن « إيطاليا الفتاة » ذلك الاسم الذى رنّ صداه فى أوروبا ، كما مدح المنفيين السياسيين ، وزلق لسانه مرة ، فأشار إلى أن روح الدولة لا يمكن

أن تتغير إلا إذا أعيدت كتابة دساتيرها ، ولم يكن ليستطيع أن يكتب أكثر من هذا حتى لو تخلصت الصحافة من الرقابة ، ولربما كان الأدب لا ينفك يتصارع هو والسياسات للسيادة على عقله .

وعانى ماتزينى فى الواقع ما فيه الكفاية من الرقباء : فأول مقالات له نشرت فى « الأنديكيتور جينوفيز » ، وهى صحيفة تجارية كانت تصدر فى جنوة واقتنع محررها بإضافة نبذ قصيرة عن الكتب الحديثة ، وتضخمت هذه النبذ إلى مقالات أدبية ، وكان من بين آخر المقالات التى ساهم بها ماتزينى فى هذه الصحيفة مقالة عن القصص التاريخى ، وعن الأعداد التى صدرت من كتاب «فردريك سيشليجيل» عن الأدب وكتاب «جيراتزى» عن «معركة بينيفنتو » ، وقال عن هذين الكاتبين : إنهما لم يتبحرا فى القراءة ، وإنهما صبيانيان ومُبالغان .

ومن المطرب أن نجد ماتزينى ذلك المؤلف الذى لم تزد سنه على ثلاثة وعشرين عاماً ينعت معاصره جيراتزى بأنه « روائى مدينة ليجهورن الصغير » ، ويقول عنه : إنه لم يحتس من كأس الحياة ما يجعله متشائماً !

وأصبحت « الأنديكيتور » شيئاً فشيئاً صحيفة أدبية ، ولم تكن الرقابة لبضعة أشهر ترى ماترمى إليه هذه الصحيفة ، غير أنه فى نهاية سنة ١٨٢٨ م أى بعد قرابة عام من بدء كتابة ماتزينى فيها أغلقت هذه الصحيفة ، ووجه ماتزينى جهوده بسهولة وجهة أخرى : فقد أنشأ « جيراتزى » صحيفة ثانية فى ليجهورن على الاتجاهات نفسها ، وهى صحيفة «أنديكيتور ليفورنيز»، وطلب

منه أن يساهم فيها بكتاباته ، فأجابه إلى ما طلب ، وكتب مقالة عن «فاوست» زيادة على مقالات صغيرة أخرى ، كما هاجم عيوب المدرسة الرومانتيكية فى مقالة عن « بعض اتجاهات الأدب الأوروبى » .

وظلت كتاباته مائعة مذهبية بوجه عام ، بيد أن أسلوبه قد ارتقى ، وكانت الرقابة فى توسكانيا متسامحة نسبياً ، فاستطاع الكتاب الشبان أن يكتبوا تلميحات سياسية واضحة كل الوضوح بالرغم من أن الإشارة المباشرة إلى السياسات كانت محرمة عليهم ، ولكن الصحيفة أوغلت فى جرأتها حتى فى نظر الرقباء التوسكانيين المتسامحين ، فألغيت كسابقتها بعد عام من حياتها ، فسلك ماتزينى وجيراتزى طريقين مختلفين ، ثم تقابلا مرة أخرى بعد تسعة عشر عاماً ، وقد أصبح كلاهما مشهوراً

ولاقى ماتزينى بعض الصعوبات عندما أراد أن يكتب فى مجلة «أنتولوجيا» تلك المجلة الإيطالية التى تعتبر من أكبر المجلات الأوروبية فى ذلك الوقت وقد أسست منذ عشر سنوات برجاء أن تكون مجلة إيطالية فى أدنبرة ، أسسها « جينو كاپونى » النبيل الفلورنسى الأعمى سليل كاپونى الذى أمسك بلحية شارل الثامن ، وڤسييه الكتبى السويسرى الذى أنشأ فى فلورنسا المكتبة الوحيدة المتداولة ذات الشهرة فى إيطاليا ، وقد ساهم فى هذه المجلة معظم قادة الكتاب الإيطاليين فى ذلك العصر ، ونجحت نجاحاً كبيراً بالرغم من أنها مجلة حرة ذات غرض قومى مجاهر به . ويرجع الفضل فى إفلاتها من قبضة الرقابة إلى عملائها ذوى النفوذ .

وقد كتب ماتزينى لهذه المجلة ثلاث مقالات فى التمثيليات التاريخية ومقالة أخرى عن الأدب الأوروبى ، وسرعان ما نضج تأليفه ، فلم يعد هناك أثر لصبيانية جهوده المبكرة ، فكل صفحة من كتاباته كانت تحمل علامة الفكر القوى الأصيل الذى جعله من كبار النقاد فى ذلك القرن .

وفى الوقت نفسه أخذ يمارس عمله فى المحاماة وكانت مهنة مفككة ، فكان يترافع فى بعض الأحيان فى المحاكم الدنيا « محامياً عن الفقراء » ، فكثر الإقبال عليه لنباهته ومهارته ، كما كان طبقاً لتقاليد المهنة يقرأ الكتب فى مكتب المحامى الكبير الذى انحصر اهتمامه فى رؤية تلاميذه يجلسون وأمامهم كتاب . أما أوقات فراغه فكان يقضيها بوجه عام فى ڤيلا ريفية صغيرة فى بلدة «سان سكوندو» فى سهل « ديزانو » على مرأى من منزل تشغله أسرة ريفينى ، أو يشارك فى جلسات مع أم ريفينى التى أصبحت حين ذاك قائدته الروحية وأعز أصدقائه ، أو يذهب فى جولات يدرس فيها النبات أو رحلات للرماية فى التل الريفى الجميل ، ولو أنه نفسه لم يكن يأخذ قسطاً كبيراً من الرماية ، فكان يذكر بأسى عندما نيف على الخمسين — طائر سمان جندله وهو فى السادسة عشرة .

وأخذت السياسات تستغرق أكثر اهتمامه يوماً فيوماً ، ولاشك أن منزله فى جنوة شجعه على ذلك ؛ فإن النبلاء والطبقات العاملة فيها ما فتئوا غير متوائمين مع الحكم البيدمونتى على حين كان أحرار الطبقة المتوسطة ينظرون إلى إلحاق جنوة ببيدمونت على أنه مجرد خطوة إلى دولة إيطالية

أوسع ، ولكن البيئة المحلية مع ذلك كانت مؤثراً قاصراً ؛ فماتزيني كان بلا ريب سيصبح متآمراً ولو سكن فى أى مدينة أخرى فى إيطاليا : فنى الوقت الذى بدأ فيه الكتابة فى صحيفة « أنديكيتور جينوفيز » تقرر قبوله فى جمعية الكاربونارى ، وكان الكاربونارى يعانون فى ذلك الوقت من التدهور الذى يشل قريباً أو بعيداً كل جمعية سرية . وقد نشأ الكاربونارى من جمعية البنائين الأحرار الماسونية فى عهد الحكم الفرنسى . وبعد سقوط نابليون جاءت الرجعية ، وعادت الأسر القديمة ، فجمع الكاربونارى فى صفوفهم جمهرة المتذمرين الذين — وإن كانوا ذوى آراء سياسية مختلفة — كانوا يداً واحدة فى إظهار الاستياء من الطغاة الصغار ، ومن تعصب وغموض الأمراء الذين عادوا من منفاهم ليسبئوا إلى الحكم وليستبدوا فى بعض الأحيان .

وقد جعلت عقائد الكاربونارى العالية المستوى ودعواتهم إلى الدين والأخلاق ورمزية طقوسهم الخفية وعاطفتهم الديمقراطية السطحية الغامضة — جعلت هذه الجماعة - منظمة حرة واسعة . ومنذ أن أقاموا الثورات فى نابولى وبيدمونت لسبع سنين خلت ، وصُدِموا بها — حافظوا على هيكل حزبهم بمهارة فائقة وإصرار ، ولكن هذه الجمعية المتآمرة غيرت من صفتها ، فلم تعد جمعية إيطالية بحتة ، إذ حملها المنفيون إلى فرنسا وإسبانيا ، وأصبح مركزها الرئيس فى باريس حيث استخدمه لافييت والأورليانيون المتآمرون لقلب نظام الملكية الشرعى هناك ، وكانوا يحلمون بعصبة من البلاد اللاتينية لتحفظ التوازن مع المحالفة المقدسة Holy Alliance .

أما فى إيطاليا فقد هجر الديمقراطيون العاطفيون هذه الجمعية ، كما فقدت اتصالها بالجماهير ، وكذلك كان أغلب قوادها من متوسطى السن من الطبقات المهنية الذين كانوا لا يشجعون الأعضاء الجدد الصغار . ولم تكن لديهم رغبة فى أن يتخطوا شكلياتهم الصغيرة التى لا معنى لها وحديثهم العقيم عن الحرية .

ولم يكن ماتزينى ليهضم مبدأ الطقوس عندهم وفقدانهم للهدف وحبهم للملكيين والنبلاء ، ومن المحتمل أنه لم يكن مرتاحاً للمركز الخاضع الذى فرض عليه باعتباره شاباً ، ولكن الكاربونارى كانوا على أى الأحوال المنظمة الثورية الوحيدة فى البلاد ، فأعجب ماتزينى بشجاعة رجالها الذين خاطروا بدخولهم السجن أو بذهابهم إلى المنفى فى سبيل غرض لم يكن ملائماً على أى حال . وبالرغم من تقلب ماتزينى فى العمل كان يعتقد اعتقاداً نظرياً فى الخضوع مما جعله فى ذلك الحين مستعداً للعمل بالأوامر ، غير أنه عندما التحق بالكاربونارى ، وأقسم قسم الالتحاق المعتاد على خنجر مجرد — أخذ يرى عقم هذا كله ؛ فقد وجد أنه لم يقسم إلا على إطاعة رؤسائه المجهولين ! وأنه لم يسمح له إلا بمعرفة أسماء اثنين أو ثلاثة من زملائه المتآمرين ، وشك فى أن برنامجهم السياسى — لو كان لهم شىء من البرنامج — إنما هو برنامج أعجف ، بل كان كل ما هو إيطالى فى جسد ماتزينى يتمرد على أولئك الذين يتكلمون بخفة عن بلادهم ، ويبشرون بأن الخلاص لا يمكن أن يأتى إلا من فرنسا .

وكانت الاشتراكات فى الجمعية ، والتى لا نحتاج إلى القول بأنه لم يكن

يقدم عنها حساباً — تفدح كيس نقوده الرقيق، كما أمرضه ذلك الإنذار المحزن جداً والذى ربما كان من قبيل الإيهام، وهو أن العضو الذى ينتقد الرؤساء يغتال؛ حتى إنه هدد بالاستقالة. ولما كان رؤساؤه غير المعروفين له يحسنون الاعتقاد فيه فقد بعثوه إلى توسكانيا لعمل من أعمال الدعاية، فضم للجمعية أعضاء جدداً . ويبدو أنه رجع بروح معنوية أفضل فيما يتصل بمستقبل الجمعية . وإذا صدقنا جيوڤانى ريفينى فيما يقول فإن ماتزينى بدأ مع بعض شركائه الشبان فى تنظيم عمل لحسابه الخاص تحت اسم الكاربونارى فى الظاهر، على حين كانوا فى الواقع يعملون للاستعاضة عنها بجمعية أقوى . وكانت خطته أن يوثق الصلة بين الكاربونارى فى توسكانيا وبولونا بأولئك الذين فى جنوة وبيدمونت، ولذلك طلب جواز سفر إلى بولونا بدعوى أنه يريد إحدى مخطوطات دانتى، ولكن الشرطة أخبرته بوجوب الانتظار طالما ليس له مهمة أهم من ذلك !

ولما خاب فى طلبه رجع إلى مؤامرته الشبيهة بالمستقلة فى وطنه ؛ فإن ثورة يوليو فى فرنسا سمت بآمال الأحرار فى كل مكان، وأخذ هو وأصدقاؤه يجمعون حولهم شركاء نبذوا الركام الكاربونارى من الأيمان والشارات السرية، وعاهدوهم فى سذاجة على الثورة إذا أمكن القيام بها، ولكنا لا نعرف إلى أى حد نجح فى جمع الأتباع ؛ لأنه لم يترك لنا أى بيان عن هذه الخطة .

وعلى أية حال فقد لدغ ماتزينى على حين غرة ؛ إذ كان للحكومة عيون بين الكاربونارى، فقبض عليه بتهمة أنه التحق بهم، ومن المحتمل أن السلطات

كانت تشك فيه بعض الوقت ؛ فقد قال عنه حاكم جنوة لأبيه : « إن ابنك مُنح بعض المواهب ، وهو مغرم بالسير وحيداً فى الليل مستغرقاً فى التفكير ؛ فما الذى عنده فوق هذه الغبراء يجعله يفكر وهو فى هذه السن ؟ نحن لانحب للشبان أن يفكروا دون أن نعلم مدار أفكارهم ! » . وأُخذ ماتزينى إلى قلعة سافونا حيث تسلى بمراقبة البحر والسماء وهما كل المناظر حول نوافذ زنزانته ، وألِف طائراً كناريًّا كان يطير عبر النوافذ الحديدية ، وتعلق به تعلقاً زائداً .

ونُظرت قضيته أمام مجلس شيوخ تورين وهو أعلى محكمة فى البلاد ؛ فقد كان فى نظر القانون مذنباً كبيراً ، غير أنه ببراعته التى كان يتذكرها فيما بعد مفتخراً بها قد استطاع أن يمزق كل الأوراق التى تعرضه للخطر ، ولم يكن هناك إلا شاهد واحد على التحاقه بالجمعية ، على حين يتطلب القانون شاهدين وقد أنكر ماتزينى الواقعة فى جرأة ، ولكن إنكاره كان أكثر من مجرد الاحتجاج بأنه غير مذنب كما هو معروف فى المحكمة الإنجليزية ، ولربما ظن ماتزينى أن المتآمر يجب عليه أن يضع علاقته بحكومته خارج نطاق الالتزام الأخلاقى . ومهما تسامحنا مع ماتزينى نظراً للوضع الذى كان فيه فالرجل الصريح سيعتبر عمله من الأمور غير الكريمة التى ما شابت الشرف الواضح فى حياة ماتزينى إلا نادراً .

وكان لزاماً على المحكمة أن تبرئه ، ولكن السلطات كان لديها أكثر

من دليل على نشاطه ، فلم تتركه كما يشاء ، بل خيرته بين البقاء فى بلدة صغيرة وبين المنفى . وقررت الحوادث المعاصرة ما يجب عليه اختياره ؛ فإن الثورة اندلعت فى إيطاليا الوسطى أو كادت ، وشجعت الحكومة الفرنسية الكاربونارى على أن يتوقعوا منها مساعدة مباشرة أو غير مباشرة ، فاعتقد ماتزينى أنه سيخدم غرضه خدمة أفضل فى باريس ومن ثم يعود — كما كان يرجو مخلصاً — إلى إيطاليا المحررة .

وفى فبراير سنة ١٨٣١ ودع أسرته التى أسرعت إلى سافونا لوداعه ، وعبر جبال الأبنين والألب لأول مرة تلك الجبال التى ألفها وأحبها فيما بعد ، كما راقب شروق الشمس من قمة منت سنى ، وترك له وصفاً تذكارياً خطه بكل ما وهب من ثروة فى تصويره الفنى . وفى جنيف تعرف بسيسموندى وزوجه الإسكتلندية ، وهناك نصح له بأن يعدل عن رحلته التى أزمعها إلى باريس ، وأن ينضم إلى المنفيين الإيطاليين فى ليون ، فاتخذ طريقه إليهم .

الفصل الثانى

إيطاليا الفتاة

١٨٣١ — ١٨٣٣ م — من الخامسة والعشرين إلى السابعة والعشرين

حال إيطاليا — ثورة سنة ١٨٣١ — إيطاليا الفتاة — مبادئها — الاعتقاد فى إيطاليا — إلهام الواجب — الإصلاح الاجتماعى — نطاقها السياسى — مبدأ الجمهورية — الوحدة الإيطالية — الحرب مع النمسا — الجمعيات السرية .

كان مدير السجن فى ساڤونا قد سمح لماتزينى أن يقرأ الكتاب المقدس وبيرون وتاسيتس ظانًّا بسذاجته أنها لا تحوى موضوعات ثورية . ومن هذه الكتب ومن ذاتى نبعت جمعية إيطاليا الفتاة ، وكانت إيطاليا قد نضجت لتتلقى تعاليم هذه الجمعية التى تعتبر جمعية تلك الحقبة ؛ إذ كانت البلاد « تعبيراً جغرافيًا » ليس إلا ؛ فالغزاة أغرتهم الأراضى الجنوبية ، فقطعوها إقطاعيات لأنفسهم ، واستولت النمسا على لومبارديا وأراضى جمهورية البندقية ، وحكم

ملك بيدمونت الشمال الغربي وساردينيا وسافوى عبر الألب، وكان البوربون في نابولي يملكون الجنوب، أما البابا، وغراندوق توسكانيا، والدوقات التافهون في مودينا وبارما وليكا فقد اقتسموا وسط إيطاليا، فلم تكن في إيطاليا دعوة جدية إلى الوحدة لأن التاريخ والصفات المختلفة شطرتها شمالا وجنوباً، كما كانت مدن العصور الوسطى العظيمة لا تزال تعتز باستقلالها اعتزازاً كبيراً، فلم ترد أن تغرق ذلك الاستقلال في بلاد عامة. وعندما كان نابليون يحكم إيطاليا سار شوطاً بعيداً لتوحيد أرضها في الشكل والمادة كليهما، وعمل كثيراً على خلق هذا المطمح الذى عاش من بعده. ولم تكن المظالم قوية إلا أنها كانت تقوى باستمرار حجة الوحدة، وكان الإيطاليون يزدادون حماسة ضد الحواجز الصناعية التي تقف سريان حياة الشعب. فخطوط الجمارك كانت تواجه التاجر على حدود كل ولاية فتخنق التجارة، كما أن الأدب كان ينتقل بصعوبة، فلا يكاد أهل جنوة يحصلون على الكتب التي تطبع في فلورنسا أو ليجهورن على بعد مائة ميل منهم، وكانت الرقعة في الولايات الصغيرة ضيقة بحيث لا تسمح بأى مجال لمشروع من المشروعات؛ فكل محام ومهندس وموظف حبسته القيود في حفنة من البلاد وحدت من نشاطه.

وقام في طول شبه الجزيرة وعرضها حكم سيء لا يطاق؛ فعدم الإمكانيات السياسية لم يكن يسمح بصوت في التشريع أو في الرقابة على فرض الضرائب أو على السلطة التنفيذية أو الحق في عقد الاجتماعات العامة أو إنشاء الجمعيات، وإن سمح بقليل من حرية القول أو الكتابة.

وقامت مظالم أخرى تتمثل فى عدم تشجيع التعليم وفى الطغيان الكنسى وفى إهمال النظام القانونى بأكمله أو فى جزء منه، كما ترتب على فساد الحكم سيئة أخرى : إذ كانت قوة الشرطة تهدد كل شخص فى سكنه وشرفه واتجاهه ؛ وذلك لأن الحكومات كانت تتنفس وتتحرك وهى فى خوف مزمن من الثورة ، فبحثت عن الأمان فى نظام خبىء للإرهاب ، فبثت الشرطة عيونها فى كل مكان ، فى الشوارع ، فى أهل المنزل المخالطين للمرء ، فى الكنائس ، فى الجامعات ؛ لتتسقط كل كلمة أو عمل تافه يبدو أنه يشير إلى نقد محتمل للحكومة ، ولو أن سوء الحكم كان له ما يلطفه فى بيدمونت وتوسكانيا والأقاليم النمساوية ، أما ولايات البابا ونابولى فلم يكن فيها إلا القليل ، أو لم يكن فيها شىء لإزاحة الفساد والعجز الصارخين ، وعم فى كل مكان قليل أو كثير من التعصب والاستبداد اللذين بدوا حالكين بعد الحرية والتقدم النسبيين فى حكم نابليون .

وكان الكاربونارى هم الناطقين بلسان الاحتجاج القومى إلى حد ما : فقد قاموا فى هذا الوقت نفسه بمحاولتهم الأخيرة للثورة : فى فبراير ١٨٣١م أى قبل أن يطلق سراح ماتزينى من سافونا — قامت الثورة فى مودينا ، وسرعان ما امتدت إلى بارما وإلى الإقليم البابوى روما نا ، وفى ثلاثة أسابيع تحرر الجزء الأكبر من الممتلكات البابوية ، وسار الجيش الثورى نحو رومة وقد أدرك قواده أنه مهما سهل عليهم قلب حكم البابا والدوقات فإنهم لا يستطيعون مقاومة الهجوم النمسوى مقاومة فعالة ؛ ولذلك عولوا على وعد

فرنسا برد الغزو النمسوى ؛ فقد كان مبدأ « عدم التدخل » وهو المعادل الأوربى لمبدأ « مونرو » هو أحد مبادئ ملكية يوليو فى فرنسا ، وبمقتضاه لم يكن يحق للنمسا أن تتدخل فى الشئون الداخلية لولاية إيطالية . وأكدت الحكومة الفرنسية للكاربونارى أنها ستعلن الحرب على النمسا إذا هى خرقت هذا المبدأ ، غير أنه لم يخلص لهذا الوعد إلا فريق من الوزارة الفرنسية ، كما رأى لويس فيليب أن الحرب باسم القومية ربما انزلقت بسهولة إلى حركة ثورية قد تهز عرشه المزعزع ، وأن حكومته جعلت « ميترنخ » يدرك أن عدم التدخل عبارة تقف عند حد الألفاظ .

فنى نهاية مارس قمع النمسويون التمرد لساعته بالرغم من ذلك القتال الرائع الذى خاض غماره المجندون الإيطاليون ؛ وهكذا كان ضعف الثورة هو الذى أدى بها إلى الفشل ، لا لأن برنامج القادة كان يتطلب سعة وجرأة . ولذلك كان انتقاد مازينى لهم فيما بعد انتقاداً غير قومى وغير ديمقراطى ، مبالغاً فيه وجائرا ؛ فقد جاد الكاربونارى فى خلال الأسابيع القليلة لحكمهم بمشروعات للإصلاح الاجتماعى ، ورغب بعضهم أن يجعل رومانا مركز نهضة قومية عظيمة ، كما هدفوا إلى إنشاء اتحاد مستقل يتكون من إيطاليا كلها عاصمته رومة ، ولكنهم ارتكبوا خطأين غير قابلين للإصلاح حين لم يواجهوا الحقائق ، وأخفقوا فى اكتساب الشعب : إذ كان معظمهم كبقية قادة الكاربونارى رجالا مهنيين من متوسطى العمر غير متصلين بالجماهير ، يتملكهم الخوف من أن يفزع الاندفاع الشعبى الدبلوماسيين الذين بنوا عليهم

آمالهم . ولو قاد الشعب قائد ملهم فى ذلك الوقت لقاتل تحت قيادته كما قاتل بعد سبعة عشر عاماً من ذلك التاريخ عندما طرد النمساويين من بولونا ، ففروا لا يلوون على شىء .

ولكن هؤلاء القواد لم يكونوا يلمسون حماسة الشعب ؛ فقد أخطئوا فى الواقع فى تقدير معنى الحركة ، فكانوا رجال سلم مرفهين يحفلون من الحقيقة ، وهى أن النمسا يجب أن تقاتل وأن تهزم ، فلم تكن لديهم فكرة عن قتال العصابات "Guirella" ذلك القتال المتهور ، ولذلك كان معنى هذه الثورة التى قاموا بها إضاعة البلاد وتفشى الفاقة والمرض والموت من أجل رجاء غير محقق المنال بأن تأتى فرنسا لإنقاذهم فوراً . ومع ذلك كان هؤلاء القادة مستعدين للإبحار على مشروع يائس حيث لا صديق ، وحيث الكارثة محققة آملين أن يكونوا طلائع لانتصارات أبنائهم فيما بعد .

وكان إخفاقهم مطابقاً لكل سياسة الكاربونارى الأخيرة مما أيد ماتزينى فى اعتقاده بأن الأمر يتطلب منظمة جديدة ورجالا جدداً لقيادتها ، ولكن ماتزينى — كما هى عادته — لم يز إلا نوعاً واحداً من الحقائق ، فبالغ فى أخطاء الحكومات الثورية ، وأسقط من حسابه عدم استقامة الشعب ، فأقنع نفسه بأن الثورات أخفقت لسبب يسير هو أنها كانت سيئة القيادة ، وكان محقا فى الغالب ؛ إذ كانت الثورة تتولاها أيد مخطئة فرؤساء الكاربونارى سيطروا على الشبان الذين يصغرون عنهم سنا ، وانصرف جهدهم إلى عدم

تقدم هؤلاء الشبان . فلو أريد للثورة المقبلة أن تكون أفضل لوجب أن يقودها هؤلاء الشبان أنفسهم ، وهم رجال ثقة وحماسة وآراء جديدة ، رجال رسالة تشد من أزر « صناع الثورة والشعب والشبان جميعاً » .

وكان ماتزينى حين ذاك يعتقد فى جيله اعتقاداً سامياً ، فكتب فى جريدة « أنتولوجيا » يقول : إن « إيطاليا الفتاة التى هى منا — قوة مثقفة حارة القلب لا يستعصى عليها أية حركة جديدة مهما كانت جريئة وصعبة » وقال : « ضعوا الشبان على رأس الجماهير الثائرة ؛ فإنكم لا تعلمون أية قوة خفية فى تلك الجماعات الشابة ، وأى تأثير سحرى لصوت هؤلاء الشبان على التجمعات . ضعوهم على رأس الجماهير تجدوا منهم أرباباً لحوارىي الدين الجديد : إن الشباب يعيشون على الحركة وينمون نمواً كبيراً بالحماسة والإيمان ؛ فكرسوهم لرسالة شامخة وأشعلوهم بالتباهى والثناء ، وانشروا بين طبقاتهم كلمة النار ، كلمة الإلهام ، حدثوهم عن البلاد ، عن العظمة ، عن القوة ، عن الذكريات المجيدة ؛ لقد كمموا فى الماضى ، ويجب ألا يكمموا مرة أخرى » .

وأصر ماتزينى على ذلك إصراراً شديداً حتى جعل مبادىء إيطاليا الفتاة تستثنى من عضويتها كل من زاد سنه على أربعين عاماً إلا فى حالات خاصة ، ولم يتهيب أن يمسك هو بزمام تلك الأثرة الضخمة فى هذا المشروع ، فأعطى نفسه مركز القيادة عامداً ، أو كما قال أحد أصدقائه المقربين فى تلك الأيام : « كانت ثقة ماتزينى فى رجاله عظيمة ، وثقته فى نفسه لا حد لها » . كما كتب

ماتزيني في سنين لاحقة : «ابدأ برجال غير معروفين من الشعب ، لانفوذ لهم إلا العقيدة والإرادة ، لا يحسبون حساباً للزمن والمصاعب » .

ومما يستحق الذكر أن كاميلو كافور — وكان أصغر منه بخمس سنين — كتب في الوقت نفسه لصديق له يقول : «إنني سأستيقظ ذات صباح جميل ، فأجدني رئيس وزراء إيطاليا ! » .

وإذا أزلنا عن آراء ماتزيني ذلك الإبهام الزائد الذي كان يغشاها في بعض الأحيان وجدنا مبدأين رئيسين يميزانها من آراء الحركات السابقة .

وقد احتال ماتزيني في أن يجعل هذين المبدأين شعاراً ، فلخصهما في عبارة « الله والشعب » : ويقوم المبدأ الأول على أن الحركة الجديدة ينبغي أن يكون لها من الإلهام والقوة ما للدين من إلهام وقوة ؛ فإيطاليا تحتاج لشيء يزيل عنها فتور الهمة والهزيمة ، شيء يثبت أن لإيطاليا « في نفسها قوة تحكم الحقائق ، قوة أقوى من القدر نفسه[1] » ؛ فإن العمل يوقظه العمل ، والجهد يستفزه الجهد ، والعقيدة تنهض العقيدة ؛ فالعقيدة هي التي جعلت رومة عظيمة ، وألهمت المسيحية ، وأرسلت جيوش المؤتمر في أمريكا ، وهي التي جعلت الضعفاء أقوياء لأنهم يعلمون أنهم ينفذون إرادة الله .

وكان لماتزيني حجتان لإقناع مواطنيه بهذه العقيدة وبالوطنية الظافرة ؛

---

(١) هذا رأيه .

فقد رجا أن يشعل جوانحهم بإيمانه القوى بإيطاليا ومقدرتها فقال : « إن الاسم القديم لإيطاليا يُحاق بالذكريات والعظمة والأحزان الجليلة التى لا تستطيع قرون العبودية الصامتة أن تحطمها » : فقد كانت إيطاليا سيدة العالم مرتين ، وكثيراً ما ألهمت الفكر الأوروبى : فهى أرض دانتى وفيكو ، وأرض البابوية والنهضة . وقال : « لقد سميت إيطاليا مقبرة ، ولكن المقبرة التى يسكنها موتانا الأقوياء أقرب إلى الحياة من أرض تكتظ بأحياء مستضعفين أدعياء ! » . وقال : « إن مهمة إيطاليا لم تنته بعد فلا يزال عليها أن تتحدث إلى الشعوب « بإنجيل العصر الحديث ، إنجيل الإنسانية » .

كما وجه ماتزينى انتباه الإيطاليين إلى : « صورة بلادهم مشعة مطهرة بالآلام تسير كأنها ملك النور بين الشعوب التى ظنت أنها ماتت » .

وكان محقاً حين قدر أن الرجال الذين يشاركونه فى إيمانه لن ييئسوا من بلادهم ، ولكن خالجته فكرة أعمق ؛ إذ هدته عبقريته إلى أنه يجب على من يريد إنهاض الرجال ليقوموا بعمل سام أن يهيب بدوافعهم التى لا تنطوى على الأثرة ؛ إذ أنه عندما تناديهم بعض المبادىء العظيمة فحسب — تسمو نفوسهم إلى البطولة والتضحية بكل ما يجعل الحياة عزيزة لدى الناس ؛ فإن الجهد فى سبيل إقامة إيطاليا يعنى خسارة آلاف من الأرواح أو المنفى والسجن والفقر وإقفار المنازل وبؤس الأعزاء ! ولن يواجه الرجال هذه المصائب إلا تلبية لنداء الواجب . ولم يكن للكاربونارى نداء لأنهم جاءوا

من مدرسة تدعو إلى دوافع المصلحة ، وهذه الدعوة لابد أن تنهار يوم الخيبة والانهزام

وعرض ماتزينى على مواطنيه « ديناً قومياً » : فإيطاليا الفتاة — فى رأيه — ليست مجرد حزب سياسى ، بل هى « عقيدة ورسالة » ؛ إنها تعلم الإيطاليين أن النصر يأتى « من احترام المبادىء ، احترام العدالة والصدق : من التضحية والاستمرار فى التضحية » ؛ فإن للإيطاليين أفراداً وشعبا رسالة منحهم الله إياها ، ويأمرهم قانون الواجب الإلهى باتباعها ، كما يعدهم قانون الرقى الإلهى بإنجازها .

أما المبدأ الآخر لإيطاليا الفتاة فهو الإصلاح الاجتماعى ؛ فقد رأى ماتزينى أن الحركات الحرة السابقة لم تفكر فى الجماهير ، ولم تبذل فى سبيلهم إلا قليلا ؛ ذلك بالرغم من أن النهضة الحديثة فى رومانا استهدفت — على أية حال — هدفاً أعلى مما كان يثق فيها ماتزينى ، وكان لها من الاتجاه الديمقراطى أكثر مما كان للحركات المعاصرة فى فرنسا وإنجلترا ، ولكن ماتزينى بالغ فى وصف الملل الذى انتاب الجماهير الثائرة سنة ١٨٢١ ، سنة ١٨٣١ فقال : « إن الثورات كانت كتفاح البحر الميت بالقياس إليهم ، ولابد أنهم سيكونون أبطأ فى تحركهم مرة ثانية ما لم يروا أن لتحرير بلادهم نتائج اجتماعية ملموسة مدخرة » ، ولكن من الصدق أن نقول : إن حماسة هذه الجماهير لم تخمدها إلا خيبة آمالهم

كان ماتزينى يؤمن بأن إنجيل الواجب سيوقظ الطبقات المتوسطة المثقفة ، فى حين أن المدوسين تحت الأقدام والقساوسة والجماهير وغير المتعلمين هم مطايا الحكام ، ولن يستجيبوا للدعوة السامية ، وأنه يجب أن نكتسبهم بإيجاد مطمح ظاهر يسعون إليه ، وهو الخلاص من الشرور الحالية ؛ فإن صيحة البابا جوليوس : « أخرجوا المتبربرين » — لا تهز مشاعر الذين لا يرون أن كل ظلم اجتماعى ينبغى أن يلقى آخر الأمر على عاتق النمسا ، كما لا يدركون أن ندرة الطعام والتآمر والطغيان الحقير هى ثمار الحكم الأجنبي ؛ فهو الذى يظل الأمراء الذين يسيئون حكم الجماهير ، ولا رجاء فى نجاح حرب التحرير ما لم تشعر الجماهير بذلك ، فقال ماتزينى : إن « الثورات يجب أن تقوم من أجل الشعب وبالشعب ، وطالما ظلت الثورات كما هى ميراثاً واحتكاراً لطبقة واحدة ، ولا تؤدى إلا إلى أن يستبدل بأرستقراطية أرستقراطية أخرى فلن نجد إلى الخلاص سبيلا » .

وكانت صيحة الفقراء التى لم يصغ إليها معظم رجال الدولة الإيطاليين منذ عصره حتى الأمس القريب حجة فى جانب ماتزينى فقال : « إنى أرى الشعب يمر أمام ناظرى متسربلا البؤس والخضوع السياسى ، جائعاً يلبس الأسمال البالية ، جامعاً فى ألم الفتات الذى يلقيه له الأغنياء فى احتقار ، ضائعاً يهيم فى الطرقات : كما أرى النشوة الفظة المتوحشة ، وأتذكر أن تلك الوجوه الوحشية تحمل طابع الله ، تحمل علامة الرسالة نفسها التى نحملها . لقد سموت بنفسى إلى رؤيا المستقبل ، فرأيت الناس ينهضون فى جلالها إخواناً فى عقيدة

واحدة ، يربطهم رباط واحد من المساواة والحب ، وتجمعهم مثالية واحدة من فضيلة المواطن التى تنمو أبداً فى الجمال والقوة ، وأن شعب المستقبل الذى لم تتلفه الرفاهية ، ولم ينغصه البؤس — يستشعر الحقوق والواجبات . فلما رأيت هذه الرؤيا خفق قلبى بالألم للحاضر والتمجيد للمستقبل » .

ولم يشك ماتزينى فى أن الفقراء سيهبون ثائرين فقال : « اجعلهم يرون من أين ينبع بؤسهم وأين دواؤهم ، ويشعرون بأن الله مع الذين ديسوا بالأقدام ، فيعود شعب إيطاليا كما كان أيام عصبة اللمباردو فى مذابح «الفسبر» فى صقلية .

ومن هذه المبادئ — وهى الإصلاح الاجتماعى كغاية مباشرة للثورة ، والواجب كإلهام لها — أنشأ ماتزينى برنامجاً سياسياً متقنا ؛ إذ كان يحب عمل الأنظمة ، وقلما كان يعتذر عنه ؛ ولذلك أصر على أن الوطنيين لا يستطيعون أن يقيموا وحدة أو تناسقاً بغير نظام موضوع . وكان يبرر إصراره هذا بمبرر عملى ، وهو أنه من الأفضل — كما أثبتت الحوادث اللاحقة — أن يتجادل الوطنيون فى خلافاتهم قبل أن يحين وقت العمل ؛ حتى لا ينشب العراك بينهم ، فيشل حركتهم ، وهم يواجهون العدو . كما أن الحاجة إلى برنامج وضعى هى المسئولة إلى حد كبير عن فشل الكاربونارى ؛ فسياستهم لم تكن تمتد إلى أكثر من إسقاط الحكومات القائمة ، كما حشدوا تحت لوائهم الملكيين والجمهوريين ، والمحافظين والأحرار ؛ مما نتج عنه أنهم بعد أول

انتصار لهم انحازوا إلى طبقاتهم الأصلية ، وسقطوا فريسة سهلة . . ولذلك قال : « إنه من الأحكم أن نكون أقلية ، ولكن فى اتحاد ؛ فإن قوة (الجمعية) لا تعتمد على عددها ، بل على تجانسها » .

ولكن هذا المبدأ المتشدد جعل (الجمعية) تقفر من كثير من الوطنيين الصادقين الذين لم يكونوا ليقسموا على تنفيذ مبدأ ماتزينى بأكمله ، ولكن ماتزينى لم يرحم مثل هؤلاء ؛ فقد رأى أن الخوف « وهو الإله القادر الذى يعبده معظم السياسيين » هو الذى منع المعتدلين من قبول مبدئه . كما قال فى تاريخ لاحق : « لا يمكن أن يكون وسط بين الخير والشر ، والصواب والخطأ ، والرقى والرجعية » .

ومن سوء الحظ أنه كان يعنى بالصدق دائماً الموافقة على مبادئه هو ، فلم يتسامح قط مع الذين يبدءون بفروضه المنطقية ، ثم لا يستطيعون اتباع منطقه حتى النهاية بالرغم من أنه — كمعظم الذين يعتزون بأنهم مناطقة — لم يكن ليقدر وحده على التفكير الدقيق . وكان هذا التشدد هو الذى اصطدم كثيراً وحياته فيما بعد ، وهو الذى جعله يبدد قواه الرائعة فى محاربة الذين كان ينبغى أن يقف إلى جانبهم .

وكان ماتزينى يتطلب من أتباعه — ولسنا نعلم : أخيراً كان هذا أم شراً ؟ — قبولا وطيداً لمبادئه ، تلك المبادئ التى أحاطت بكل أفق فى الحياة القومية : الدين والسياسات ، والأدب والفن . وكان أهم مبادئه

السياسية هى الجمهورية ووحدة إيطاليا . وسنتناول فى فصل آخر كيف جعل ماتزينى الجمهورية جزءاً من نظريته العامة فى شئون الحياة . أما فى هذا الفصل فحسبنا أن نشير إلى أنه كان جمهورياً لسبب رئيس ، هو اعتقاده أن التشريع الديمقراطى مستحيل فى ظل أشكال الملكية كلها . وكان هذا الاعتقاد طبيعياً فى ذلك الوقت ؛ إذ ما كان أقل الإصلاحات الشعبية التى تمت فى ظل التيجان الأوروبية ! فى حين أن السلسلة الوحيدة الأصيلة للقوانين الديمقراطية قد أصدرتها الجمهورية الفرنسية ، أو صدرت عندما كانت الملكية الفرنسية على حافة السقوط .

وقد فصل ماتزينى فى ذلك الوقت بين الملكيات والجمهوريات فصلا واضحاً ، وإن كان قد أخفق فى أن ير أن هذا الفصل ليس تاماً ، ولكننا قد نعذره لأنه رأى فى إيطاليا ظروفاً خاصة تعمل من أجل الجمهورية ، فذكرياتها العظيمة كانت ذكريات جمهورية ، بيد أنه كان ينبغى أن يعلم أن جمهوريات إيطاليا فى العصور الوسطى لا تتفق مع سياسته المثالية إلا قليلا ؛ فالتقاليد الجمهورية فى البندقية وجنوة بلده كانت لا تزال نادرة عزيزة ، غير أن مبدأ الجمهورية الإيطالية تبرأ من كل ذكرى حديثة لانتهاك الحرمات وأحكام الإعدام التى لطخت اسم الجمهورية فى فرنسا .

وفوق ذلك كله أصر ماتزينى على أنه لا يمكن إيجاد ملك لإيطاليا الموحدة ؛ لأن كل أمير قد دان بالولاء للنمسا ، وأن كل واحد منهم أقام الدليل على عطفه على الرجعية ، ولم تكن الملكية فى إيطاليا ذات تاريخ

رائع ولا تقاليد محترمة ، ولا نبالة قوية لتدعمها ؛ إذ لا يوجد إلا أميران اثنان فقط لكل واحد منهما جيش يمكن أن يساعد فى حرب التحرير ، كما أن ملك بيد مونت وملك نابولى لن يخضع أحدهما للآخر دون حرب أهلية مريرة ، والكراهية بين الشمال والجنوب لن تسمح لأهل نابولى بأن يتخذوا ملكا من بيدمونت ، فى حين أن نابولى وبيدمونت قد تقبلان الخضوع لمبدأ جمهورية عامة . ولكن التاريخ أثبت أن (تشخيص) ماتزينى لهذه العلة كان خاطئاً ، بل هو نفسه يلمح هذا الخطأ من حين إلى حين ، فيحجم عنه ؛ ولذلك أفسد أكثر من مرة — كما سنرى فى حياته فيما بعد — نظريته الجمهورية بنوبات من شبه الاعتقاد فى الملكية البيدمونتية .

غير أن دعوته إلى الوحدة الإيطالية قامت على أساس أوثق ؛ إذ اتفقت كل مدارس الوطنيين على أن البلاد قدر عليها أن تظل راكدة حتى يجلو الأجنبى عنها ، ولكن إذا طرد النمساويون فهل ستكون إيطاليا اتحاداً من الولايات أو تكون دولة موحدة ؟ ذلك ما اختلفوا فيه : فدافع ماتزينى بأن المسألة المختلف عليها بينه وبين الاتحاديين هى مسألة متعلقة بإمكانية التطبيق ليس إلا ، غير أن مدرسة الاتحاديين التى كانت تتطلع إلى أنظمة سويسرا وأمريكا وتفضل اتحاداً من هذا النوع صعب عليها أن تقدر ما يراه ماتزينى حق قدره ، ولكن اقتناعه كان صحيحاً بوجه عام ؛ إذ أن كل حجة تدعو إلى الاتحاد إنما تدعو بشكل أقوى إلى الوحدة ، كما أن قوة الحركة الاتحادية لم تكن تأتى إلا من الاعتقاد بأن الوحدة مستحيلة .

وكان نابليون قد تكهن بأن الوحدة ستحدث إلا أن حفنة من الإيطاليين فحسب — هم الذين جرءوا على التحدث عنها كمثالية محتملة الوقوع ، أما الغالبية العظمى منهم فشكت حتى فى مجرد أن إيطاليا تريد الوحدة ، وشكت أيضاً فى أنها لو رغبت ذلك ما مكنتها حقائق السياسة الأوروبية من تحقيق هذه الرغبة ، كما ارتابت فى أن الوحدة تستطيع أن تقف على الدوام ضغط الأحقاد الإقليمية القديمة .

وقد سهل على هؤلاء المرتابين أن يوردوا طائفة من الحقائق ، وهى الاختلافات فى الجنس والأمزجة والتقاليد ، والعادات المتعددة التى صاغتها أنظمة مختلفة فى القانون ، وحيازة الأرض والتعليم ، والغيرة التى لم تخمد بعد والتى تفرق ما بين إقليم وآخر وبين مدينة وأخرى ؛ حتى شعر ماتزينى نفسه بقوة حججهم ، ومرت به لحظات تزعزع فيها إيمانه بالوحدة ، وقلما كان يفكر تفكيراً واضحاً لاستعادة إيمانه ، بيد أنه كان يؤكد احتمال حدوث الوحدة تأكيداً قويا ؛ حتى لقد جعل إيمانه القوى المؤثر من هذا الاعتقاد حقيقة قائمة حين صعب على أى واحد من معاصريه أن يرى أن الوحدة الإيطالية هى مثال أعلى يمكن تطبيقه عملا ، وخلقت تعاليمه عزماً قوميا فى الشعب حول ما كان يبدو مستحيلا إلى حقيقة . وإذا كان القليل من الرجال هم الذين يتأتى لهم أن يخلقوا فكرة سياسية عظيمة فإن أقل القليل هم الذين يتأتى لهم أن يخلقوها ويكونوا أداة رئيسة لتحقيقها . وكان ماتزينى كلا الرجلين مما أضفى عليه شهرة جعلته فى مصاف صانعى أوروبا الحديثة .

ولكن لن تكون ثمة وحدة ولا جمهورية ولا تقدم سياسي من أى نوع إلا إذا وقعت الحرب المحتومة ضد النمسا ، وخرجت منها إيطاليا ظافرة ؛ إذ لم تكن النمسا لتسلم أقاليمها الإيطالية إلا بقوة السلاح ؛ لأنها لا تستطيع أن تسمح بقيام دساتير حرة إلى جانب حكمها الاستبدادى ؛ ولذلك سحقت النهضات فى نابولى وبيدمونت منذ عشر سنوات مضت ، وكذلك سحقتها فى مودينا ورومانا بالأمس ؛ فقال ماتزينى : « إن النمسا تسلبنا الحياة والوطن والاسم والعظمة والثقافة والرفاهية المادية » أو كما قال جيوزتى الإيطالى بشكل أوضح بعد بضع سنوات : « إن الإيطاليين يأكلون النمسا فى خبزهم ! » وأدرك ماتزينى وكثير من الوطنيين أن أى حل سلمى إنما هو محض خيال ، وبشر بأن : « مصير إيطاليا سيتقرر على سهول لومبارديا ، وأن السلم سيوقع فى حدود الألب » .

وكان ماتزينى يرحب بالحرب من أجل سبب عادل : هو أنها ستنقذ الإيطاليين المخدرين الفاقدى الهمة ، الإيطاليين الذين كانوا من قبل شجعاناً كما أثبتت ذلك غزوات نابليون ، ثم أصبحوا يتطلبون الكثير لاستنفارهم للعمل . إن الحرب سترد لإيطاليا احترامها القومى لنفسها ، وتجعلها جديرة باحترام الشعوب الأخرى ؛ فهى فى رأيه : « القانون الأزلى بين السيد وبين العبد الذى حطم أغلاله » .

ولكنه رأى بوسائله الحكيمة عقم كل نهضة محلية أو سيئة الإعداد ، وأعلن أن النصر هو وحده الذى يبرر القيام ضد النمسا ، وبذلك حكم على كثير

من أعماله المستقبلة حكما واضحا . كما أنه عندما تنتصر كتلة الشعب العظيمة فى غرضها القومى سيشير الوطنيون إلى لومبارديا ، ويقولون : « هؤلاء هم الذين أطالوا عبوديتكم » كما يشيرون إلى الألب ، ويقولون : « هنا تقوم حدودكم » .

وكانت خطة ماتزينى فى الحملات العسكرية تقوم على حرب العصابات إذ أن هذه الحرب كما قال — هى المورد الطبيعى للشعب الثائر الذى يريد أن يكتسب حريته ضد الجيوش النظامية ، وهى الأسلوب الذى اتبعه الهولنديون ضد فليب الثانى ، وأهالى المستعمرات الأمريكية ضد إنجلترا ، كما اتبعه الإسبانيون واليونانيون فى سنوات أحدث ، ولو كان ماتزينى يعيش الآن لأضاف إلى هذه الأمثلة مثالا آخر أوضح : هو عمل الفدائيين العرب والمصريين ؛ كما كان ماتزينى يصيح قائلا : « انظروا أيها الإيطاليون إلى جبالكم حيث القوة والنصر الذى لا يخطىء » لأن لإيطاليا صلاحية إستراتيجية خاصة بسبب سلسلة جبالها الطويلة التى لا يستطيع أى عدو أن يستولى عليها بالقوة .

وكانت إيطاليا الفتاة تقوم فى الوقت نفسه بتنظيم المنظمات وتعليم الإيطاليين ، وكانت المنظمة الوحيدة الميسورة فى ذلك الحين هى (الجمعية) السرية ، ولكن عيوبها الموروثة خفيت عليه ، فسرعان ما أصبحت (جمعية) إيطاليا الفتاة مباة لعيون الشرطة ووكلائهم ، كما كانت (جمعية) الكاربونارى من قبل . وظل ماتزينى إلى آخر حياته ضحية لعيون الشرطة التى سهل عليها أن تكتسب ثقته . وانتهت (جمعية) إيطاليا الفتاة إلى قيادة غير منظمة

وغير مسئولة . وبالرغم من أن رئيسها كان يتوق مخلصاً إلى إنكار كل رغبة له فى إملاء إرادته — كان متسرعاً واثقاً من نفسه لدرجة أنه لم يسمح لمعتقدات الرجال الآخرين بالانطلاق . وأخفقت (الجمعية) إخفاقاً فاجعاً فى وسائل الإعداد للحرب كما أثبتت أنها مدرسة سيئة للسياسيين البرلمانيين الذين جاءوا فى مقبل الأيام ، ولكن لا خيار لأحد فى البلاد التى تؤدى فيها حرية التعبير عن الشعور الحر إلى السجن أو المنفى ، بل إلى المشنقة !

أما من حيث هى مؤثر ثقافى فقد أصبحت أعظم القوى التى صنعت إيطاليا : فكتاباتها التى ُهربت إلى كل مكان دفعت كثيراً من المفكرين الشبان إلى عزم أكيد أثمر ثماره فيما بعد من الأزمان ، ولكن ماتزينى لا يكاد ينظر فى هذا الطور على أية حال إلى النتائج البطيئة للتعليم السياسى ، لأنه كان يؤمن إيماناً وثيقاً بأن ساعة الثورة قد حانت ، وأن الثورة الأوروبية تهدد بالاندلاع ، وأن إيطاليا ينبغى ألا تتخلف عن إخوتها من الشعوب الأخرى .

لقد كان واثقاً من النجاح مهما كانت المصاعب التى تعترض الحركة القومية التى لا تظاهرها الحكومات الأهلية ، ومهما ارتاب كثير من الإيطاليين فى قواهم غير المؤيدة ؛ ففى رأيه أنه « لا توجد عقبة حق أمام ستة وعشرين مليوناً من الناس يريدون أن ينهضوا ويقاتلوا من أجل بلادهم »؛ فقد قدر أن النمسا لا تستطيع على أحسن فرض أن ترسل للميدان أكثر من مائتى ألف من الرجال ، فى حين أنه كان يعتمد — معجباً — على أربعة ملايين متطوع إيطالى ؛ كما رأى أن الشعب الذى استطاع وهو تحت قيادة الكاربونارى أن يقوم بثلاث ثورات فى عشر سنوات لا بد أن ينهض مرة أخرى وهو أكثر استعداداً وأكبر رجاء فى النصر طالما ألهمته عقيدة أنبل .

الفصل الثالث

مارسيليا

١٨٣١ — ١٨٣٤ م — من الخامسة والعشرين إلى الثامنة والعشرين

في مارسيليا — انتشار إيطاليا الفتاة — خطاب إلى شارل ألبرت — مؤامرة الجيش في بيدمونت — في جنيف — غزو سافوى

عندما وصل ماتزيني إلى ليون وجد خطة فاشلة تعد لغزو سافوى ؛ فإن ألفى لاجىء إيطالى أغلبهم من البيدمونتيين الذين فروا عن طريق جنوة منذ عشرسنوات خلت والذين أهاجوا حماسة ماتزيني في صباه — كانوا يستعدون للسير إلى سافوى تحت حماية الحكومة الفرنسية التي لا تكاد تخفى ، وكان ذلك في الأيام الأولى للملكية يولية التي لم تنس بعد أصلها الثورى ، ولكن قبل أن تبدأ الحملة سقط لويس فيليب سقطة سريعة فى أحضان المبدأ المحافظ ، وسرعان ما نكث عهوده التي قطعها للإيطاليين ؛ مما أنهى بغتة رعاية السلطات لهذه الحملة ، فتفرق الغزاة ، وانضم ماتزيني إلى فريق صغير من الجمهوريين كان يستعد للسير إلى كورسيكا ، ومن ثم ينضم إلى الثائرين في رومانا ، وكان الكورسيكيون لا يزالون إيطاليين في شعورهم كما هم إيطاليو الجنس ، وكان نفوذ الكاربونارى قويا فى جزيرة كورسيكا ، وتطوع ألفان من الرجال للعمل مع الثائرين وإن لم يكن معهم رأس مال فى أيديهم ليدفعوا منه نفقات

الرحلة ، ولكن قبل أن تتم الاستعدادات وصلت الأنباء بأن النهضة قد انهارت .

فارتد ماتزينى إلى مارسيليا حيث وجد اللاجئين الذين فروا من إيطاليا الوسطى ، فجند من بينهم بضعة شبان وطنيين ، وأخذ فى إنشاء مشروعاته بمعاونتهم . وفى غرفة صغيرة بمرسيليا بدأ هؤلاء الشبان الجبابرة يثيرون ثائرة إيطاليا وهم لا يملكون إلا إخلاصهم وجرأتهم . وقد كتب عنهم ماتزينى فى سنوات تالية فقال : « ولم يكن لنا مكتب ولا معين ، كنا طوال النهار وما زلنا بالليل غارقين فى عملنا ، نكتب المقالات والخطابات ، ونستقى الأخبار من المسافرين ، ونحصى رجال البحر ، ونطوى الأوراق ، ونغلق الأغلفة ، ونوزع أوقاتنا بين العمل الأدبى والعمل اليدوى ، فكان لا سيليسيا لا يفكر إلا فى التآمر ، وكان لامبرتى يقوم بتصحيح (البروفات) ، وثالث من بيننا يجعل نفسه حمالا بمعنى الكلمة ليوفر لنا نفقات توزيع الأوراق . عشنا إخوة متساوين ، ليس لنا إلا فكر واحد وأمل واحد ، ومثال واحد نجله . . وكان الجمهوريون الأجانب يحبوننا ويعجبون بنا لتماسكنا وصلابتنا فى عملنا . وبالرغم من حاجتنا الماسة الدائمة إلى المال كنا منشرحى الصدور باسمين ؛ لأننا نؤمن بالمستقبل » .

وكان ماتزينى فى حياته المستقبلة يرجع البصر ، ويطيل النظر فى نشاط تلك الأيام وحماستها من قبل أن تنال الهزيمة من عزيمته ، وتبعده عن أصدقائه . ولما كان سعيداً وموفقاً كان سحر طبيعته ومثاليته المشعة وصداقته الحميمة

وإيثاره على نفسه الذى يؤثر به فى غيره تجعله المحبوب الملهم لعصبته الصغيرة التى تعمل بأوامره ؛ حتى قال عنه أحد الإيطاليين يصفه : «كان ماتزينى خمس أقدام وثمانى (بوصات) طولا ، خفيف الوزن ، يرتدى قطيفة سوداء من جنوة وقبعة جمهورية كبيرة ، وكان شعره الجعد الطويل الأسود الذى يتدلى على كتفيه ونضارة بشرته الزيتونية الواضحة واللطف الملموس فى تقاطيعه الجميلة — كل ذلك إلى طلعته الشابة وتعبير وجهه الطلق — كان يجعل منظره أقرب إلى الإناث لولا جبهته ، ولولا الصلابة والتصميم القويان اللذان يمتزجان بخفة الروح والحلاوة فى ومضات عينيه السوداوين وفى التعبيرات المتنقلة على فمه ، ولولا شاربه ولحيته الصغيران الجميلان . وعلى الجملة كان أجمل مخلوق رأيته على الإطلاق من ذكر أو أنثى . ولم أر شبيهاً له منذ ذلك الحين » ولكن العمل الزائد والقلق كانا يلحان عليه فى بعض الأحيان ، فيمسى مريضاً مجهداً مما يجعله سريع التهيج ، يتطلب من أتباعه الخضوع التام ، ويغضب لو أحسنوا اعتقادهم فيمن يكرههم .

وظلت هذه العصبة الصغيرة عامين تبذر بذور الثورة ، فكان عملهم من أعمال البطولة ؛ إذ أن بضعة شبان بغير عون من محتد أو ثراء ، وليس لهم فيما عدا قائدهم — قدرة كبيرة — يعملون على تغيير مستقبل بلادهم ، ويستعدون لحرب إمبراطورية حربية عظيمة مما كان يبدو فى نظر الأجنبى عنهم حلماً من أحلام المجانين ، ولكن قائدهم المسيطر عليهم إيمانه ، فوجدوا فيه هم ومن ورائهم الآلاف من مواطنيهم القوة التى لا يكاد يستحيل عليها

شيء . كانوا يجهدون جهداً لا رحمة فيه شهراً فشهراً ، يراسلون العاطفين عليهم فى طول شبه الجزيرة وعرضها ، وينشئون فروعاً لإيطاليا الفتاة حيثما سنحت لهم الفرصة ، وينسجون معاً خيوط المؤامرة .

وقد وجدوا ظهيراً كثيراًفى إيطاليا ، فدعا ماتزينى أتباعه هناك إلى العمل مع الشعب فى كل طريق تركه الاستبداد مفتوحاً ، دعاهم أن يذهبوا بالأطفال إلى المدارس ويعلموهم ، وأن ينشئوا فصولا للرجال فى المراكز الريفية ، وينشروا الصور والكتيبات والتقاويم التى تحرك الآراء الوطنية دون أن تثير شكوك الشرطة ، وأن يحملوا شعلة النار من مدينة إلى مدينة ، ومن قرية إلى أخرى ؛ وقال لهم : « ارتقوا التلال ، واجلسوا على موائد الفلاحين ، وزوروا الصناع الذين أهملتموهم ، حدثوهم عن حرياتهم العادلة وتقاليدهم القديمة وأمجادهم وعظمتهم التجارية التى ذهبت ، حدثوهم عن آلاف الأشكال من الاستبداد التى يجهلونها لأن أحدا لم يحدثهم عنها » .

ولاقت دعوته قبولا : فإن مئات من الشباب الإيطاليين ألهبتهم عاطفته ، فوهبوا أنفسهم للمخاطر والفداء ، ولآلاف من المضايقات الصغيرة التى تكتنف حياة المتآمر . ولم يكن ذلك بالأمر الهين ؛ إذ قال أحدهم فيما بعد : « لا أعرف دعوة من الدعوات غير هذه تتطلب مثل هذا الاحتمال وإنكار الذات المستمر ؛ إذ على المتآمر أن يصغى لكل أنواع الثرثرة ، ويصانع كل صنوف الغرور ، ويناقش الكلام الفارغ مناقشة جدية ، وأن يظل محياه هادئا باشا بالرغم مما يحسه من السقم والفتور تحت وطأة الكلام الغث والمباهاة السخيفة

والسوقية . وليس المتآمر ملكا لنفسه ، بل هو ألعوبة فى يد كل من يلقاه ؛ فهو يخرج حينما يجب أن يستقر فى منزله ، ويستقر فى منزله عندما يجب أن يخرج ، ويتكلم حين ينبغى أن يصمت ، ويحضر السهرات حين ينبغى أن ينام ! » .

وكانت هـذه المضايقات تعنى بالقياس للإيطاليين فى ذلك الوقت أكثر مما تعنيه بالقياس إلى شعوب أخرى دربت على الحماسة ؛ فقد كمن من ورائها علم المتآمرين بأن اكتشاف أمرهم يعنى السجن أو المنفى وربما الموت ، ولكنهم واجهوا كل هذا بشجاعة من يؤمنون بأن « المتاعب والدموع تمهد الطريق ولو شبرا شبرا إلى غاية نبيلة مقدسة » ، ومن يتطلعون إلى اليوم الذى ينتشلون فيه بجهودهم بلادهم من وهدة الحكم السيء والمثل الدنيا . واستعدوا لأن يهبوا فى سبيل ذلك الحياة وكل شىء . وقال جاكوبو ريفينى لزملائه المتآمرين فى جنوة : « ها نحن أولاء خمسة شبان صغار ليس لنا إلا موارد محدودة ، دعينا لنعمل عملا لا يقل عن إسقاط حكومة قائمة ، وإنى مقتنع من قبل بأن قليلا منا هم الذين سيعيشون ليروا عقبى أعمالنا ، ولكن البذور التى بذرناها ستزهر بعدنا ، والخبز الذى ألقيناه فى اليم سيوجد من جديد » .

ولا بد أن ماتزينى تحمس كل الحماسة بمن كان وراءه من الرجال ، وتطلع إلى أدبه ليصنع الباقى من مهمته ، فأصدر صحيفته إيطاليا الفتاة ، وكانت كما وصفها هو : « مجموعة من الكتيبات السياسية » ، كل منها تحوى أعدادا

قليلة غير منتظمة ، وتتألف من مائة إلى مائتى صفحة رديئة الطباعة على ورق رديء . ثم أخذ يصف حروفها صفافون فرنسيون ، ولما كانوا لا يعرفون الإيطالية كانت أغلاطهم المطبعية تشغله شغلا لا حد له . وكان هو بالذات يكتب معظم ما فى الصحيفة ، وقد كانت طويلة مطنبة تحتاج إلى دقة وضبط ، غير أن مقالاته خلصتها من أخطائها الأدبية ، بما كانت تشعه من بريق الغرض النبيل الذى جعلها تهز مشاعر قرائها ، وبخاصة قوتها التى ربما لم تكن لأية كتابة سياسية غيرها فى ذلك القرن . أما بقية المقالات فكان يكتبها أتباعه .

وقد حاول ماتزينى أن يقنع سيسموندى بأن يساهم فيها ، ولكن هذا المؤرخ بالرغم من عطفه على الدعوة الوطنية كان يعارض بعض تعاليم ماتزينى؛ ولذلك لم يجبه إلى طلبه ، كما أن لويس نابليون دفعه حب المشاركة فى التآمر وشام فرصة ليدعو فيها إلى البونابرتية ، فأرسل مقالة عن الشرف العسكرى موضوعها : « إن الجنود لا يرتبطون بقسمهم الذى أقسموه على العمل ضد الثورة » . فقبل ماتزينى أن ينشرها بعد إجراء إصلاحات كثيرة فيها لم تبق من هدفها البونابرتى إلا قليلا ، ولكن هذه المقالة لم تنشر لسبب غير معلوم. غير أن صحيفة إيطاليا الفتاة كانت قليلة الانتشار ، ولا تصل إلا إلى قلة من الشبان المتعلمين لأنها فى الواقع أدبية إلى حد لا تصلح معه للاستهلاك الشعبى ، كما يبدو أن الناس كانوا أشد إقبالا على القواعد والتعاليم والنبذ الشعبية التى كان يكتبها جوستافو مودينا الذى أصبح فيما بعد من أعظم كتاب المآسى الإيطاليين شهرة فى زمانه . ومهما يكن من شيء فإن المطبوعات كانت تهرب

تهريبا واسع النطاق إلى إيطاليا ؛ إذ كانت تهرب إلى جنوة أو ليجهورن أو عبر الطرق فى بيدمونت فى براميل القار وحجر الخفان وفى بالات الأنسجة وفى حزم (السجق) ، وعظم الإقبال على هذه المطبوعات بحيث أقيمت مطابع سرية فى إيطاليا وفى تيسينو لمعاونة مطبوعات مارسيليا .

وفاقت النتائج كل الآمال حتى آمال ماتزينى الوطيدة ، فأنشأت أول فروع لإيطاليا الفتاة فى جنوة وليجهورن ، ومن ثم انتشرت إلى عدد كبير من مدن إيطاليا الشمالية والوسطى ، واستقرت قوتها الرئيسة فى جنوة حيث اشتركت الأحزاب الوطنية وأعداء البيدمونتية فى غرض عام ، ودخلها كل الطبقات ، والنبلاء والعامة ، ورجال القانون والموظفون المدنيون والقساوسة ورجال البحر والصناع . أما فيما عدا جنوة فتباعد العمال كعادتهم عن الجمعية فيما يظهر ، ومرت سنوات قبل أن تصل إليهم تعاليم ماتزينى الاجتماعية .

وكان أعضاء الجمعية الجدد من شبان الطبقة المتوسطة بوجه خاص ، وهم أبناء من كانوا ذوى أهمية فى ظل الحكم الفرنسى ، وسلبت منهم أهميتهم ، وتركوا فى الحضيض منذ عودة الملكية . وانضم إليها النبلاء الشبان هنا وهناك ، كما انضم نزر يسير من المهنيين ورجال الأعمال المسنين فى بيدمونت وجنوة ، ورحب بالحركة قليل من القساوسة مع أنها كانت تحمل طابعا دينيا قويا ، كما انخرط فى سلكها فى كل مكان الفلول المتناثرة من الكاربونارى ، ومنهم باناروتى — عميد المتآمرين وسليل ميشيل أنجلو وصديق روسبير

وبابوف ونابليون ، هو وجمعيته المسماة « الإيطاليون الحقيقيون Veri Italiani » حتى إنه فى أوائل سنة ١٨٣٣ قدر ماتزينى عدد المشتركين فى الجمعية بخمسين أو ستين ألفا ، ولا نستطيع أن نحكم على دقة هذا التقدير ، غير أن كثيرين ممن وصلوا إلى الصدارة فى الحركة الوطنية اللاحقة وفى أول برلمان إيطالى بدءوا حياتهم السياسية أعضاء فى إيطاليا الفتاة : فغاريبالدى قابل الزعيم فى مارسيليا ، وانضم إلى الجمعية ، وكان غاريبالدى بحارا شابا يكتب الشعر ، وارتقى إلى قبطان فى أسطول جنوة التجارى ، وقد جعلته شجاعته وسحر أخلاقه معبودا لمرءوسيه . أخذ عن فوسكولو إيمانه بمكانة إيطاليا ، ذلك الإيمان الذى كان يضارع إيمان ماتزينى فى قوته ، كما أن جيوبرتى الذى كان يعلم التلاميذ فى مدرسة الأبرشية فى فيرسلى الوطنية الأدبية الرفيعة أرسل كلمات تشجيع حارة لمبدأ « الله والشعب » .

وتركزت استعدادات ماتزينى فى بيدمونت وجنوة : فقد تحقق هو وجمهرة من الوطنيين على اختلاف مدارسهم أن الأقاليم الأخرى قد تلعب فى الحركة دورا ثانويا ، أما بيدمونت فيجب أن تأخذ مركز القيادة لأنها الولاية الوحيدة التى تملك تدريبات وتقاليد عسكرية جوهرية فى الحرب ، وأنها القاعدة الطبيعية لغزو لمبارديا ، وكذلك كانت الساندريا وجنوة نقطتين إستراتيجيتين هامتين جدا ، فإذا هزم الإيطاليون فى السهول استطاعوا أن يرتدوا إلى الألب والأبنين ، وكان البيدمونتيون وطنيين بكل ما فى جنسهم من ثبات على الغرض وتشبث به بالرغم من قلة الجمهوريين بينهم ،

أما أهل جنوة فكانوا متعصبين للغرض وخصوصا إذا استظلوا بالراية الجمهورية ، كما كان فى سافوى ضغط قوى لمبدأ الحرية ، وقد جعلها موقعها الجغرافى على صلة وثيقة بالعاطفين عليها فى فرنسا .

وكان أول عمل عام قام به ماتزينى — بعد رحيله من إيطاليا بنحو ثلاثة أشهر أو أربعة — أن كتب خطابا مفتوحا إلى الملك شارل ألبرت، وقد اعتلى فى التو عرش بيدمونت ، فقويت بارتقائه العرش الآمال قوة كبيرة كما قويت منذ عشر سنوات مضت ؛ فقد ظن الناس أنه سيقود الوطنيين ، ولكن أساس هذه الآمال كان ضعيفا هذه المرة . صحيح أن شارل ألبرت وجه وجهه قبل الحرية ؛ إذ كانت له فى شبابه صلات بالكاربونارى ، وشجع المتآمرين البيدمونتيين سنة ١٨٢١ على أن يتطلعوا إليه لقيادة الجيش من أجل استقلال لمبارديا ، ولو كان شارل شجاعا لكان عند كلمته ، ولكنه كان جبانا ، وظل جبانا ، وقد لطمته المطامع التى لا تقبل المصالحة . غير أنه ما فتىء وطنيا وإن لم يكن حرا : فقد لاح له مبدأ الحرية شبحا للثورة يجب أن يحارب وأن يسحق بغير شفقة ؛ إذ كان خاضعا كل الخضوع لسلطة رجال الدين ، فلم ينس تماما عقيدته الوطنية ، وراودته بعض الأخيلة وإن كانت ضعيفة عن إيطاليا التى لا تطؤها أقدام الجنود الأجانب . ومن المحتمل أنه حتى فى تلك السنوات وهى أسوأ سنواته — كان ينتظر فى غموض ذلك اليوم البعيد الذى يجرب فيه قوته مع العدو ، ولكنه كان يعلم أن هذا مستحيل فى ذلك الوقت . ومن ثم كان رأيه فى إمكانيات ذلك العصر — أحكم من رأى ماتزينى ؛

فقد رأى شارل أن فرنسا شقت طريقها البعيد إلى مبدأ التوسط التام "juste milieu" ؛ فهى لن تمد يد العون إليه ، ومحاربته للنمسا منفردا مقضى عليها بالإخفاق . كما أنه ازدرى المساعدة التى كانت ستقدمها له عصابات ماتزينى . ولو كان على استعداد حينئذ للترحيب بالمتطوعين ، كما صنع ابنه (فيكتورعمانويل) بعد ثمانية وعشرين عاما من ذلك التاريخ — لقل أن يجدهم من غير الذين تأثروا بآمال ماتزينى الخيالية .

هكذا كان شارل ألبرت حينما دعاه ماتزينى بخطابه المفتوح ليقود الحركة الوطنية ، ولم يعلم أحد مطلقاً الغرض الحقيقى من هذا الخطاب ؛ فقد أنكر ماتزينى فيما بعد أى قصد جدى منه ، ودافع عن نفسه بأنه كان يعبر عن آمال الآخرين أكثر مما يعبر عن آماله هو ، وأنه كتبه وهو على يقين أن دعوته لن تسمع ، كما نفى فى حينه أى رجاء فى الاستجابة لهذا الخطاب ، وإن لم يكن نفياً باتا ، وقال : إنه كان يرمى من ورائه إلى إقصاء البيدمونتيين عن الإيمان بملكهم ، ولكن هناك ما يدعونا للظن بأن هذا النفى يجب ألا يؤخذ على علاته ، كما أن ماتزينى عندما كتب عن هذا الخطاب بعد مضى عشرين عاماً أو أكثر كان يتوق إلى إثبات أنه لم يخرج على عقيدته الجمهورية ، وشرح الأمر بأنه إنما أرسله إلى رجل لا يعرفه ، ولم يكن يريد أن يفصح له عن نفسه بغير تحفظ ، كما أن هناك دلائل على أن ماتزينى — وإن لم يتخلص بعد تماماً من أن شارل ألبرت تخلى عن الأحرار — لم يفقد كل الأمل فى اكتسابه إلى جانبه ؛ فقد قبلت التعاليم السرية لإيطاليا الفتاة التى

كتبت بعد ذلك باشهر قليلة قيام الملكية «كنظام للانتقال»، وكذلك أصر ماتزينى فى مؤامرة الجيش اللاحقة على عرض قيادة الثورة على الملك. وإننا لنتوق إلى الاعتقاد بأن تفسيراته لهذا الخطاب لم تكن منصفة بالقياس إليه نفسه؛ فهو لم يكتب هذا الخطاب المتأجج حماسة بغير إخلاص مطلقاً كما يقول، وإلا فعلينا أن نطأطئ رءوسنا ونقر — ونحن محزونون — بهذه الوصمة التى لحقت تلك الحياة النبيلة.

ويجب أن نعترف بأنه من الصعب أن نعتبر هذا الخطاب تحولا فى عقيدة ماتزينى؛ فإن المدح الزائد الذى ورد فيه قد خالطته التهديدات، ولا بد أن ادعاء ماتزينى العلم بكل شيء فى السياسة، وزعمه وهو ذلك المنفى الشاب أنه يتحدث نيابة عن إيطاليا، وتعمده الفصاحة — كانت كلها تهز الذوق العام الإيطالى، كما كانت تثيره إثارة بالغة شأن كثير من كتاباته المبكرة. وكان معظم الخطاب شبيهاً بمقالة مدرسية بليغة عن واجبات الملك الدستورى، وقد صح ما جاء بها من الناحية السلبية؛ فشارل ألبرت لم يستطع أن يجد موضعاً آمناً لقدمه بعيداً عن الحكومة الشعبية؛ إذ أن إجبار الشعب والإصلاح الإدارى وعون النمسا أو فرنسا — كل هذا — لم يكن ليقنع شعبه أو يخيفه على الدوام، ولكن شارل ردّ ردّاً مفحماً فقال: إن ضمانه للدستور يعنى الحرب مع النمسا؛ ولكن ماتزينى كان يرحب بهذه النتيجة، وكان شارل يرى فى رأيه أن النهضة الوطنية لم يحن أوانها بعد؛ فكان على صواب فى حين كان

ماتزينى مخطئا ، غير أن بعض فقرات من هذا الخطاب دوت دوى النفير تعلن سياسة عهد مقبل ؛ فقد جاء فيه :

« ياسيدى ، هناك طريق آخر يؤدى إلى القوة الحق وإلى الخلود ، طريق آمن وأقوى من النمسا وفرنســـا ، وهناك تاج آخر ألمع وأرفع من تاج بيدمونت ، وهو ينتظر الشجاع الذى يفكر فيه ، ويرسم حياته على الظفر به ، ويحتقر أفكار الطغيان حذر أن تفسد بهاءه .

سيدى ، ألم تلق نظرة خاطفة على إيطاليا هذه فتبدو لك جميلة بابتسامة الطبيعة ، متوجة بعشرين قرناً من الذكريات النبيلة ؟ فهى أرض العباقرة ، قوية بمصادرها التى لا حد لها والتى لا تحتاج إلا إلى مبدأ عام ، مطوقة بحدود منيعة لا تعوزها إلا إرادة ثابتة وصدور قليلة شجاعة لتحميها من إهانة الأجنبى . ضع نفسك على رأس الشعب ، واكتب على لوائك : الاتحاد ، الحرية ، الاستقلال . حرر إيطاليا من المتبربرين ؛ أقم المستقبل ، كن نابليون للحرية الإيطالية ، افعل ذلك ، فنلتف حولك ونهب لك حياتنا ، ونأتى بولايات إيطاليا الصغيرة تحت لوائك . إن سلامتك تعتمد على حد السيف فجرده ؛ واقذف غمده بعيداً ، ولتتذكر أنك إذا لم تصنع هذا فإن غيرك سيصنعه دونك بل ضدك ! »

ونشر هذا الخطاب فى مايو أو يونيو سنة ١٨٣١ ، وتسربت منه نسخ إلى إيطاليا ، وكان ماتزينى يعتقد أن لديه الدليل على أن الملك قد قرأه .

ومهما يكن من شيء لحرس الملك قد قرأه ، فعرف كاتبه الذى لم يستطع اسمه المستعار أن يخفيه ، فأمر بأن يقبض عليه لو اجتاز الحدود . وكيفما كانت آمال ماتزينى فإن هذا يثبت أن الخطاب أخفق فى موضوعه الظاهرى .

اندفع ماتزينى بعد ذلك يستعد للثورة فى بيدمونت كأن به مسا من الحمى ، وأظهرت خطته التفصيلية أنه لم يدبر بعد إستراتيجية حرب العصابات ، أو أنه أعرض عنها فى ذلك الحين ، وصمم على أن يعول على جيش بيدمونت ، وعلى وجوب إقناع شارل ألبرت — لو كان ذلك مستطاعاً — بأن يقود الثورة وأن يعبئ الجيش ليتقدم تقدماً سريعاً إلى لومبارديا ، وإذا نكص شارل على عقبيه تولى الحكومة رئيس المهنيين فى جنوة .

وكانت آمال ماتزينى تقوم فى ذلك الحين على أساس أقوى مما قامت عليه فى أى وقت لاحق : فالجيش لم ينس أنه قاد الحركة الدستورية والوطنية منذ عشر سنوات مضت ، فشعر كثير من جنوده الذين خدموا فى الجيش الكبير Grande Armée بالعاطفة الديمقراطية التى تعلق بها كل الناس من حولهم ، كما تاقوا للثأر من العدو الذى هزمهم فى الأيام الخالية . وكانت هذه المشاعر قوية ولا سيما فى الضباط من غير رؤساء الفرق . وكان كثير من هؤلاء الضباط من أبناء الطبقة المتوسطة وذوى منزلة وتعليم جديدين ، أما رياسات الفرق فلم يكن يتولاها إلا الذين انحدروا من محتد نبيل ؛ إذ ما كان يستطيع أحد من البرجوازيين مهما كانت كفايته أن يرتقى فوق الطبقات !

وانضم قليل من الضباط إلى جمعية « إيطاليا الفتاة » ، ووعد قائد أو اثنان بالمســـاهمة معها لو ثبت لها أن الحركة ستنجح . أما فى الساندرا وجنوة المدينتين الحصينتين المهمتين فكان للجمعية فيها قوة يعتد بها . ويبدو أن الحكومة لم يخامرها الشك فى مؤامرة الجيش بالرغم من أنها كانت تتعقب المتآمرين المدنيين تعقباً تاما . ولو نشبت الثورة فى بوا كير سنة ١٨٣٣ لكان من المحتمل أن تواتيها فرصة النجاح،ولو أن الكارثة المحتومة كانت ستحل بها عندما يواجه هذا الجيش الصغير النمساويين ، ولكن المتآمرين انتظروا طويلا ، ففشلت ثورتهم فشلا تاما .

ففى أواخر الربيع وقعت حادثة أدت إلى الكشف عن مؤامرة الجيش ، واقتفت الحكومة أثر هذا الكشف فى حذر حتى وضعت يدها على كل تفصيلات المؤامرة ، فانقضت على فريستها تنتقم منها انتقاماً وحشيا لم يعرف له مثيل فى إيطاليا خارج الأقاليم النمساوية منذ أيام فارا ديافلو : فقد انتزع الفزع رحمة شارل ألبرت ، فاستسلم لحزب البلاط الرجعى يطفىء ظمأه للدماء : فعذب الضحايا تعذيباً معنويا وماديا ليقروا بذنوبهم على أنفسهم ، وعلى شركائهم ، وخُير جاكوبو ريفينى بين الإعدام وخيانة أصدقائه ، فآثر الانتحار فى السجن ، وأُعدم عشرة جنود ومدنيان ، وهرب أربعة عشر آخرون من الإعدام ، وأرسل نفر إلى السجن مدداً متفاوتة .

وما انفكت إيطاليا تلعن المجالس العسكرية التى أصدرت هذه الأحكام ، ولم تستطع كل وطنية شارل ألبرت فيما بعد أن تطهر ذكراه من عارها الذى

لا يمحى . وأتى أهل جنوة — حتى فى أيام حكمه — على كل سجل فى مدينتهم يتحدث عن القائد المتوحش الذى كان أداة سيئة لألبرت .

كما أصبح لرجال القانون والجاويشية المساكين الذين أعدمهم شارل ألبرت ذكرى لا تدول فى بلادهم ، وقال ماتزينى: « ما أسرع ما تنضج الآراء عندما تغذيها دماء الشهداء ! » وكان ذلك حقا ؛ فإن ذكرى هؤلاء وغيرهم من ضحايا الطغيان هى التى ساعدت فى استنفار السواعد الإيطالية ، وبعثت الإيطاليين إلى الموت فى المعارك التى كسبوا بها حرية بلادهم .

وكان ماتزينى قد اضطر إلى الاختفاء فى مارسيليا منذ أغسطس من العام السابق ؛ لأن الحكومة الفرنسية عطلت مطبعته ، وقررت عقابه ، ولكنه تفادى من هاتين الضربتين ، فأنشأ مطبعة سرية ، وأحضر لها صففين فرنسيين ، كما التجأ فى منزل أحد العاطفين عليه من الفرنسيين ، وهو ديموستين أوليفييه والد آخر رئيس لوزراء لويس نابليون ، وظل تحت سقفه « سجيناً مختارا » لا يتخطى عتبة الدار إلا مرتين فى العام ، وفى الليل فقط . يخرج متخفياً فى زى امرأة أو حارس أهلى ؛ فقد اتهمته الحكومة الفرنسية — مدفوعة بحقدها عليه أو مخدوعة فى أمره — بتهمة زائفة ، هى التحريض على القتل ، تلك التهمة التى تكررت بعد ذلك بسنين ، فملأت سير جيمس جراهام بالأسف والندم .

---

(١) انظر الفصل الخامس ، وانظر فيما بعد مؤامرة كالينجا على قتل الملك .

وكان ماتزينى لا يزال فى مارسيليا حين جاءت أنباء الإعدام فى جنوة ، فتألم ألماً مبرحاً رهيباً ؛ إذ فقد فى جاكوبو ريفينى أعز أصدقائه مما جعل صحته وعقله يشرفان على الانهيار لولا أن امرأة نبيلة كان يحبها أنقذته من الجنون ومن الموت[1] .

وفى أوائل يولية سنة ١٨٣٣ سافر إلى جنيف فوصل إليها ، وقد أعدت خطة جديدة للثورة فى إيطاليا ؛ فإن إخفاق مؤامرة الجيش لم يكن إلا ليدفعه — وكأن به مسا من الحمى — إلى فكرته المستقرة بوجوب قيام نهضة فى بيدمونت ، وكان يرغب بلا شك فى عقاب شارل ألبرت ، فإن وحشيته كادت تفقد ماتزينى عقله ، وأقلقت أوروبا وأحزنتها ، كما أراد أن يقوى معنوية حزبه بالتدليل على أن الإرهاب لا يخيفه ، وأن السهم سيرتد إلى نحر العدو المتوحش المنتصر . وكان يؤمن بأنه ينبغى من أجل الاحتفاظ بوحدة أتباعه — أن يرمى رميته الآن ، وإلا فلن يرميها أبداً ، فلو ترك النار تخمد فلن يكون فى مقدوره أن يشعلها مرة أخرى . وكان يؤمن بأن نصف أوروبا يقف على شفا الثورة بحيث إن الحركة الجمهورية فى إيطاليا ستكون إشارة البدء للنهضات الجمهورية فى فرنسا وإسبانيا وألمانيا ، وكان هذا حلماً وخيالا فى نظر غيره ، وأن الثورة ستقدح الزناد فى إيطاليا كلها ، وكان هذا الظن على أساس آكد من سابقه ، ولكن بالرغم من أنه كان مغرقا فى آماله حتى

---

(١) انظر الفصل الرابع

فى هذا الإيمان الأخير — استقرت الروح الثورية التى خلقتها « إيطاليا الفتاة » فى الأعماق ، فكان فى جنوة وسافوى والولايات البابوية وأجزاء من نابولى عدد كبير من الناس المستعدين للثورة ، وكان واثقا من أن فرق العصابات ستأوى فى اليوم الموعود إلى الجبال تتخذ فيها مراكز متعددة ، ولكن فرص النجاح لم تكن بادية الوضوح فى الواقع ، غير أن هذه الغزوة مع ذلك لا يمكن اعتبارها لعبا لا يغتفر بحياة الشجعان كما يبدو لأول وهلة .

وأخذ ماتزينى فى هذه الغزوة بخطة وضعها الكاربونارى فى باريس ، فاختار سافوى نقطة للابتداء فى الثورة ؛ إذ توقع أن تنضم الفرق العسكرية فيها للثائرين ، وأن الجيش الثورى سيخترق جبال الألب إلى بيدمونت ، على حين تعسكر فرقة أخرى فى الريفييرا لتستثير إقليم جنوة .

وفى خريف سنة ١٨٣٣ انخرط فى الحركة مئات كثيرة من المنفيين فى سويسرا ، وكان كثير منهم بولنديين وألمانا ، وقليل من الفرنسيين ، فرحب ماتزينى بهذه المساعدة آملا فيها أن تقوى الحلف الدولى للديمقراطيين ، وأن تنتهى آخر الأمر إلى قيام « أوروبا الفتاة » التى ستصنع فى كل مكان فى أوروبا ما كانت تصنعه إيطاليا الفتاة فى بلادها ، كما جاءت المساعدة من عدة ضباط منهم بيانكو دى سان جوريز الذى ألف كتابا عظيما عن حرب العصابات ، وتأثر ماتزينى به كثيرا . ومنهم أيضاً ما نفردو فانتى الذى أصبح بعد ذلك

منظما للجيش الإيطالى . ورأوا أن من المهم الواجب فى القيادة أن يعطاها ضابط مجرب ، وأصر المتآمرون من أهل سافوى على أن يقع الاختيار على الجنرال رامورينو نفسه وكان رامورينو مغامراً دوليا ، ولد فى سافوى وحارب تحت لواء نابليون ، ولو أن قيادته كانت غير حكيمة تماماً فى النهضة البولندية سنة ١٨٣١

وحوالى أكتوبر تمت استعدادات ماتزينى الطفيفة ؛ إذ تسلح قرابة ثمانمائة رجل واستعدوا للسير . وكانت هناك خطط معاصرة قد أعدت للقيام بنهضات فى جنوة ونابولى وفى مارشن وأمبروزى ، واندرج غاريبلدى فى الأسطول البيدمونتى مغامراً برجاء أن ينحاز هذا الأسطول إلى جانب الثورة ، ولكن رامورينو أضاع فرصة النجاح هذه ؛ إذ لم يكن لديه شغف بالحملة ؛ وقد تكون الحكومة الفرنسية قد دفعت له مالا ليحطم هذه الحملة ، فتلكأ فى باريس ، وبعثر كثيرا من المال الذى رصد للحرب ، وكان ماتزينى قد جمعه بمجهود شاق . وكلما مر أسبوع زادت المصاعب ؛ إذ ضغطت الحكومات الأجنبية على سويسرا لتفض جمع المتطوعين ، وحاول بيوناروتى الذى كان يشك فى الخطة كلها أن يزعزع ثقة الرجال فى ماتزينى .

وعندما أصر ماتزينى على ألا ينتظر المتطوعون أكثر مما انتظروا رفض المتآمرون من أهل سافوى أن يعاونوه مالم يأت رامورينو لقيادتهم ، وجاهد ماتزينى جهاد اليائس ليقضى على هذه الأنواء ، وأخيرا وصل رامورينو

فى يناير ، ولكن الوقت كان قد فات ؛ فقد ضايقت السلطات السويسرية المتطوعين ، فلم تستطع أن تجتمع على الحدود قرب سان جوليان فى الأول من فبراير إلا جماعة صغيرة من الغزاة سار بهم رامورينو لا يلوى على شىء .

ومن المحتمل أنه — لما رأى أن الفرصة كانت فاشلة منذ البداية — أراد أن يتجنب الخسائر فى الأرواح ، فسرح رجاله فى الرابع من فبراير قبل أن يتبادلوا هم والعدو أى طلقة من النار ، وبذلك لم تولد الثورة .

الفصل الرابع

سويسرا

١٨٣٤ — ١٨٣٦ من الثامنة والعشرين إلى الحادية والثلاثين

الحياة فى المنفى ــ الأزمة العقلية ــ مبادئ الثورة ــ سويسرا الفتاة أوروبا الفتاة ــ العمل الأدبى ــ صديقتاه جوديتا سيدولى وماديلين دى ماندرو .

انهارت صحة ماتزينى فى أثناء غزوة سافوى ؛ فضغط العمل واللهفة يهدان أقوى الرجال ؛ إذ لم يمس جنبه الفراش أسبوعاً ، وأسلمه التعب والبرد والمسئولية الكبيرة إلى الحمى . وفى ذات ليلة دوى إنذار كاذب بالخطر ، وأطلقت دورية العسس النار ، فأسرع ماتزينى منفعلا يحمل بندقيته ، فسقط فاقد الشعور ، ولم يثب إلى نفسه حتى عاد المتطوعون من الحدود ، ولكنه نجا من الانهيار إلى حين ، وربما كان الفضل فى ذلك لخطابات المرأة التى أحبها : فهى وحدها التى أنقذته من حادث سيئ حين كتب إليها يقول : « لقد أصبت بهزات معنوية حتى أجدنى فى بعض اللحظات أتدحرج

على الأرض ، وأعض نفسي ، وتنتابنى نوبات من الهياج كلما طالعنى وجه آدمى ، أو سمعت صوته » .

وعندما شفى من مرضه وجد أن إقامته فى سويسرا أضحت مهددة ؛ إذ أرسلت الحكومات الأجنبية تهدد المجلس الاتحادى (الدايت) السويسرى ليطرد اللاجئين . وكان من السهل إفزاع الدايت . وحتى لو كان هذا المجلس شجاعاً ما استطاع أن يسمح بأعمال مخالفة للقانون الدولى أو بأن تصبح سويسرا قاعدة للجندين فى غزوات تشن على الدول المجاورة ، فلم يكن من المتوقع أن يخاطر السويسريون بالتورط فى إشكالات أجنبية من أجل رجال أساءوا إلى كرم الضيافة ؛ ولذلك أصبح من الصعب على المتطوعين بعد الذى حدث منهم أن يتمسكوا ولو بمجرد حق الالتجاء التقليدى المكفول للاجئين السياسيين ؛ فأُرسل كثير منهم إلى خارج الحدود ، ونجح آخرون فى الاختفاء .

وليس من السهل أن نلوم الدايت — حتى فى ذلك الوقت — على عدم رغبته فى حماية المتطوعين ، ولو أنه بعد فترة من الزمن اتبعت حكومة سويسرية أقوى — سياسة أكرم بالنسبة للاجئين ، كما أن بعض الولايات السويسرية أبت أن تظل على احترامها لهذا الضغط الأجنبي ، وصمم ماتزينى على ألا يفارق سويسرا ؛ إذ كان من الجوهرى بالنسبة لخططه أن يبقى على مقربة من إيطاليا ، كما كان يفزع من الرحيل بعيداً عن الأرض التى أحبها؛ فقد ازداد غراماً بسويسرا وأخذ « يحب الألب كما يحب المرء أمه » ، فضلا

على أنه لم يعد مفتوحاً فى وجهه إلا إنجلترا وأمريكا ، وإن كان قد خشى أن تتولى السلطة فى إنجلترا حكومة من « التورى » فلا يجد ملجأ حتى فى تلك البلاد ؛ ذلك بالرغم من أنه « ليس فى إنجلترا عطف ولا مساعدة ولا أى شىء من هذا القبيل » على حد قوله . ولو أنه أنكر هذا القول فيما بعد .

وعاش ماتزينى فى لوزان ، وبرن ، وسولبر ، وبيين ، وجرنشن ، وفى منزل راعى كنيسة بروتستنى فى لا نجنو ، عاش حياة قلقة كثيراً أو قليلا إذ كانت تبحث عنه الشرطة بحثاً دقيقاً فى بعض الأحيان ، وتغضى عنه الحكومة وتتجاهله أحياناً أخرى ، ولكنه كان فى كل حين سجيناً حقا فى البيوت التى التجأ إليها : يفر من مكان إلى مكان ، ويعيش فى المنازل المهجورة التى سدت نوافذها بالحصر ، لا يخطو خارجها إلا فى رحلات ليلية يهرب فيها عبر الجبال .

كان مجهداً فى بدنه وروحه ، يذوق حياة المنفى بكل مرارتها فقال : « إن الوجود حزين معتم كالسماء العاصفة أو كرماد نار خامدة ، فثمة الألم الذى لا يسمى ، والذى لا يجد متنفساً فى الدموع أو فى الكلمات ، الألم الذى ليس له شعر يعبر عنه إلا من ذلك العاطفى البعيد ، الألم الذى يجعل المرء ممتقعاً غائر الخدين ولكنه لا يقتله ، الألم الذى يحنى ولكنه لا يحطم ، على حين أن العيون المتعبة تقتفى أثر السحاب الرائح الذى تدفعه هبات الرياح إلى سماء وطنى وراء جبال الألب الخالدة ، تلك الملائكة البيضاء التى تحرس الأبواب فى جنة قلبى » .

وعاش ماتزينى فى وحدته المطلقة التى لم تقطع عليه إلا غراراً ؛ فقد انفصل انفصالا تاما عن أصدقائه القدماء عدا ابنى ريڤينى . وبالرغم من أنه وجد بعض الأصدقاء العاطفين عليه فى سويسرا وتمسكه بأهداب محبتهم — لم يعوضه ذلك عن خسارته لأصدقائه القـــدماء ، ولم يعد لديه إلا قليل من الكتب ؛ فكتب متضجراً يقول : « لو كانت كل كتبى معى لاستطعت أن أقضى حياتى كلها فى غرفة مغلقة ، ولكنى لا أطيق أن أعيش بغير الكتب وبغير الجيتار ، وبغير منظر أطالعه ! »

وأدت حياة القعود هذه صحته ، وازور بعناده عن الأدوية التى أرسلتها له والدته ، فطرحه ألم أسنانه ، ولو أنه رحب بهذا الألم بديلا عن سقم قلبه . وحلت عليه المصاعب المالية بإشكالاتها الخسيسة ، فأرسلت له والدته ما استطاعت ادخاره ، وساعده أصدقاؤه بالقروض ، ومع ذلك لم يكن يرفض طلباً لمنى محتاج ، غير أن المحتاجين ألحفوا عليه فى السؤال ، فثار عليهم وهم فى حاجة ملحة إليه . وكان تنظيم إيطاليا الفتاة التى لم تزل منها بقية باقية ونفقات النشر والبريد تستغرق ماله ؛ إذ لم يبق فى الجمعية إلا مشتركون قليلون . وحرم نفسه كل شىء عدا الضرورى والسيجار ، بل حرمها الشيئين اللذين يعزهما ، وهما العطور وورق الكتابة الجيد .

وكانت الكتب القليلة التى لديه مستعارة ، وأخذ يعانى نقصاً فى الملابس ، فأرسل لوالدته قائمة هزيلة بما عنده منها ، فبذلت هى ومربيته كل جهدهما

ـسد النقص فيها . وكان عندما يشعر بالحاجة الملحة إلى المال يكتب إليها حياناً « والخجل يعلو وجهه » ، فلا ترفض له طلباً .

وانتابته نوبات من حب الوطن « ذلك الحنين الطبيعى إلى الوطن ، إلى البحر والسحب والرياح الإيطالية » فكتب إلى فتاة صغيرة صديقة له يقول : « فى ذلك اليوم كنت أنظر إلى جبال الألب البعيدة ؛ فإن من ورائها بلادى المسكينة التى أحبها كثيراً حيث والدى ووالدتى وأختاى وأخت أخرى ماتت منذ عدة سنين وقبر لأعز أصدقاء شبابى الذى قضى نحبه من أجل الحرية ، بلادى حيث المروج والتلال والبحيرات البديعة ، وحيث الأزاهير والبرتقال والسماء الجميلة ، كل تلك الأشياء التى يحتاج إليها المرء ليموت سعيداً ، كنت أنظر إليها وأنا أفكر فيها حزيناً آسفاً » .

ولم يقتصر الأمر على ذلك ؛ فإن أفكاراً قارصة أخرى أزعجته ، فالغزوة المشئومة أوهنت عزائم حزبه . ووصلت إليه من إيطاليا أنباء التخلف والارتداد ، وألقى المنفيون مسئولية الخيبة على عاتقه ، فوجد نفسه هدفا لسعير المهاترة التعسة ، فرد على الانتقاد الموجه إليه بالاحتقار والريبة . كما أن رغبته فى أن تستجيب إيطاليا لدعوته جعلته ينحى بالأئمة الشديدة على مواطنيه فى بعض الأحيان ، فيقول : « أواه ! كم هم باردون ، هؤلاء الإيطاليون ! كم ينتحلون المعاذير لبلادتهم ! إنهم لم يروا أنهم عبيد لا أسماء لهم ، يلعنهم الله ، وتسخر منهم الشعوب ! » .

لقد أوشك أن يجف لطفه الإنسانى ، وطرأ عليه بغض للناس لم يكن يألفه من قبل، فجعله شكسا صعب المراس ، ولاح لعقله المريض أن أصدقاءه باردون ، فكان يكتب إلى أعز أصدقائه متبرماً نكداً ، بل كان كلامه إليهم أكثر تبرماً ونكداً ؛ فالمجتمع يتعبه ويغمه ، ولو كان مكوناً من أعز أعزائه : فآثر أن يترك وحيداً لا تؤنسه إلا قطة يحبها ، وكتب يقول : «أصبحت ميالا إلى حب الناس من بعد ؛ فإن الاتصال بهم يجعلنى أكرههم » . أما الألم الممض الذى كان يؤرقه ويجره إلى الهاوية حقا فتفكيره فى أصدقائه الذين يعانون الآلام من أجله ، ولو أنهم يتحملونها لغرض سام كرس هو له كل ما يملك ، ذلك الغرض الذى يؤمن به كل رجل صادق القلب يدعو أتباعه للتضحية والقتال : فإن أصدقاء شبابه كانوا يعيشون فى المنفى ، كما أن رجالا يحبهم ويحبونه حملوه مسئولية تعسهم : فمنزل ريڤينى أصبح خاليا صغيراً ، فعلى يديه ذهب أحد أبنائهم ضحية ، وذهب ابنان آخران إلى المنفى ، أما أمهم التى كان يجلها أكثر مما يجل النساء كافة فتجلس وحيدة حزينة ، كما أن امرأة أخرى منحها حبه لم تجد لها مأوى عند أحد الهاربين المنفيين ، فاقتنصتها الشرطة برصاصها ، فقضت نحبها منهوكة يائسة ، فكتب إلى أمه يقول :

« إن التفكير يصب على لحظات من الألم والحزن العميقين ، التفكير فى ماضى أولئك القلائل الذين أحبونى وأحببتهم، حقا، وفى حاضرهم ومستقبلهم ، وهم أنت وابنا ريڤينى ، وأمهما وأختاى ، وهى (يعنى التى قتلتها الشرطة) .

لو استطعت أن أراكم جميعاً ، وأرى أصدقائى القليلين الآخرين ، إننى لا أزعم أننا سنكون سعداء فإن ذلك مستحيل ، ولكننى أقول : إننا سنكون هادئين وادعين باسمين متحدين ، وعندئذ أموت مسروراً ! كما كتب لصديق له يقول : «لقد أردت أن أصنع الخير ، ولكننى صنعت الشر لكل إنسان ، ونمت هذه الفكرة لدى حتى ظننت أننى سأجن وتخيلت أحياناً أننى مكروه من الذين أحبهم كل الحب» .

ومهما يكن من أمره فقد شك ذات مرة فى كل ما صنعه فقال : « إننى أفكر فيما صنعت من مطلع النهار إلى أن يقبل الليل ، وأسأل الله المغفرة لى لأننى كنت من المتآمرين . لا أسأله إياها لأنى مددت الأسباب لما كنته فيما بعد ، أو لأننى أنكرت كلمة واحدة من معتقداتى التى كانت ولا تزال وستكون ديناً بالنسبة إلى ، ولكننى أطلب المغفرة لأنه كان ينبغى أن أرى أن المؤمن يأتى عليه حين من الدهر يضحى بنفسه من أجل عقيدته ، ولا يضحى بغيره ، ولكننى ضحيت بغيرى ! » .

وران عليه التعس المظلم فقال : « شعرت أننى وحيد فى هذا العالم منقطع إلا من والدتى المسكينة التى كانت هى أيضاً بعيدة تعسة من أجلى ، ووقفت فى الفراغ وأنا أرتجف فزعاً ، وفى هذا التيه واجهت الشك » . هل مات الذين أرسلهم الله إلى ميتتهم الوطنية عبثاً ؟ هل كان هذا خطأ مخيفاً فاحشاً ؟ هل كان حلماً فارغاً نجم عن طموح العقل وكبريائه ليس إلا ؟ هل كان من أجل

وهم نحم مستحيل ينتزع الرجال من حياتهم الهادئة النافعة ومن محيطهم (البسيط) المحبوب؟ فأى سلطان له إذن ليبشر بالعقيدة التى تعنى التضحية بآلاف آخرين والتى تعنى تعس أمهات أخريات كثيرات ؟ .

وكان فى غرفته المنعزلة المتفردة وقد أحاطت به مخاوف الليل والريح تعصف من حوله — يسمع صوت جاكوبو ريفينى يناديه، لقد كان بلا شك على حافة الجنون ، تراود عقله أفكار الانتحار ، ولكن طبيعته المعنوية وتأثير امرأتين هما مدام ريفينى وأخرى لانعرفها أنقذاه مما هو فيه، فعادت إليه سلامة عقله وقد تمثلت بوجه خاص فى صورة فلسفة للحياة، هى نظريته فى الواجب، تلك النظرية التى توسعت حتى نفذت إلى كل شق فى روح الفرد. وتسربت نظرية المنفعة ، وهى عدوه القديم ، حتى ضربت بأحد جذورها فى ميوله ، فقال : « كان لا بد لى أن أفكر فى نظرية الواجب كما أفكر فى بركات الله التى ينبغى أن نتلقاها بالشكر ولا نعتبرها حقاً أو جزاء نتوقعه أو نستأهله، فجعلتها بدل هذا شرطاً لإنجاز واجباتى. إننى لم أصل بعد إلى المثل الكامل للحب ، ذلك الحب الذى لا آمل الوصول إليه فى هذه الحياة ؛ فقد كنت أعبد أفراح الحب لا الحب نفسه !.

وهكذا طرح ماتزينى الضعف الأخير الذى فى طبيعة الإنسان ، فأخذ

على عاتقه التعب والخطر والخسران ، بل تحمل الوحدة الروحية التى لا يحبها أحد ، كما تحمل حياته الموحشة التى ليس فيها صديق إلا الله ، فبعد أن كان يلتمس العطف والحب ويتألم من أجلهما أمسى يتخذ الواجب عملا رئيساً له ، الواجب الذى قال عنه . « ذلك الدين الجاف المجرد الذى لم ينقذ قلبى من ذرة من التعس ، ولكنه كان الشىء الوحيد الذى استطاع أن ينقذنى من الانتحار! » .

وقال : « لقد رسم جانفيل — ذلك الكاتب الساخر الذى صور حياة رومة الإمبراطورية وهاجم الطغيان والمجتمع المنحط — أربعة اتجاهات يتلخص فيها كل ما ينبغى أن نطلبه من الله وكل ما جعل رومة سيدة العالم المحسنة إليه فقال :

« صل من أجل النفس التى لا تخاف الموت ، والتى تأخذ غاية الحياة على أنها هبة من هبات الطبيعة ، النفس الشجاعة التى تتحمل الألم والعمل ، والتى لا تغضب ولا تطمع » .

وكتب ماتزينى إلى أحد أصدقائه يقول : « إذا ما حدث الإنسان نفسه ذات مرة بكل مافى تفكيره وشعوره من جد فقال إنى أومن بالحرية والبلاد والإنسانية — فهو ملزم أن يحارب من أجل الحرية والبلاد والإنسانية ، يحارب ماطالت حياته وبكل سلاح ، ويواجه كل شىء من الموت إلى السخرية، يواجه الحقد والازدراء ، كما يجب عليه أن يعمل لا من أجل غرض

من الأغراض ، ولكن لأن من واجبه أن يعمل » .

وفى الواقع كان النور والسرور قد فارقا ماتزينى قبل أزمته العقلية بأمد طويل ؛ إذ مرت عليه أوقات شعر فيها بأنه ليس لديه الوقت لعمله ولا القوة والقدرة عليه ، وأن نظرياته مجردات باردة لا عاطفة فيها ، وليست كمعتقداته العاطفية فى أيامه الأخر ، فكان الله فى رأيه « حلا هندسيا » ، وعمله « مهمة مقدرة » ، والحياة كلها غبراء لا غرض لها فقال: « إن فى الحياة لوناً من الضيق والكرب حتى إننى عندما أرى طفلا هادئاً باسماً سالماً أتمنى له الموت ! » .

ولكن هذه الأمزجة السوداء كانت استثناء فى حياته ؛ فقد كتب جيوفانى ريفينى يقول : « كان ماتزينى حسن الشعور دائماً ومنشرحاً أحياناً » . ومن المؤكد أن ماتزينى كتب فى خلال هذه الأعوام الثلاثة بعضامن أقوى صفحاته وأكثرها إنســـانية ، فبالرغم من أنه كان يقنط أحياناً من كل شىء حتى من مشروعاته السياسية المباشرة كان يشعر بمهمته شعوراً قويا فقال : « إنى أعلم أن هناك مستقبلا لحياتى ، ولكن لا يهمنى إلا قليلا أن أراه » كما قال : « نحن أقمنا غرضاً لشعبنا ، وألقينا على كواهلنا وبإرادتنا أحزان جيل بأسره ، فاقتبسنا من الله الأزلى قبساً ، ووضعنا أنفسنا بينه وبين الشعب ، وأخذنا على عاتقنا عبء تحرير وطننا ، وقد قبلنا الله » .

وما انفك ماتزينى يقوم بعمله فى ساعات التبصر وساعات الكآبة بدرجة واحدة ، ولكنّ أصدقاءه نصحوا له بأن يتركه ، وهدده والده ، وتوسلت

إليه والدته : « ولو استطاع لأجاب توسلها » ، ولـكنه ما كان ليتركه — أو كذلك ظن على الأقل — إلا إذا تقدم غيره ، فأخذ هذا العمل على كاهله غير أن ذلك كان مستحيلا بالطبع ، ولربما أحب أن يعود إلى سياسة « مانزونى » ، فيقصر نفسه على التعليم الأخلاقى والأدبى ، إلا أنه وجد أن هذا الحـــل كان فيما يبدو — مستحيلا فى بلاد ليس فيها حرية القول أو الكتابة ، فرأى أن الطريق الوحيد لإنهاض مواطنيه هو أن يضرب لهم مثلا من حياة لا تستطيع المصائب أن تثنيها عن غايتها ، ولا تثبط عزيمتها الرغبةُ فى الاستجابة لهـا ، بل تعمل وتعانى أبداً من أجلهم ومن أجل المثل العليا ، ولا تغل يدها لأن الآخرين تقاعسوا عن اتباعها ..

وركز همه فى البحث عن السبب الذى جعل ثورات السنوات الخمس الأخيرة تخفق ، والذى جعل الشعب سواء فى إيطاليا أو فرنسا أو فى أى مكان آخر يصم أذنيه عن دعوة الحرية ، وكان يسائل نفسه دائماً : لمـاذا نجحت المسيحية فى حين أخفقت هذه الحركة وهى تشبهها كثيراً فى الغرض العام وتهدف إلى تخليص الشعب اجتماعيا وسياسيا ؟ ووجد الرد على تساؤله فى الحقيقة الواقعة ، وهى أن الثورة فقدت القوة الروحية التى جعلت المسيحية تنتصر . وكانت تعاليمه وهو فى مارسيليا تدور حول هذا الموضوع ، غير أنه طفق الآن يلقى هذه التعاليم بروح صوفية قوية نجمت بلا شك من الرؤيا التى كان يراها فى كآبته ، كما تعود إلى حد ما إلى تأثير لامينيه عليه فى ذلك الوقت .

وكان من رأيه أن الثووة الفرنسية دعت إلى مصالح الناس الشخصية والأثرة وإلى حقوقهم فى السعادة ورغبتهم فيها ، ولذا كانت ثورة ضد الشر ، ولكنها لم تكن رسالة للخير ، فأفادت فى أيامها ، ولكنها استنفدت عملها الآن ، فإن الناس فى كل مكان قبلوا مبدأ الحرية والكرامة الإنسانية من الوجهة النظرية ، ولكن تحقيق هذا المبدأ من الناحية العملية أبطأ عليهم ، فقد انتحل القرن التاسع عشر آراء القرن الثامن عشر ، وتقفى آثاره حين ولت أيامه . ولذا فنحن نحتاج إلى مبدأ جديد ليخطو بالتقدم خطوة أخرى . ويجب أن يكون هذا المبدأ روحيا فقال : « لقد سقطنا كحزب سياسى ، فيجب أن ننهض كحزب دينى » ؛ إذ لا بد أن تجد الثورة الجديدة قوتها فى « الحماسة ، فهى وحدها التى تتمخض عنها أشياء عظيمة » ، كما يجب أن تنادى هذه الثورة شعور الناس بالواجب ، وأن تأمرهم بالعمل من أجل الإنسانية لا من أجل أنفسهم ؛ فحينئذ فقط تتلاشى الحقارة ، وينتهى الشعور بالحزبية ونقص الهمة التى حطمت حركات سنة ١٨٣١ ، كما حطمت مشروعات ماتزينى الإيطالية . نعم سيتلاشى ذلك كله ، فيغمره ضياء الإيمان العظيم ، وسيكون هذا الضياء هو المنار الذى تستهديه الجماهير .

وما فتئ ماتزينى يؤمن — بالرغم من سوء حظه ومن ارتياب أصدقائه — بأن أوروبا نضجت للثورة ، وأن على إحدى دولها أن تنير الطريق لها ، وأن إيطاليا ستكون هذه الدولة لأن فرنسا أصبحت فى رأيه غير أهل لهذه الرسالة ؛ وذلك لانقيادها لتقاليد ثورتها .

وهكذا ازدادت كراهيته الشديدة لفرنسا ، تلك الكراهية التى امتاز بها طوال حياته — قد ازدادت وضوحا وذيوعا فى ذلك الحين . كما صرح ماتزينى بأن الرقى الشعبى فى أوروبا كلها يعتمد على ما يرجى فى المستقبل من نفوذه السياسى والأدبى ، ولكن أعوزه السبب المعقول الذى يبرر به منحه زعامة الثورة لإيطاليا ، ومن المحتمل أنه منح بلاده هذه الزعامة لأنه كان يؤمل فى قرارة نفسه أن يرشدها بمبادئه ، وكان هذا إيماناً نبويا رفيعاً يتفق مع بحثه عن القلوب المخلصة ويساير إيثاره الشخصى .

وظل برنامجه الإيطالى على ما كان عليه تقريباً ؛ إذ لم يكن على استعداد فى الواقع لمساعدة الحركة الملكية إلا إذا قررت إقامة الوحدة الإيطالية ؛ فعندئذ يساعد هذه الحركة وهو آسف ، ولكنه لا يؤيد البرنامج الملكى فيما دون الوحدة ، فهو لا يزال يؤمن بالجمهورية من أجل إيطاليا نفسها ، وليضرب مثلا للديمقراطيات الأخرى ، ويؤمن بأن الثورة هى الطريق الوحيد المستطاع للإصلاح فى بلاد ليست فيها حريات دستورية لتجعل الرقى الدستورى ممكنا .

وألح عليه جيوبرتى بأن الثورات غير الناجحة توهن عزائم الوطنيين وتقوى الاستبداد ، فذهب إلحاحه عبثاً ؛ فقد تمسك ماتزينى بالثورة محتجا بأنها الوسيلة الوحيدة لإنهاض الجماهير ، ولا يهم إلا قليلا أن تفشل النهضات الأولى ؛ فإنها ستبقى على الروح التى ستقود يوماً إلى النصر ، غير أنه وعد

ألا يشجع أية حركة ثورية ما لم تنشأ هذه الحركة فى داخل البلاد مستقلة عن المنفيين . ولم تضعف آماله فى النصر المبكر للثورة إلا رويداً رويدا . ثم أخذ يرى أن الأمر يحتاج إلى زمن ربما كان جيلا لينشط القصور الذاتى الذى لقنته الناسَ عصور الاستبداد ؛ إذ أن كل مجهود يقرب الناس من الهدف ، وكل تراخ ينأى بهم عنه .

وكان لا يؤمن بأن التضحية والكفاح يذهبان عبثاً بغير جزاء أو أن الانتظار الهادئ ينجم عن غير الجبن .

وظل يقوم باستعداداته بالرغم عن حاجته إلى المال وإلى السرية فى هذه الاستعدادات ، وبالرغم من أن كآبته العميقة عرقلت مساعيه فى كل اتجاه ؛ فقد صدر العدد السادس من إيطاليا الفتاة فى يوليو سنة ١٨٣٤ ، وكان هذا آخر عهدها بالصدور ، ولكنه واظب على التنظيم — وإن لم يحمد له أحد عمله — فاستمر فى مراسلاته الضخمة ، وفى اجتذاب العاطفين من كل حى ، وفى إرسال الوكلاء إلى إيطاليا ، فعادوا إليه بالقصص المملة عن التخلف والانحراف .

ووجد فى أثناء ذلك من الوقت ما يشغل به نفسه فى السياسات السويسرية ، فحاول أن ينظم حزباً يؤدى لسويسرا ما كانت تؤديه إيطاليا الفتاة لبلادها ، فاستاء كثير من السويسريين بالطبع من تدخل هذا الأجنبى فى شئونهم ، ولكنه قضى على هذا الاعتراض ، فى حين أنه ربما كان أول من ينتقد

الأجنبي الذى يحاول أن يدعو الإيطاليين لمثل ماكان يدعو هو به بين السويسريين !

وألح فى أن سويسرا تلعب دوراً هاما فى السياسة الأوروبية بحيث لا يستطيع أحد ألا يهتم بمستقبلها . ومن المؤكد أن السياسات السويسرية كانت فى ذلك العصر تتيح لكل مصلح مجالا واسعاً ؛ فالميثاق الاتحادى سنة ١٨١٥ عطل دستور نابليون الحر نسبيا ، ولم يكن بين الولايات السويسرية إلا أوهى الروابط ، كما كان الكثير منها محكوماً بأقلية صغيرة ، وأخمدت الامتيازات الطبقية عزائم الصناع والفلاحين ، وأثارت عودة الجزويت نضالا دينيا مريراً هدد بإشعال الحرب الأهلية من حين إلى حين .

ومع أنه حدثت حركة إصلاح قوية من عهد قريب فى بعض الولايات ، فقضت على أشد المساوى فيها لم يُصنع شيء لتقوية الروابط بين الولايات المختلفة . وكذلك كانت الحياة الإقليمية الضيقة توشك أن تلقى بالبلاد فى « حمأة الموت » ، فكان من المستحيل على سويسرا أن تضمن استقلالها ، أو تحتفظ بتقاليدها ما لم توجد فيها سلطة مركزية جديرة بهذا الاسم .

وكان عدم كل حياة وطنية حقّ فى سويسرا واستمساكها بسياسة الحياد التى منعتها ــ وهى إحدى الدول الجمهورية فى أوروبا ــ من أن تلقى بثقلها فى الميزان الأوروبى ــ كان كل هذا ــ مما يسترعى نظر ماتزينى استرعاء قويا ؛ ولذلك كان المثال الأعلى لسويسرا الذى يهدف إليه هو

أن يضمها هي والتيرول وسافوى اتحادٌ بين الجمهوريات ، وأن تستبدل سلطة اتحادية حق بتسوية سنة ١٨١٥ ، على أن تمثل هـــذه السلطة الاتحادية كل الشعب ، وتكون مسئولة عنه بدل أن تمثل الولايات المتفرقة .

فانشأ ماتزينى جمعية « سويسرا الفتاة » كما أصدر صحيفة « سويسرا الفتاة » وكانت هذه الصحيفة تظهر مرتين كل أسبوع بالفرنسية والألمانية ، ولكن الدايت السويسرى عطلها بعد عام واحد ، (وهو المدة المعتادة لمغامرات ماتزينى الصحافية) وحكم على ماتزينى بالسجن المؤبد . وكان ماتزينى فى بعض مقالات هذه الصحيفة غير متطرف ؛ إذ بدا أكثر تسامحاً وأقل مذهبية واتجاهاً إلى النظريات المجردة .

أما حركة سويسرا الفتاة فيبدو أنها لم تصب حظا كبيراً من النجاح ولو أنها استهوت عدداً من أحسن الشبان وأرهفهم روحاً ، كما اجتذبت بعض رجال الدين البروتستنتيين . ومهما يكن من أمر الثمار المباشرة لحركة ماتزينى هذه فإن آراءه انتصرت على كل حال : فالدستور السويسرى الذى صدر سنة ١٨٤٨ تضمن أهم آراء ماتزينى . ومما هو جدير بالملاحظة أن « ديروى » أحد واضعى الدستور كان صديقاً حميما له .

ولكن إيطاليا وسويسرا لم تكونا كافيتين معاً لاستغراق جهود ماتزينى ؛ إذ بعد شهرين من انهيار غزوة سافوى وقع سبعة عشر رجلا من المنفيين الإيطاليين والألمان والبولنديين « ميثاق أوروبا الفتاة » ، وقصدوا منه

أن يكون حلفاً بين جمهوريي البلاد الثلاث ، قائماً على مبادئ ماتزينى . وعندما يتذكر المرء أن مشروع هذا التحول الضخم كان من عمل بضعة شبان من المنفيين يخيل إليه أنه يقرأ خيالا محضاً . وقد أدرك ماتزينى نفسه فيما بعد أن المشروع كان من السعة بحيث لا يؤدى إلى نتائج عملية ، غير أنه كان يتوقع منه شيئاً كثيراً فى ذلك الحين ؛ فقد أراد به أن يكون كما قال : «كلية للعقول» تراقب الحركات الشعبية والوطنية فى القارة وتنبئ بمعلومات عنها ، كما تكون فى الوقت نفسه دعاية منظمة بما كان عندها من أدوات هى وكلاؤها ووسائلها الأخرى الكثيرة .

وكان يرجو من هذه الحركة بوجه خاص أن تساعد على « التحرر من فرنسا» وتشجع بلداً آخر (والأفضل أن يكون إيطاليا نفسها) ليكوّن جيلا جديداً فى الدين والجمهورية ، ولكن هذه الجمعية لم تصنع بطبيعة الحال أكثر من إرسال بعض وكلائها إلى فرنسا وإسبانيا ومن محاولة تنظيم اجتماعات فى إنجلترا ، بيد أنها كانت تبرق بريقاً طويلا فى عيون الناس كافة ، كما قامت بجهود لتعليم الديمقراطية ذات المصالح الدولية .

ووجد ماتزينى فى غضون ذلك متسعاً من الوقت للكتابة الأدبية فضلا عما كان يقوم به من المراسلات السياسية والصحافية ، وكان يرجو من وراء هذه الكتابة الأدبية أن يكتسب بعض المال لنفسه ولعمله السياسى ، ولكن عبثاً حاول فقال : « كنت أفكر فى المشروعات ليل نهار تفكير كل محتاج إلى المال » ، كما كان يرجو من ورائها أن يشجع الشعور الدينى والشعرى

فى إيطاليا ، وأن يحارب الارتياب والمادية المتسيطرة ، ولكنه لم يهتم بشهرته الأدبية الخاصة أدنى اهتمام .

ونصحه أصدقاؤه أن يترك عمله السياسى وأن « يشرف إيطاليا بقلمه » فأجابهم قائلا : « اعذرونى فإن هذا الذى تطلبون لا أجد له معنى ؛ فلست أعلم : ما إيطاليا ؟ ولا : أين هى ؟ فلا بد أن نبعثها ونخلقها أولا ، ثم نشرفها بعد ذلك .

وتنسب إلى هذه الحقبة من حياته المقالات التى كتبها عن بيرون وجوته وعن فلسفة الموسيقى ، كما جمع فى هذه الحقبة مواد ليعيد طبع مؤلفات فوسكولو التى كانت قريبة إلى قلبه حين ذاك وفى كل حين . وأراد أيضاً أن يطبع مجموعة من التمثيليات المترجمة ، وأن يكتب مقدمات لكتاب ريفينى المسمى «chatterton» وكتاب فيرنر المسمى « الرابع والعشرين من فبراير » ، فكتب مقدمة لهذا الكتاب قال عنها كاتب إيطالى محدث : « لم يكتب أحد نقداً لفيرنر فى طول نقد ماتزينى وعمقه » ؛ ونشرت هذه المقدمة بعد ذلك فى بروكسل مع ترجمة لها بقلم أوجستينو ريفينى « وكانت هى الجزء الوحيد الذى ظهر من المجموعة التى اقترحها ماتزينى .

كما فكر فى إنشاء مجلة أجنبية Foreign Review تصدر فى جنوة ولكن أحد أصدقائه الثرثارين أفشى سر إعدادها للطباعة ، فقضت عليها الرقابة فوراً.

وكذلك فكر فى إنشاء مجلة فى الأدب الأوروبى يصدرها فى ليجانو

ئ جو أكثر حرية ، ولكن هذا المشروع انهار أيضاً بسبب الحاجة إلى رأس مال فيما يظهر ، كما قام بمغامرة أخرى قصيرة العمر هى مجلة الإيطالى "Italiano" ، وهى مجلة أدبية علمية ظهرت فى باريس لأشهر قليلة من سنة ١٨٣٦ ، وساهم فيها ماتزينى ، وتومازو ونفر من أفضل الكتاب الإيطاليين ، وفيها نشر جيراتزى الفصول الأولى من كتابه « حصار فلورنسا » ويلوح أن ماتزينى كان يتوق إلى أن يضمن هذه المجلة قصصاً وقصائد؛ ولذلك كتب فى مسودة الإعلان عنها يقول « ينبغى أن تتذكر أن الخيال والمشاعر تكونان أربعة أخماس الإنسان ، وأن الشعر ليس هبة للقلة ولا امتيازاً لهم ؛ فإن الجماهير مملوءة بالشعر الحى المتكلم » ، كما أصر على وجوب العناية بمسائل المرأة عناية تامة .

وكذلك تنسب إلى هذه الفترة بوجه خاص قصص الغرام المتعاقبة فى حياة ماتزينى : فقد كان رأيه فى الأنوثة رفيعاً سامياً ، فكتب ذات مرة يقول : « أحبب المرأة واحترمها ، ولا تنظر إليها من أجل المتعة فقط ، بل انظر إليها من أجل القوة والإلهام ومضاعفة قواك العقلية والأدبية ، واطرح من ذهنك أية فكرة عن السيادة عليها ؛ فليس لك من هذه السيادة شىء ، إذ لا تفاوت بين الرجل والمرأة إلا ما يوجد مثله بين الرجل والرجل ، أى ذلك التفاوت فى الميول المختلفة والدعوات الخاصة ؛ فالمرأة والرجل هما طرفا القوس اللذان بدونهما لا يستطيع وتر القوس أن يضرب » كما كتب إلى زوجة شابة بعد عدة سنين من هذا التاريخ يقول : «إن الزواج

مقدس لأنه من أقوى الوسائل لإنجاز مهمة الحياة؛ فهو الذى يزودنا بمعظم القوة التى فوق البشرية الآتية من الحب، كما يهيء لنا المتعة السامية التى تجعل التضحية مرحاً وسروراً : كالندى الذى يلطف الحرارة اللافحة للزهرة » .
وقال أيضاً : « ولكننا الآن — كما هى العادة — لا نحب ؛ فالحب وهو أقدس الأشياء التى منحها الله الإنسان أصبح لدينا حاجة محمومة وغريزة وحشية . وضلت الأسرة طريقها بإنكارها لكل الدعوات والواجبات الاجتماعية ؛ فالذكورة والأنوثة نسخت الرجل والمرأة » .

وكان هو نفسه ممن لا يقع فى الحب بسهولة لأن عمله كان يستغرق قوته الحيوية، كما أنه لم يكن يغفر لأحد نسيانه العمل العام فى سبيل سعادته المنزلية . ومع ذلك فإن نقاءه ولطفه اللذين لم تشبهما شائبة فضلا على عطفه الذى جعله يفهم المرأة فهماً لم يستطعه إلا القليل من الرجال — كل ذلك — أكسبه ولاء كثير من النساء وعاطفتهن ولا سيما الإنجليزيات . أما شعوره هو بهن فكان مجرد « صداقة حميمة » إلا فى حالين سيأتى ذكرهما .

كانت لماتزينى أيام صباه عاطفتان أو ثلاث عواطف صبيانية : إحداها لفتاة إنجليزية كانت تسكن قرب منزله فى جنوة، والأخرى لفتاة من جنوة تدعى أدبل زواجلى التى تزوجت فيما بعد، وأنجبت الشاعر الوطنى « ماميللى »

وعندما ذهب إلى المنفى كانت أمه ومدام ريفينى هما المرأتين اللتين لهما مكان فى قلبه ، فكان يحب أمه حبا صادقاً عميقاً إلى حد بعيد ، حبا يزيد

من ناحية الرجولة وينقص من ناحية المشاعر عما كان عليه الحب البنوى الإيطالى فى العادة ، ومن المحتمل أن أمه لم تؤثر فيه تأثيراً دقيقاً بعد عهد الصبا ، كما أن التعاطف العقلى بينهما كان يعتوره بعض النقص ، ولكن اعتزازها القوى الذى جعلها « تشكر الله ليلا ونهاراً على أن وهب لها هذا الابن » وإيمانها بمعتقداته السياسية دون معتقداته الدينية ، وحبها الذى رعى ذلك الابن عاماً فعاما دون أن تراه ، والشجاعة التى جعلتها تحتمل سنوات طوالا من الافتراق عنه بدل أن تطلب إليه إنكار دعوته — كل هذا — أمده بأعظم إلهام بشرى خالد فى حياته .

وإذ كان الإنسان فى أوقات تعبه الناصب يتجه إلى والدته وإلى ربه فقد اتجه ماتزينى إلى أمه التى لم يتغير حبها له قط والتى كان يبثها تعسه الروحى بل كل المتاعب المادية الصغيرة التى لا يفضى بها المرء إلا إلى أمه أو زوجه ، وكان على يقين من أن عطفها عليه لن يزول أبداً . أما حبه لمدام ريفينى فكان من نوع آخر ، وكانت امرأة نبيلة جدا ، لها عواطف قوية ظاهرة ، عاقلة ذات تجاريب من العمر والأمومة والحزن . ولم يكن ماتزينى هو وحده — دون بقية حلقة الأصدقاء فى جنوة — الذى يحبها حباً مقترناً بالإجلال مما تبعثه فى الشبان امرأة مسنة ذات إرادة واعية تحيا حياة القديسات . وقد أنقذه إيمانها الدينى العميق من فترة الشك القصيرة التى تغشته فى شبابه ، ولو كانت امرأة غيرها لأنبته على موت جاكوبو ، ولكن مدام ريفينى غذت عاطفتها ذكرى عزيزها المتوفى ، وكانت عاطفة قوية بالذكريات

الكثيرة الأخرى وبالمعتقدات الدينية المتينة التى كان أغلبها صوفيا . فكان ماتزينى يدعوها « أما وصديقة وينعتها بكل النعوت المقدسة ؛ فهى فى نظره أنقى نفس على وجه البسيطة وأصفاها وأقدسها ، وعلى قدر ما نستطيع القول لم يكن ماتزينى هو السبب فى انتهاء صداقتهما إلى سوء تفاهم فيما بعد .

وكان إخلاصه لهاتين المرأتين أعمق أثراً وأبقى من عاطفة الحب ؛ فقد أحب امرأة أخرى على الأقل ، وكان حبه لها بطريق آخر ، إذ خطبها لنفسه ولو سمحت له حياة المنفى لتزوجها . وهذه المرأة هى جيوديتا سيدولى ابنة أسرة لمباردية نبيلة ، نشأت فى لمبارديا فى كنف مدرسة وطنية ؛ إذ كان أخوها كارلو بيليريو من أتباع إيطاليا الفتاة وأبعد من بلده من أجل عقيدته، وتزوجت جيوديتا عندما كانت فتاة صغيرة جيوڤانى سيدولى أحد أغنياء « ريجيو » وكان هو الآخر وطنيا منفيا ، وقد حلفها وهو على فراش الموت أن تكون مخلصة للغرض الذى وهب حياته من أجله . وكانت جيوديتا أكبر من ماتزينى بعام هادئة الحركة رحيمة جميلة بوجه عام ذات وجه بندقى أشقر لطيف وشعار ذهبى وعينين سوداوين واسعتين ، كما كانت واعية غير عاطفية فى سلوكها ، وتصدر عن ينابيع عميقة من الحماسة والإخلاص . قابلها ماتزينى لأول مرة فى مارسيليا حين كانت أرملة لخمس سنين خلت ، ثم قابلها مرة أخرى فى سويسرا ، وسرعان ما تحولت ميولها وشغفهما العام المتشابه إلى حب ، فخطبها لنفسه قبل أن يبارح فرنسا . غير أنه قبل قيام الحريم

على سافوى ببضعة أشهر دفعها حنينها إلى أطفالها الذين تركتهم فى ريجيو، وسافرت إلى فلورنسا لتراهم سواء أوافقت الحكومة أم لم توافق .

وإنا لنشكر شرطة توسكانيا التى كانت تفتح خطابات ماتزينى إليها وتنسخ صوراً منها ؛ فإن ذلك قد أتاح لنا الحصول على بعض نبذ من رسائله إليها . كتب لها ماتزينى يقول : «كان فى خطابك إلى ما جعلنى أهتز طرباً ولا أزال؛ فقد عرفت فى الأيام الأخيرة قوة حبى لك ، فغمرت خصلة شعرك بالقبلات . أواه لو استطعت أن أنام مرة ورأسى على ركبتيك » ، وكتب لصديق له بعد ذلك بقليل : « إنى أحبها أكثر مما تظن هى ، وأكثر بكثير مما تحبنى ، أنا أحلم بها آناء الليل وأطراف النهار حتى أصبحت شيئاً فشيئاً فكرة عالقة بعقلى ، وإن كنت على يقين من أننى لن أعيش معها ولو تحررت إيطاليا » .

لا شك أنهما تحابا إلى حد ما ، ولكننا عندما نتذكر أسلوب ماتزينى العاطفى فى رسائله فى تلك الأيام نتساءل : هل كان حبهما ينطوى على شىء كثير من العاطفة ؟ وهل كان حبهما شوقاً حنوناً قوياً بين روحين طيبتين متقاربتين حتى ينضجه التجاور ؟ ولكن الفرقة الطويلة أضعفته ، فلم يستعص على العزاء والتأسى بعد ذلك .

وكانت جيوديتا فى قرارة نفسها تعز أطفالها أكثر مما تعز حبيبها ، وقد شعر هو بذلك إذ أنها كما يبدو لنا لم تبذل جهداً لتلحق به فى إنجلترا فيما بعد وذهبت إلى « بارما » لتكون على مقربة من أطفالها ، وتوسلت إلى الدوق

الفظ أن يسمح لها برؤيتهم ، فنهاها عن الاقتراب منهم ، فذهبت آخر الأمر إلى « ريجيو » بالرغم عنه ورأتهم للحظة عابرة .

وكان ماتزيني مشغولا هو الآخر فى عمله وفى نضاله مع الفاقة ، فلم يكن يراسلها من إنجلترا أو يكاد حذر أن تسبب لها خطاباته اضطهاداً جديداً من السلطات ، أو لأن حرارة الحب لم تعد تجد لها سبيلا إلى قلبه ، بيد أنه ما انفك يعتبر نفسه مرتبطاً بها برباط الشرف ، ولا ريب أنه ما زال يحبها حبا ما ؛ فقد كتب في صيف سنة ١٨٣٨ يقول . « إن جيوديتا تحبنى وأنا أحبها وقد تعهدت لها بأن أحبها » ولكنه كان يتحدث عن حبها كمن يخشى أثر الشقاق عليها أكثر مما يخشاه على نفسه ، ثم كتب عنها بعد ذلك بسنتين كما لو كان حبها قد إنقضى ، ولكن الحب إذا كان قد انقضى حقا فإن الصداقة القوية الصادقة بقيت بينهما حتى النهاية ، ولعل الرسائل بينهما لم تنقطع انقطاعاً تاما ، كما أنه ذهب فى الخمسينيات ليراها فى أثناء زياراته السرية لبيدمونت ، وكانت تعيش فى وادى دى ساليزى قرب تورين ، وقد أمست غبراء الشعر ، وإن كانت لا تزال على لطفها وثقافتها اللذين كانا لها فى أيامها الخوالى ، فوجدها متسامحة كعهده بها مؤمنة قوية الإيمان بسياسته . ثم كتب إليها وهى على فراش الموت قبل وفاته بعام « كما يكتب صديق قديم إلى إحدى النفوس الطيبة التى قابلها فى حياته » على حد قوله .

ولكن ظهر لجيوديتا من تنافسها بعض المنافسة ؛ ففى أثناء جولان ماتزينى فى سويسرا قابل عرضاً مادلين بنة ماندرو وهو محام فى لوزان كان صديقاً له،

فمالت إليه هذه الفتاة ميلا شديداً ، وتحول ما كانت تحسه بادئ الأمر من شفقة المرأة عليه والميل له إلى حب عنيف . وكانت مادلين تقارب السادسة عشرة ذات طبيعة عاطفية قوية وحنين روحي يتفقان مع ما فيه من طبيعة وحنين . ولكنه ذهب إلى لندن ، ولم تعد تراه ، ثم سمعت عن وحدته هناك حيث لا يعنى به أحد ، فهاج حبها الفاشل وشفقتها عليه حتى ذابت كآبة وسقماً ، فرجاه أصدقاؤها أن يعود إلى سويسرا عسى أن ينقذها مما هي فيه ! وليس من السهل أن نعرف جوابه عن حبها ، ولو حكمنا على حبه بما ورد من إشارات لطيفة فى خطاباته لاستطعنا أن نقول: إنه لم يشعر لها فى بداية الأمر بأكثر من شكر عاطفي على الهدية الثمينة التى أهدتها إليه وإن لم يستطع قبولها .

بيد أنه عندما ازداد علماً باستمرار حبها وتعسها وذهب عنه حبه لجيوديتا — تألم لحب هذه الفتاة القريبة منه ، فنضج وده لها حتى أصبح أدنى إلى الحب العنيف الذى لم يشعر بشبيه له من قبل ومن بعد ، غير أنه لم يرد أن يخون تفكيره الشخصي المستمر فى جيوديتا ، فكتب إلى صديق له وكان هذا الصديق يود بكل جوانحه أن يراه مرتبطاً بابنة ماندرو ، فقال : « هل أنا حر أمام الناس والمجتمع اللذين لا يعرفان إلا الروابط الواقعية ؟ نعم إنى حر ، ولكنني أمام قلبي وأمام الله الذى يسألنا عن عهودنا لست حرا ! » .

وكان يوازن فى بعض الأحيان بين نتائج حبه لـكلتا المرأتين ، فيغريه تفـكيره ، فيعتقد أن « الواجب الحتم » يوجب عليه إنقاذ فتاة من الموت أو من البؤس أبد العمر ، وأن هذا الواجب يبرر له أن يخلف وعده لجيوديتا ، ولـكنه أدرك أن خلف وعده سيكون ضربة قاسية لها وقد سبق أن وهب لها نفسه ، وود لو فر من ذلك الرباط الجديد الذى يشوب ولاءه لجيوديتا ، وهداه إدراكه إلى التذرع بأن المخالطة الكئيبة والحرمان الشديد فى حياة المنفى لن يجعلا فتاة صغيرة كمادلين سعيدة على الدوام ؛ ولذلك لم ينافق فى إخماد هذا الحب الناشىء فى قلبه وقلبها ، كما أنكر إنكاراً واضحاً وجود علاقة بينهما تزيد على علاقة الأخ بأخته ، وابتهل إلى الله أن تنساه كما رجا أصدقاءه أن يجتهدوا فى القضاء على حبها له بأن يصوروه لها فى معايبه ، ورفض أن يراسلها ، ولـكنه وعد أخيراً — تلبية لتوسلات أصدقائها الشديدة — أن يحضر إليها لو وجد إلى المال سبيلا إلا أنه لم يقصد من ذلك الوعد إلا إنقاذها من النحول الذى كان يسرع بها إلى القبر . ومع أنه طرح حبها جانباً واعتبره حلماً جميلا مستحيلا لم يستطع أن يقف حنينه إليها ، فـكتب يقول لأحدهم : « هل تظن أنه من السهل على أن أترك من كانت مثلها قريبة منى ، أأترك مخلوقة من مخلوقات الله صغيرة نقية متدينة متحمسة ؟ أأتركها وأنا أستطيع أن أصب فى قلبها كل ما فى قلبى من عالم المشاعر والأحلام والمعتقدات والحب؟ »

ثم وجد السعادة فى التفـكير بأن حبهما هو « اتحاد صوفى روحانى » ،

أو أنها ستلقاه وستسعده فى عالم آخر ، أما فى هذا العالم فلن يراها . وكانت عاطفتها قد أطفأت سراج حياتها الواهن . إن حب الزوجة والأسرة لم يخلق لماتزينى ، وشعر هو بذلك شعوراً مرا ، فكتب فيما بعد يقول : « إن من لا يستطيع من خلال ظروفه القاهرة أن يحيا حياة الأسرة الهادئة الصافية لذو فراغ فى قلبه لا يملؤه شىء ، وأنا — يا من أكتب هذه الصفحات — أعرف ذلك جيداً ».

الفصل الخامس

لندن

١٨٣٧ — ١٨٤٣ م — من الحادية والثلاثين إلى الثامنة والثلاثين

الحياة فى لندن — حاله الروحية — الأصدقاء الإنجليز — آل كارليل — لامينيه وجورج ساند — العمل الأدبى — انحلال إيطاليا الفتاة — المدرسة الإيطالية فى هاتن جاردن — الدعوة إلى العمال .

فى بواكير سنة ١٨٣٧ وصل ماتزينى وابنا ريفينى إلى لندن . وكان الدافع لهم على هـذا الانتقال عدم قدرة الأخيرين على احتمال الحرمان فى حياة الاختفاء فى سويسرا . وقد وصلوا بعد أن سافروا بخطا بطيئة مثابرة خلال فرنسا ، ومنحتهم الحكومة الفرنسية كل التسهيلات فى رحلتهم ؛ إذ سرها أن يخرجوا من سويسرا . ومهما يكن من شىء فقد أضحوا أحراراً فى لندن يستطيعون أن يعيشوا بأسمائهم ، ويسيروا حيثما شاءوا دون أن تضايقهم الشرطة .

ولكن الانتقال من الثلوج ومنظر الغروب والهدوء فى سويسرا إلى صخب شارع خلفى فى لندن زاد من وحشة ماتزينى مما جعله يأسى فى هذه

الجزيرة » التى لا شمس بها ولا موسيق ، والتى تمتد فيها صفوف المنازل امتداداً مخيفاً ، ويدوى فيها طنين مزعج ، يأسى على هدوء جبال الألب حيث منحته الطبيعة مهلة يستريح فيها من وصب قلبه ، فكتب يقول : « لقد فقدنا حتى السماء التى يستطيع أتعس التعساء فى القارة أن ينظر إليها » .
وأزعجه بمرور الزمن منظر الجدران الكئيبة على جانبى الطريق ، حتى لم يعد يطل من النافذة . ولم يرقه شىء فى لندن إلا الضباب الذى قال عنه :
« عندما ترفع بصرك تضل عيناك فى ذلك القبو الشبيه بالناقوس الضارب فى لونه إلى الحمرة ، ، ذلك القبو الذى يزودنا دائماً — ولست أدرى لماذا — بفكرة عن النور الفوسفورى فى جحيم دانتى ، وتلوح المدينة وقد ظللها نوع من السحر الذى يذكرنى منظر الساحرات فى رواية « مكبث » أو « بروكسبرج » أو « ساحرة أندرو » ، ويبدو المارة كأنهم أشباح ، بل يشعر المرء نفسه أنه شبح » .

واقتبس ماتزينى من النظرات العابرة إلى المبانى المتناسقة فى لونها القاتم معنى من معانى الغموض والإطلاق اللذين خلصا لندن من « الوضعية والتحديد » اللذين فى مدن أوروبا الجنوبية ، وطابق هذا الغموض وذلك الإطلاق إيمانه بالشاعرية والغيب الذى أخذ ينمو فى قلبه .

عاش ماتزينى لبضعة أسابيع فى « ٢٤ جودشن ستريت » فى طريق « تونهام كورت » مع ابنى ريفينى ومنفيين آخرين كانا قد ساعداه فى أيام مارسيليا ، وفى مارس من ذلك العام رحلت هذه الجماعة إلى « ٩ جورج ستريت »

بقرب « أوستن رود » وهناك عانوا كثيراً من الخادم التي كانت تقوم لهم بأعمال منزلهم جميعها ، والتي كانت بلا شك تصنع ما تشاء بهؤلاء الخمسة غير المجربين الذين لا يستطيع منهم التحدث بالإنجليزية بطلاقة إلا اثنان . وقد عاشوا ثلاثة أعوام كانوا فيها أهل منزل بائسين بوجه عام ، وكان ماتزيني خاصة « ملكا للرحمة ودماثة الطبع والحماسة » مستعدا على الدوام للتضحية بنفسه في سبيل أن يمتع زملاءه بما يشتهون . ولكنه كان صوفيا تعساً مما جعله زميلا غير مرح ، كما كان مذهبيا غير عملي ونكداً في بعض الأحيان ، بل نصف ضال في تيه مثاليته بعيداً عن إدراك الآخرين وعطفهم .

وكان أجستينو ريفيني « الأناني » المفلوت اللسان مصدراً لمشاحنات متكررة جعلت ماتزيني يبكي بالدموع ذات يوم ، « بالدموع التي لم يستطع أي شيء آخر أن يستدرها » كما قال عندما كتب إلى أم أجستينو معبراً لها عن ألمه . . . ولما كان أجستينو يعرف في قرارة نفسه قدر ماتزيني وإخلاصه أقسم قسما مكتوبا في ورقة أن يلزم الهدوء ، وقام بعلاج آخر نافع كان يقرؤه بصوت عال ثلاث مرات في الأسبوع ، ولكنه عجز عن إدراك عقلية ماتزيني ، واستمر يمتع نفسه بحياة أكثر حرية لا يصغي فيها لإنجيل الواجب إطلاقاً .

أما جيوفاني فكان أكثر مراعاة للنظام من أخيه ، ويعرف ماتزيني معرفة أفضل ولو أنه أيضاً لم يكن يؤمن بإنجيل الواجب إلا قليلا ، ولا يربطه

بصديقه الرفيع المقام إلا رباط قـــديم وحب عام لوالدته . وكان الازورار الشامل فى المنزل يؤلم ماتزينى إيلاماً قاسياً ويحزنه ، فكتب عن الوسط الذى يعيش فيه فى لندن فقال : « أنا لا أحب أحداً ، ولا أريد أن أحب أحداً » ؛ وأشار فى خطاباته التى كان يرسلها إلى أصدقائه فى إيطاليا وسويسرا إلى ما كان يحسه من نقص العطف فيمن حوله ، واعتبر ذلك أقسى تجربة مرت به فى تلك الأيام التعسة .

ولم يكن هناك ما يصرف ماتزينى عن التفكير فى خسة خلطائه المتنازعين فى جورج ستريت ؛ إذ لم يكن يخرج من المنزل إلا نادراً اللهم إلا الذهاب إلى المتحف البريطانى فكان كثيراً ، ولم يكن لديه مال ليشترى به كتباً كما كان يشكو من أن أحداً لا يقرضه مالا ، وكان لا يرى إلا القليل من الناس وقليلا من المنفيين ، وكانوا فقراء مثله ، وربما تعساء كذلك . وضاع ماتزينى « فى زحمة الغرباء الهائلة فى بلاد كانت فيها الحاجة إلى المال ولا سيما بالقياس إلى الأجنبي سبباً للمظنة فيه ، وكانت ظالمة دائماً ، وقاسية أحياناً » .

وكان هو من بين زملائه بوجه عام فقيراً بائساً يعيش على البطاطس والأرز على الدوام ، وقدم إليه والده مالا ليضارب به فى زيت الزيتون فأضاعه ، فأرسل إليه والده ذلك العجوز القاسى خطاباً يعنفه فيه ؛ مما جعل ماتزينى يرفض قبول أية مساعدة من منزله فى إيطاليا ، وظل على ذلك عدة سنوات ، وحاول أن يجد عملا كمصحح للمسودات ولكن دون جدوى ، كما عرض عليه عمل فى أدنبرة فرفضه ، لأن ابنى ريفينى عزما على ألا يتركا

لندن ، وكان هو يشعر بارتباطه بهما . وجاء إليه العمل الأدبي في بطء شديد، فكانت مقالاته في المجلات الإنجليزية تغل عليه في عام أو عامين دخلا يسيراً بعد أن يدفع للمترجم أجره ، ولم يكن دخل بقية خلطائه أكبر من دخله بكثير ، كما لم يحسنوا تدبير منزلهم .

وكان ماتزيني — كما هو دأبه — لا يرد عن كيس نقوده أحداً من المنفيين المحتاجين الذين كانوا يتوسلون إليه والذين احتج عليهم أجستينو فقال : « إنهم يعتقدون باسم هذه السجية من الأخوة الإنسانية أن لهم الحق في أن يعتبروا دار ماتزيني دارهم » . وسرعان ما اتخذ ما يملك طريقه إلى حانوت الرهون فرهن خاتم والدته وساعته وكتبه وخرائطه ، كما رهن عباءته ليشترى سيجاراً ، وكان السيجار كما قال « هو الشيء الوحيد الذى لم أكن أعتقد أننى أستطيع أن أعيش بدونه » . وفى يوم سبت أسود رهن حذاءه وحلة قديمة ليلتمس طعاماً ليوم الأحد . وخاطر ذات شتاء بصحته فرهن حلته الوحيدة ، ولما وجدت والدته أنه يسارع إلى بيع ملابسه الجيدة ليشترى بثمنها حللا لأصدقائه رأت من الأفضل أن ترسل له عدة حلل من أنسجة أرخص حتى يستطيع أن يحتفظ لنفسه بواحدة منها على الأقل ، وكان «دولاب» ثيابه يفرغ فى بعض الأحيان ،فيضطر للبقاء بالمنزل فلا يذهب إلى المتحف البريطانى ليقوم بعمله الأدبى .

وعرف أصدقاؤه المتيسرون كرمه ، فلم يكن من الغريب أن ينفد صبرهم

على إقراضه المال . كما ساوم بعد ذلك بسنوات قليلة على قرض بضمان مخطوطات لم يكتبها بعد ، وإن لم تصادف هذه الخطة البارعة نجاحاً . وقد أقرضه بعض أصدقائه فى باريس ذات مرة مائة وعشرين جنيهاً ، كما أقرضوه مرة أخرى ولجئوا إلى الحيلة ليقبل هذا القرض ،فادعوا أنه هدية ، كما شرعوا فى تورينو فى جمع اكتتاب له ، وكان ذلك فى نهاية مقامه الأول فى إنجلترا ، ولكنه رفض قبوله وأصر على الرفض حذر أن تسمع أمه بهذا الاكتتاب « فتموت خزياً » ؛ وبذلك لم يجد أمامه إلا الانتحار أو المرابين . وراودته فكرة الانتحار ، ولكنه طرحها من ذهنه رعاية لوالدته ، واعتقاده أن الانتحار عمل من أعمال الجبن . وهكذا وقع شيئاً فشيئاً فى أيدى المرابين ، فكان يقترض بفائدة ٣٠ ٪ ، ٤٠ ٪ وأحياناً ١٠٠ ٪ من جمعيات الإقراض التى قال عنها : « إنها تسلب الفقير آخر قطرة من دمه ، وقد تجرده من آخر طمر من أطمار احترامه لنفسه ! » فغاص سنة بعد سنة فى هذا المستنقع دون أمل فى الخلاص ، وكانت ديونه — بالرغم من أنها لم تزد على ثلثمائة وعشرين جنيهاً — مبلغاً ساحقاً لرجل معدم كل العدم.

وكان هذا هو حال المنفيين جميعاً ، بل كان بعضهم أسوأ حالا ؛ فنى غمار لندن الثرية كان كارل ستولزمان القائد البولندى وهو من أخلص أصدقاء ماتزينى يبيت أحياناً على الطوى بكل معنى الكلمة ، على حين أنه كان يعيش بين أناس يملكون كل وسائل العيش ويشاركهم فى آرائهم السياسية ، ويخطب من أجل الهدف الذى يسعون إليه ! كما أن سانتيلوس ورسل وكان نبيلا

بولنديا فى نشأته. أوشك أن يدفن فى مقابر المستجدين لولا أن أنقذ جثمانه أحد معارفه الإنجليز !

ولكن بالرغم عن متاعب ماتزينى المالية أخذت خياته الخارجية تلمع شيئاً فشيئا : ففى سنة ١٨٤٠ بعد أن استقر هو ومن معه قليلا فى « ٢٨ كليرنودن سكوير » وهو مكان لايبعد عن منزلهم فى جورج ستريت — تركهم أجستينو ؛ ليعمل فى أدنبرة ؛ مما أدخل السعادة على نفوسهم ؛ فرحل هو وجيوڤانى إلى « ٤ يورك بيلدنجز » وكان هذا المسكن فى ذلك الحين على ناصية « كينج رود وشيلس وريلى ستريت » وبذلك قرب ماتزينى من آل كارليل ، كما هرب من كآبة لندن وصخبها ومن زواره المحتاجين ، ودبر لهما شئون منزلهما أحد الصناع الإيطاليين المنفيين من « بريجيا » هو وزوجه الإنجليزية ، فأثبتا أنهما مدبران عظيمان ، وأنقذاهما من متاعب الخادمة .

وكان فى أحد جوانب هذا المنزل حقل كلأ جاف ، وفى جانب آخر مزارع لبيع الخضراوات ، وعلى مرمى النظر منه أشجار قاتمة الخضرة لاتبعد كثيراً عن نهر التيمز « وكان التيمز قاتماً مثلها بمائه الطينى الأصفر القذر ، ولكنه يبدو جميلا فى الليل حين يخفى الظلام لونه ، ويبرق الماء بريقاً فضيا فى ضوء القمر ، وقد أوغلت الصنادل فيه سوداء ساكنة خفية كالأشباح » .

وبعد عام تركه جيوڤانى إثر مشاجرة عنيفة بينهما ، وذهب إلى باريس ، ومن ثم لم يتصالحا قط ، وهكذا قابل جيوڤانى إخلاص صديقه بالبرود

والاحتقار اللذين لم يكن يستحقهما ، وكذلك صنع أخوه من قبل ، غير أن جيوڤانى كفر عن هذه الخطيئة فيما بعد ، فصور صديقه القديم ماتزينى صورة عاطفية فى شخصية فانتزيو فى كتابه : « لورنزو بينينو » .

وأحس ماتزينى بخسارته لابنى زيفينى بالرغم من أن علاقاتهما به لم تكن مريحة له ، وكانت سنوات حياته الأولى فى إنجلترا — سواء بهما أو بدونهما — أشد حزنا وبؤساً مما كانت عليه أسوأ أيامه فى سويسرا . ومع أن عقله كان فى ذلك الحين سليما فى الواقع مافتئت الدلائل تدل على أن التعب والجهد العقليين أشرفا به على الخلط : فبالرغم من أنه لم يعد ثمة خوف عليه من انهيار روحى كالذى هدده منذ عام أو عامين بتحطيم إيمانه ومعنويته — ازداد امتزاجاً بالبؤس كما ازداد افتقارا وهو يعيش وحيداً منفرداً « فى وحشة الروح الملعونة » فكتب يقول : « لا يستطيع الإنسان أن يعيش وحيداً ، وهأنذا لا يعنى أحد بأن يعرف ما أفكر فيه ولا ما أريد » .

وكان قلبه يهبط فى صدره عندما يرجع من المتحف البريطانى إلى منزله ، وغرفته العارية المظلمة حيث لا صديق ولا امرأة ترحب به ، فضلا عن طباع أجستينو الشكسة التى زادت من هذه الوحدة الشاملة ، كما أن رغبته فى أن يستجيب له من حوله جعلته يتخلى عن أفكاره وإلهامه ويطويهما ، وزاد جحود أصدقائه وهجران أتباعه من مخاوف وحدته الروحية ، فبدت له

هذه الوحدة كأنها « عصر من التحلل الأخلاقى وعدم الإيمان كالعصر الذى مات فيه المسيح ».

واشتدت عليه وطأة الشعور بالإخفاق، وآده ذلك التفكير ، بل ذلك الشعور السقيم بأن عمله كان عبثا ، وبأنه قدر عليه أن يجلب سوء الحظ على أصدقائه مما جعله يضحى بنفسه دون أن يسعد أحداً بهذه التضحية . . . وشعر بما يشعر به « من حكم عليه حكما مبرماً دون ما ذنب جناه » ، وكتب إلى أحد أصدقائه الخلصاء يقول : « صل من أجلى فعسى أن أكون صالحاً لشيء قبل أن أموت ! » .

غير أن أمرين أنقذاه من القنوط وربما من الانتحار : أولهما أنه نفى عن ذهنه منذ أزمته الروحية فى سويسرا كل فكرة عن السعادة الشخصية ولو أن الإنسان الطبيعى المستقر المطمئن كل الاطمئنان يثور بعض الأحيان، فكتب مرة لمادلين يقول : « هل تظنين أننى فى ساعات وحدتى لا أفكر فى البحث — لو استطعت — عن صدر أريح عليه جبينى وعن يد عاطفة أضعها عل رأسى ؟ » غير أنه علم أن البحث عن السعادة يقود بغير شعور إلى الأثرة دون شك ، وأن التضحية « هى الفضيلة الحق الوحيدة » وأن « الواجب لله والإنسانية والبـــلاد والناس كافة » — هو القانون الوحيد للحياة عند الرجل الحق.

وهكذا نضج فى الدين نتاج فلسفته الباردة ، وكان الدين عنده صوفيا

أحياناً ، ولـكنه جميل ومنقذ فى كل حين . والآخر إيمانه بأن أخته المتوفاة وجاكوبو ريفينى يصليان من أجله ، ويرعيانه ويلهمانه القوة والحب . فالحياة فى رأيه كفارة تطهر الروح لمرحلة أخرى يتقابل فيها الأصدقاء مرة أخرى ويزول ما بينهم من سوء التفاهم ، فيسودهم الحب جميعاً . ورأى أنه حتى لو كان الحزن فى هذا العالم الدنيوى من نصيب أحد الناس — ستتقدم أبدا الإنسانية . وهى ذلك الـكائن الجماعى العظيم — إلى عالم جديد وآمال جديدة وقواعد للحياة أنبل .

ولربما أنقذت ماتزينى مودته أكثر مما أنقذه إيمانه ، ولو أن هذه المودة لم تتركز فى الحقيقة إلا فى أشخاص قلائل ؛ إذ لم يعد له صديق حق من شركائه السياسيين القدماء ، كما أن من أوشك أن يعرفهم من الرجال والنساء لم يكن يشعر نحوهم بعرفان الجميل إلا قليلا . وأما حبه « لجيوديتا سيدولى » فاستحال إلى تقدير صادق ولـكنه غير عاطفى ، كما أن حبه لمادلين كان حلماً مستحيل التحقق فصمم على تركه . فلم يبق إذن إلا أعزاء صباه وهم مدام ريفينى ووالدته وأخته غير المتزوجة ، بل والده القاسى ، وكان يحبهم حبا ممزوجاً بالشفقة مشوباً بالحزن السقيم ، ولـكنه كان حبا قويا ، بل كان كالشمس المشرقة فى حياته الغائمة ، فـكتب إلى مدام ريفينى يقول : « إننى أزداد كل يوم إحساساً بقوة الله وشرعه ، ولـكنه لا يبكى معى ولا يملأ فراغ روحى لأننى لا أزال لصيقاً بالأرض ، فأنا أعبد الله أكثر مما أحبه ، ولـكننى أحبك أنت ! » هكذا انفلت ماتزينى مبالغاً فى عباراته أشد المبالغة ،

ولكن حبه لها كان صادقاً يخرج من أعماق كيانه ، حبا مقروناً بالاحترام الذى يشعر به لها ؛ لأنها كانت له أكثر من أم ، غير أن مودتها لهذا الناسك فى حبها سرعان ما خمدت ؛ فقد بذل ابنها أجستينو جهده لتحطيم صديقه فى نظرها ، كما حدث شقاق بينها وبين أم ماتزينى ، ولا ريب أنها انحازت إلى جانب أولادها عندما وقع النفور بينهم وبين ماتزينى ، فانقطعت عنها رسائله فى أوائل سنة ١٨٤١ انقطاعاً تاما .

وعاد ماتزينى يحن إلى والديه ؛ إذ حل بهما حزن جديد حنى ظهريهما لما ماتت أخته الباقية ، وكانت عزيزة عليه لأنها الوحيدة من أسرته التى عطفت على مشروعاته السياسية عطفا كبيراً وكانت تشجعه على عمله ودافعت عنه أمام والده ، فأذهله موتها ، وحلت به الكآبة المسقمة ، ولكنه أحس بأكثر من هذه الكآبة لوالديه اللذين تركا فى وحدة الشيخوخة بعد أن فقدا ابنتهما ، وكانت همزة الوصل بينهما حين أخذ والده يزداد عنفاً ، وأضحت الحاجة إلى شىء من الانسجام لازمة بين العجوزين . ثم إن والده مرض مرضاً شديداً لم يشف منه إلا بصعوبة ، فكان ماتزينى يطيل التفكير فى أنه لم يقدم إلى والديه شيئاً عندما كان بين ظهرانيهما ، وأن الحياة التى اختارها لنفسه كانت سبباً لكل متاعبهما ، ففكر فى مشروعات من أجل راحتهما ، وكانت هـــذه المشروعات تعمل فى رأسه « كالعجلة الدائبة الدوران » حتى أراد أن يخاطر — وحكم الإعدام مصلت على رأسه — بالذهاب إليهما ليعيش

معهما سرا ، ولكنه أدرك أن الفزع من اكتشاف أمره سيزيد من همومهما ، ومع ذلك زارهما خفية سنة ١٨٤٤ .

وبدأت الكآبة تنقشع عنه هوناً ما عندما شرع يتخذ أصدقاء له فى إنجلترا ، غير أنه لما يصبح عاطفاً ميالا إلى الحياة الإنجليزية فى الحقيقة ؛ إذ لم يجد إلا نفراً قليلا من الإنجليز يرغبون فى فلسفته السامية المتجسمة وعمومياته الكبيرة غير المحددة ، كما أن حب الإنجليز للحقائق وشكهم فى النظريات بدا له « مادية وتحليلا انتقاديا بحتاً » يقضى على التفكير الروحى والفلسفى فكتب يقول : « إن كل فرد هنا فى إنجلترا إما طائفى أو مادى » كما أنه لم يفهم البروتستانتية ، ولم يقدرها فى ذلك الوقت ولا فى أى وقت آخر . وكانت فكرته عن الساسة الإنجليز واهنة وخصوصاً عن « الهويج » الذين أثاروه بحماقتهم حين حاولوا إسقاط الكارتيستية chartism . ولو أن اعتقاده فى القادة الكارتيستيين لم يكن أفضل من ذلك ؛ فقد كانوا فى رأيه « إنجليزاً أى ماديين من أتباع مذهب المنفعة أو من أتباع بنتام — على أفضل الأحوال — لا مبدأ لهم إلا الحصول على أكبر قدر ممكن من السعادة » . كما رأى أن فصل الطبقات المتوسطة عن الطبقات العاملة ينذر بثورة واسعة مخيفة ، بيد أنه أخذ يتعرف بالتدريج الجانب الحسن من الحياة الإنجليزية ، فأعجب بتسامحهم وثباتهم وتماسكهم « ووحدة التفكير والعمل التى لا تهدأ حتى تحول كل فكرة اجتماعية جديدة إلى عمل ، والتى إذا خطت خطوة لم تتراجع عنها » . وكان يراقب الحركة الكارتيستية بعطف ، ويقارن ما بين

كثرة أتباعها وبين قلة تلاميذ الاشتراكيين الفرنسيين . ومع أنه لم يهم بنظرياتها إلا قليلا رأى فيها أموراً ترتفع على « الأثرة الضيقة التى امتازت بها السياسات الإنجليزية » وقد استصوب الكارتستيين عندما تخلوا عن تحزبهم القومى ، فأرسلوا تمنياتهم الطيبة إلى الثوار الكنديين »

وأخذ يشعر رويداً رويداً أنه فى بلاده فقال : « هنا تتقدم الصداقات ببطء وبصعوبة ، ولكنها أصدق وأبقى منها فى أى مكان آخر » ، كما كتب فى أيام لاحقة : « لن أنسى أبداً بل سأذكر بخفقات قلبي الأرض التى أصبحت لى وطناً ثانياً حيث وجدت الصداقات التى كانت دواء ناجعاً لحياتى المتعبة التعسة » . وبعد عام أو عامين اتسعت دائرة صداقاته بسرعة فائقة ، غير أن الملابس وأجور « الأتوبيس » كانت تستنزف موارده ، فجعلت المجتمع أمراً باهظاً له . وكان أول من اهتم به من الإنجليز مسز أرشيبولد فلتشر من أدنبرة ، إذ قابلته بعد وصوله إلى إنجلترا بأشهر قليلة ، وكان « شابا أهيف أسمر جذاب المحيا » لا يستطيع التحدث بالإنجليزية ، ومع ذلك يريد قبوله فى مكتبة عامة ، وكان يبدو عليه أنه تعس إلى حد بعيد حتى إن هـذه السيدة المسنة الرحيمة خشيت عليه من الانتحار ، وكتبت إليه تحذره فى لطف فأجابها : « إن من يدمر حياته كما يدمر الطفل لعبه هو ذلك الذى لا يريد إلا التمتع فحسب والذى جعل هذا التمتع فكرته الرئيسة » .

ولكن باكورة صداقاته الوثيقة فى إنجلترا كانت مع آل « كارليل » فكتب سنة ١٨٤٠ يقول عنهم : « لقد أحبونى كما يحبون أخاً لهم ، ورغبوا

أن يصنعوا بي من الخير أكثر مما كان فى مقدورهم ، وأحب ماتزينى كارليل حبا صادقاً لعدة سنوات فقال عنه : « إنه حسن وحسن جدا ، ولكنى لا أزال أعتقد أنه غير سعيد بالرغم من شهرته العظيمة » كما احترم إخلاص كارليل وتحرره من الأفكار الضيقة المحصورة وانطلاقه فى التعبير ، وقال عنه : « إنه كان يدعو الذين لا يوافقونه على آرائه إلى إمساك لسانهم على حين أنه هو نفسه لم يتحل بفضيلة الصمت » . وكذلك رحب به كارليل لأنه فى رأيه « يخدم الله الذى يخدمه هو وإن كان يعبده بطريقةأخرى » كما رحب بطريقته فى مهاجمة مذهب المنفعة وتعظيمه للروحية « وكان حافزه إلى هذا حبه أتباعه وشعوره العميق الإيجابى بالواجب ؛فقد آمن أن الواجب هو رسالة الإنسان على الأرض » . ولا شك أن حبهما المشترك للشاعر « دانتى » ساعد أيضاً على أن ينجذب كل منهما إلى صاحبه .

ولكن ماتزينى انتقد كتب كارليل واتهمه اتهاماً رقيقا كله احترام ، اتهمه بالفردية وبعبادة الأبطال ، وبأنه يقدر تفوق السلالات واتجاهها العام العظيم ، وبأنه عديم التأثير عاجز عندما يدخل فى مجال التطبيقات السياسية العملية ، وقد نمت فى نفس ماتزينى هذه الخصومة لآراء كارليل حتى بدا بمرور الزمن أنهما « متعارضان تمام التعارض » ، فقال ماتزينى لبنت كانت تقرأ كارليل وتعجب به : « لماذا يجرفك هذا التيار إلى المادية ؟ لقد هلكت ، فكارليل يعبد القوة ؛ أما أنا فأحاربها بكل ما أستطيع ؛ إن كارليل شبح الأشباح ، هو ضخم عندما يهدم ، ولكنهعاجز عن إنشاء شيء جديد ، فأنت

إذا ما أحببت الأفراد واحترمتهم وأعجبت بهم بدل أن تعجبي بالشعوب والإنسانية فلا بد أن تصبحي فى النهاية من أنصار العتاة الظالمين » .

وكان كارليل بدوره لا يعطف على آراء ماتزينى إلا هوناً ما ، واعتبرها « آراء لا تصدق ، بل هى مضحكة ومبكية معاً ومستحيلة فى هذا العالم » ولم يكن يطيق « مبادئ ماتزينى الجمهورية ونظريته فى التقدم وخيالاته الأخرى التى تشبه خيالات روسو » ، غير أنه كان يقدره « لما حبى من روح نبيلة قوية باسلة مخلصة حقا » . فعندما تكلم وزير بيدمونت المفوض عن ماتزينى مستخفا به فى حضور كارليل رد عليه هذا الأخير قائلا : « إنك يا سيدى لا تعرف ماتزينى إطلاقاً إطلاقاً إطلاقا » ، وغادر المكان غاضباً . وعندما حدثت قصة بانديريا كتب إلى صحيفة التيمس — بالرغم من أنه كان قريب عهد بالتشاجر مع ماتزينى — يقول :

(مهما يكن ما أعتقد فى نظرة ماتزينى العملية ومهارته فى الشئون الدنيوية فإننى أستطيع أن أشهد بكل حرية أمام الناس كافة بأنه رجل عبقرية وفضيلة وصدق محض وإنسانية ونبل عقلى ، إنه أحد هؤلاء النوادر فى هذا العالم الذين يستحقون أن نسميهم « نفوس شهيدة » ، يفهمون ويمارسون فى هدوء وتقوى فى أثناء حياتهم اليومية ما نعنيه بقولنا : « نفوس شهيدة ») .

فتأثر ماتزينى — بالرغم من أنه كان واجداً على كارليل بما طرأ على علاقتهما من فتور أخيراً — بهذا الدفاع حتى قال لأحد أصدقائه : « إنى أسمى هذا نبلا » .

أما شعور ماتزينى نحو مسز كارليل فكان أقوى من ذلك ، وبادلته هى هذا الشعور فى ثقة قوية بل شاركته فى معتقداته السياسية حيناً من الزمن . ثم انحازت إلى رأى زوجها فى هذه المعتقدات شيئاً فشيئا . وقامت بينها وبين ماتزينى « مناقشات حامية » عندما كان يكشف عن ذات نفسه فيصور تركه للحياة فى إيطاليا تصويراً جافا خشناً . وكان يسألها : « ألا توجد أشياء أهم من رأسى ؟ » فتجيبه : « بلى ،توجد أشياء أهم من رأسك ، ولكن الرجل الذى ليس لديه إدراك ليحتفظ برأسه فوق كتفيه ويحاول أن ينال شيئاً ما عن طريق فصله من جسده ليس له إدراك كاف ليدير أى أمر آخر مهم » .

ولكنها كما قال كارليل : « احتفظت بمودتها له » ففى سنة ١٨٤٦ ذهبت إليه تستشيره فى حياتها الزوجية المضطربة ، فدعاها إلى أن « تلقى بأشباحها وأطيافها إلى عالم الفناء » وأن تجعل حياتها محتملة بأن تخالط والديها المتوفيين مخالطة روحية وبالعمل والحب فقال : « انهضى واعملى ؛ فإن الشيطان عندما أراد أن يغوى المسيح قاده إلى الوحدة »

وكان ماتزينى كثير التردد على منزل آل كارليل يزورهم فى جميع الأجواء « وينضح حذاؤه الطويل المصنوع من جلد الغزال ماء فى منظر مخيف على طنافسهم » ، وربما جاء فى بعض الأحيان يحمل قصة يعتقد أنها تسلى مسز كارليل ، وفى أحيان أخرى يتناقش فى « دانتى » هو وكارليل الذى كان فى ذلك الوقت يكتب ترجمة « للكوميديا الإلهية » حتى يمل كارليل من الحديث ويذكره مرتين أن المركبة الأخيرة ستبرح المحطة !. وقد تركت لنا مارجريت

فولر وصفاً لأمسية قضتها مع الثلاثة « ماتزينى وكارليل وزوجه » ، ووصفت لنا كيف أن ماتزينى كان يوجه الحديث نحو موضوع التقدم والموضوعات المثالية » ، وكيف أن كارليل كان يطلق لسانه بالقدح فيها جميعاً ويصفها بأنها « سخافات متطايرة » ، وكيف أن ماتزينى كانت تحزنه زلاقة كارليل ، وأن مدام كارليل قالت لها : « إن هذه مجرد آراء بالنسبة لكارليل ، أما ماتزينى فقد وهب لهـــذه الموضوعات كل نفسه ، بل ساعد على ذهاب أصدقائه إلى المشنقة فى سبيل التمسك بها ، فهى عنده مسألة حياة أو موت » .

وفى مناسبة أخرى احتكر ماتزينى الكلام ، وطفق يستعرض أضخم حقائق الدنيا استعراضاً طويلا ، فالتفت إليه كارليل وقال : « إنك لم تنجح لأنك تتكلم كثيراً جدا » وتكرر التعارض بينهما تكرراً مؤلماً ، وسقطت الكلفة بينهما وهما يتحاجان : أحدهما باش عميق الحركة يتحدث بجميع قلبه فصيح حتى فى إنجليزيته الركيكة ، والآخر مبالغ شكس مزدر يتدفق فى لغته تدفقاً عارماً . كان ماتزينى يجلس طوال الوقت «باهتاً» هادئاً فى كرسيه ، وقد يستثار فيبكى وهو يدخن فى عصبية ظاهرة سيجاره الصغير على حين يجلس كارليل بغليونه الفخارى الطويل يسحب الدخان فى هدوء ، ويرسل عواصف من عباراته . وبالرغم من ذلك لم تتحطم صداقة ماتزينى الحميمة لآل كارليل ، وظلت زوج كارليل تهتم به على كل حال خلال إقامته الأولى فى إنجلترا . وعندما سافر إلى ميلانو سنة ١٨٤٨ طلب منها وهو يقبلها أن تكون « قوية طيبة حتى يعود » ، وعندما عاد مجهداً وقد علاه الكبر

ربتت على لحيته الشهباء وهى تتحسر ، وأوجدت له سكناً ، وأخذت تعمل على راحته عندما أثر فيه موت أمه حتى طرحه فى الفراش ، ولكن الجفوة بينه وبين زوجها أخذت تتسع حتى انفصلا بعد عامين أو ثلاثة أعوام انفصالا تاما وإن ظلا حتى النهاية يحترم كل منهما أخلاق صاحبه ، كما يكره كل منهما آراء الآخر . وتقابلا ذات مرة بعد سنوات من ذلك التاريخ وتحدثا « بأسلوب قلبي وفى إخلاص وعاطفة متبادلة » ، وأشار كارليل فى ذلك الوقت إلى ماتزينى فقال : « إنه أنقى إنسان حيّ أعرفه الآن » ، وأخيراً تسامح بعض التسامح فى رأيه عن سياسات ماتزينى فأقرّ بأن « هذا المثالى ظفر ببغيته وحول مدينته الفاضلة إلى حقيقة واضحة قوية » .

ولكن ماتزينى حتى فى أيام معرفته الوثيقة بآل كارليل لم يمتزج بهم امتزاج الأهل مثلما امتزج بأسرة إنجليزية أخرى هى « آل إشيرست » فى « مزول هل » ، وكانوا أفضل أصدقائه فى السنوات الأربعينيات من ذلك القرن ، وقال عنهم : إنهم أسرة عزيزة طيبة مقدسة أحاطت بى رعاية حبهم حتى جعلتنى فى بعض الأحيان أنسى أننى منفى » وكان « و . ه إشيرست » محامياً صديقاً « لروبرت أوين » ، وتعرف بماتزينى فى الوقت الذى حدثت فيه قصة « فتح الخطاب » التى سنذكرها فيما بعد . أما مسز « إشيرست » فلقبها ماتزينى بما كان يلقب به مدام ريفيني فيما سبق ، وهو « أمى الثانية » . وكانت إحدى بنتى إشيرست متزوجة «جيمس ستانسفيلد» أما الأخرى فكانت كما قال هو : أفضل أخواته الإنجليزيات » ، وأصبحت بعد ذلك زوجاً لفانتورى ، وتركت لنا أفضل مذكرة كتبت بالإنجليزية عن ماتزينى ، وظلت

كلتا الأختين ، وكذلك أخوهما يمدون يد المساعدة الهادئة إليه فى عمله طوال عدة سنوات ، وعن طريق آل إشيرست تعرف ماتزينى بآل ستانسفيلد وآل بيتر تيلور ، ولكن صداقته الحميمة لهاتين الأسرتين تعود فى الأغلب إلى مدة إقامته الثانية فى إنجلترا . وكان من بين أصدقائه كذلك « وليم شاين » الذى سماه اللاجئون الإيطاليون « المنقذ الإنجليزى » و « جوزيف توينبى » والد « أرنولد توينبى » و « جوزيف كودين » الذى أصبح فيما بعد نائباً عن نيوكاسل ، و « جورج جاكوب هليوئيك » ، و « جون ستيوارت مل » الذى قال عن ماتزينى : « إنه أحد الرجال الذين أحترمهم أكبر احترام » وكذلك « مرجريت فولر » وكانت متحاملة عليه عند وصولها إلى إنجلترا ، ثم تخلصت من حفيظتها لما زارت مدرسته التى أقامها لصبيان الأرغن ، فصادقته ثم جددت صداقتها له أيام الجمهورية الرومانية ، وكتب عنها الصديق له: « إنها من أندر النساء فى حبها وعاطفتها الإيجابية إلى كل شىء عظيم جميل مقدس ».

وقد عقد بعض الصلات باثنين تاليين له فى المقام وهما « جبرائيل روستى » و « أنطونيو بانيزى » وكانا أشهر المنفيين الإيطاليين فى لندن فى ذلك الوقت . أما روستى فقد جعله ماتزينى يشغف بمدرسة صبيان الأرغن ، وكان يشاركه فى معرفته لبعض المنفيين ، ولكنهما لم يتصلا اتصالا وثيقاً ، وحاول ماتزينى إقناعه بأن يمد يد المساعدة إلى عمله الوطنى ، ولكن محاولته ذهبت عبثاً ، ثم فصلت الخلافات السياسية بينهما فصلا تاما . أما بانيزى فكان أميناً

على الكتب المطبوعة فى المتحف البريطانى ، كما كان من الكاربونارى فيما سبق من أيامه الإيطالية ، وشارك ماتزينى فى إيمانه « بدانتى وفوسكولو » كما ظاهره مظاهرة قوية فى حادث « فتح الخطاب » ثم اختلفا على السياسات الإيطالية ، فلم ير أحدهما الآخر إلا قليلا ، وإن لم يتنافرا تنافراً تاما . وكان من بين الغرباء الآخرين الذين قابلهم ماتزينى الأمير نابليون « بلون بلون » وكان مشغولا حين ذاك بالتآمر على الأورليانزيين وكونوى ، ثم أصبح طبيباً للويس نابليون ، وأضحى وسيلة اتصال عامة بين الإمبراطور والوطنيين الإيطاليين .

هذا وكان ماتزينى يكره كل شىء يمت بصلة للمجتمع الحديث : ففى ذات مرة أقنعته سيدة إحدى الصالونات الشهيرة فى لندن بأن يحضر إلى صالونها ، ولكنه عندما وجد أنها تريده ليكون حلية لمجتمعها ، لا لأنها مشغوفة بالهدف الذى يسعى إليه — رفض أن يذهب إليها مرة أخرى .

وتأثر ماتزينى فى ذلك الوقت بلامينيه فبدأا يتراسلان إثر إصدار لامينيه لكتابه « كلمات مؤمن » ثم تقابلا مرة على الأقل ، ورأى فيه ماتزينى روحاً قريباً من روحه ؛ فهو فى نظره « قس الكنيسة العالمية الذى يدعو إلى الله والشعب والحب والحرية » ، وكتب عنه سنة ١٨٣٩ : « أنا لم أر هذا الرجل إلا أخيراً ، ولكنى وجدته مفعماً بالرقة والحب ؛ يبكى كالطفل عندما يسمع إحدى سمفونيات بيتهوفن ، ويعطى آخر درهم يملكه ، ويعنى بالأزهار عناية المرأة بها ، ويخرج عن طريقه حذر أن يدوس نملة ! » .

وعرف ماتزينى أن فى تعاليم لامينيه العامة كثيراً مما يتفق مع تعاليمه هو فى الهجوم على مدرسة الثورة الفرنسية : تلك المدرسة الارتيابية المخربة ، كما يتفق مع إيمانه بالتقاليد والإنسانية ، ومع دعوته إلى الواجب باعتباره أساس الحياة . ومن المحتمل أن يكون كتاب لامينيه «كلمات مؤمن» قد ألهم ماتزينى إلى درجة ما فى كتابه « واجبات الإنسان » ، وكان ماتزينى يضع خططاً لينفذها لامينيه ؛ إذ رأى فيه « لوثر القرن التاسع عشر » فارتجى وإن لم يكن واثقاً كل الثقة فى رجائه — أن يتقدم إلى الناس معلماً لدين الإنسانية ، وألح عليه أن « يصنع شيئاً أفضل من تأليف الكتب » ، وهو أن يكون مبعوث العقيدة الجديدة ، فأجابه لامينيه بأن المسيح كان يبشر فى الطرق العامة ، أما الآن فلا يستطيع أحد أن يقابل أربعة أشخاص حتى فى خلاء ، فيحدثهم عن الله والإنسانية دون أن يقبض عليه الشرطى ! ، فخاب أمل ماتزينى ، وحزن لرفض لامينيه دعوته ، وشعر بأنه ينظر إليه فى شىء من التهيب والخوف . وكان ذلك كافياً كل الكفاية لعدم التوافق بينهما ؛ فمع أن ماتزينى « أحبه صديقاً واحترمه قديساً » كتعبيره — كان يشعر بأنه يعزف عن حبه بالرغم منه : وقال لامينيه ذات مرة على مسمع منه : « هذا الرجل الطيب ماتزينى لا يملك المرء أن يستمر فى حبه » ؛ فتركت هذه العبارة فى عقل ماتزينى أثراً غير طيب .

وكان ماتزينى يرى أن لامينيه وجورج صاند هما « أول كتاب فرنسا الأحياء » ، بل رأى أن الأخيرة تؤمن إيمانه ؛ وكان قد قرأ فى أثناء أزمته

العقلية فى سويسرا كتابها « خطابات مسافر » ، وكان يؤمن دائماً بأن هذا الكتاب هو أفضل نتاجها كما كان يراه « رقيقاً كأغنية المهد فى أذنى الطفل الباكى » ، وراسلها ثم زارها سنة ١٨٤٧ فى الباليه نوار ، فأثرت عليه « ببساطتها » قبل كل شىء ، كما أثرت على ماثيو أرنولد فى السنة السابقة ، فكتب ماتزينى عند عودته إلى إنجلترا يقول : « إن مدام صاند هى تماماً كما نريدها أن تكون : فهى طيبة نبيلة صريحة « بسيطة » تتحمل المتاعب فى هدوء أكثر مما نراها من ثنايا كتبها » ، ودافع عنها دفاعاً قويا فى إنجلترا ، غير أنه لم يكن يؤمن أن كتبها ينبغى أن توضع فى متناول كل إنسان ، بل كان يؤمن « أن الشر الذى صورته لم يكن شرها هى ، بل شرورنا نحن » كما قال ، وأن مذهبها الواقعى يستهدى غرضاً أخلاقيا عاطفيا ، وأن العبقرية لا تستطيع أن تصنع إلا الخير فى المدى الطويل ، كما أنها ملزمة أن تجعل كلمتها مسموعة فى الناس . .

وكتب إلى أحدهم يقول : « إنك تستطيع أن تجلجل فى جريدتك الفصلية القديمة محذراً من جورج صاند وناهياً شبانك عن قراءتها ، ولكنك ستجد فى يوم ما ولسبب لا تعرفه تمام المعرفة — مجلدات جورج صاند تحتل أفضل الأماكن فى مكتبتك » . كما رأى فيها : « رسولا لديمقراطية دينية » فتجاوبا فى إدراكها للألوهية وفى إيمانها بأن انحلال العقائد القديمة يعيد الولاء للألوهية الصادقة ، وفى إيمانها بأن المستقبل سيبنى على الحب . وكان يبتهج بترديد عبارتها: « ليس ثمة إلا فضيلة واحدة هى التضحية الخالدة بالنفس »

كما رأى فيها أنها صوت الأنوثة التى طالما استعبدت ، فقال : « شكراً لله على أنها امرأة » ، وأن كتبها وحى « لحياة المرأة الداخلية » ، ودفاع من المرأة عن العدالة والمساواة .

وعلى الجملة لم يكن يشوقه أحد من الكتاب أكثر منها فى ذلك الوقت ، ولكن أعمالها الأخيرة وموافقتها على الإمبراطورية بدلت رأيه فيها ، فاقتنع فيما بعد — وهو حزين مغلوب على أمره — بأن ما كان يظنه نطقاً مخلصاً واعياً « لقسيسة رفيعة المقام » — كما عبر — لم يكن إلا صدى يتردد فى هذه الفنانة ، هو صدى الإيمان الذى لم يكن إيمانها .

وأخذ ماتزينى يبحث فى بطء عن عمل يتكسب به ، ولكن واجهته صعوبات عظيمة ؛ إذ كان أول الأمر مجهداً تعساً إلى حد لا يستطيع معه أن يعنى بالكتابة ، وكان عاجزاً ولا يزال عن الكتابة بالإنجليزية ، فاستغرقت مصروفات الترجمة جزءاً كبيراً من أجره . كما آده أن يكيف قلمه وفق اتجاهات عامة الإنجليز فقال : « إن أسلوبى وأفكارى تزعجهم ، وما هو قديم عندنا جديد عليهم ، ولا يستطيع المرء أن يتحدث إليهم عن الرسالة والإنسانية والتقدم والاشتراكية ! »

ورفض أحد الناشرين مقالة له فى تقريظ بيرون قائلا له : « إن بيرون كان شاعراً غير أخلاقى » ، كما أن كاميل الناشر للمجلة البريطانية والأجنبية رد مقالاته إليه فى أدب بعد أن أجرى عليها بعض التجارب متذرعاً بأن

عامة الإنجليز « حمير متعجرفون ! » ، وأنه لا يستطيع أن يستميلهم للإصغاء إلى العموميات إلا رويداً رويداً ؛ فوعد ماتزينى أن يبذل جهده ، ويكتب مقالات تلائمهم .

ثم جاء هذا الجهد دون إرادته ؛ فإن الحاجة الملحة إلى المال ورفضه أن يطلب شيئاً من الوطن هما اللذان أجبراه على أن يكتب بأسلوب غريب عنه وفى موضوعات لم تكن تشوقه إلا قليلا ؛ وبدا هذا الوضع الجديد الذى اتخذه ماتزينى صالحاً فى نظر القارىء الإنجليزى ، وامتازت مقالاته الإنجليزية بالتفكير المحكم الذى كان ينقص كتاباته الأولى ، ولو أن بعض مقالاته ظل يغلى كالإناء على النار . وكانت حصيلته الأدبية كبيرة ، فكتب عن « فرا باولو ساربى » فى مجلة وستمنستر ، كما كتب عن ڤيكتور هيجو ولامارتين مقالات لامعة مبتكرة فى « المجلة البريطانية والأجنبية » وعن الأدب الفرنسى المعاصر فى صحيفة « منثلى كرونيكل » ، ولكنه ركز همه فى مقالاته عن الموضوعات الإنجليزية كانتقاداته المتقنة لكارليل فى « المجلة البريطانية والأجنبية » وفى « منثلى كرونيكل » وفى صفحاته التى دبجها عن الكارتيستية فى جريدة « تيتس أدنبرة جورنال » ، ولكن أهم ما كان يعنيه هو أن يعرض إيطاليا وعقيدته الدينية الخاصة على القراء الإنجليز ، فكان يكتب وهو محب للكتابة مشغوف بها عندما يتناول مؤلفات دانتى الثانوية فى المجلة الأجنبية الفصلية ، وعندما يتحدث عن لامينيه ، وعن السياسات الإيطالية فى « منثلى كرونيكل » وعن الأدب الإيطالى المعاصر والفن الإيطالى لمجلة وستمنستر ، كما بدأ يكتب

فى صحيفة الشعب التى كان يحررها جون سوندر مقالات تحت عنوان « أفكار عن الديمقراطية فى أوروبا » ، ثم اتسعت هذه المقالات ، فأصبحت : « إنى أحب الديمقراطية Isistemie la Democratia » ، وهى انتقاد قوى لمدارس مذهب المنفعة ، ومدارس الاشتراكية الأولى . وكتب فى مجلته « أيستولاتو بوبولير » الفصول الستة الأولى من أنبل كتاب كتبه ، وهو « واجبات الإنسان » ، ويبدو أنه كتب أيضاً رواية لم تر النور .

ووجد ماتزينى عملا أدبيا آخر محبباً إلى قلبه إذ كان منذ أيام دراساته الأولى فى جنوة يعجب أشد الإعجاب بأجو فوسكولو ، وكان يعتبره الكاتب الإيطالى الحديث الذى كتب هو والفييرى تعاليم سياسية إلى مواطنيه تدل على فحولة أية فحولة . ولما كان فى سويسرا وضع مشروعاً لكتابة حياة فوسكولو ، وقام ببحوث عن مخطوطاته ومطبوعاته النادرة المبعثرة . فلما جاء إلى إنجلترا قوى اهتمامه به ولا سيما أنه كان يسكن قرب المكان الذى ثوت فيه عظام ذلك الكاتب فى ساحة كنيسة تشيزيوك . فلما عرف أن بيكارنج أحد الناشرين الإنجليز كان ناشراً لكتب فوسكولو ، ويملك مخطوطاً لملاحظات فوسكولو الناقصة على الكوميديا الإلهية ، ونشرت سنة ١٨٢٥ وفيها أخطاء مطبعية كثيرة ، كما وجد فى ركن مترب من حانوت ذلك الناشر « مسودة » لجزء من كتاب فوسكولو المسمى « إليترا أبولوجيتيكا » ، وهو نوع من المواثيق السياسية ولم يكن قد نشر فيما يظهر — لما عرف ذلك كله — أخذ على عاتقه أن يعيد نشر الكتابين كليهما ، وأظهر فى ذلك حماساً يفوق

لإخلاص ، ولكن بيكارنج رفض أن يبيع كتاب « إليترا » بغير مخطوطة دانتى ، وطلب فيهما معاً أربعمائة وعشرين جنيهاً ؛ ولعن ماتزينى « روح هذا الكتبي الجشع ، ولو استطاع لسرق الكتابين بدون شك » كما يقول . فتطوعت سيدة توسكانية كانت تعز فوسكولو ، فأقرضت ماتزينى المال الذى يكفى شراء هذين الكتابين . كما استطاع أن يقنع رولاندى الناشر الإيطالى فى شارع بيرنارز أن يشترى ملاحظات دانتى لينشرها ، ولكن ماتزينى وجد أن هذه الملاحظات كانت ناقصة نقصاً كبيراً ، وخشى ألا يشتريها رولاندى لو لاحظ فيها هذا النقص ، فأخفى الحقيقة عنه ، وقام بجهد ضخم لإكمال هذه الملاحظات ومراجعة النصوص ؛ وهكذا اشترى رولاندى المخطوط دون أن يكتشف ذلك الغش الذى دفعه إليه حب الخير ، ثم قام بنشره سنة ١٨٤٢ فى أربعة مجلدات بمقدمة من ماتزينى غفل من التوقيع ، ولم يتقاض ماتزينى شيئاً على عمليته المعروف ، وغير المعروف ! . وكانت لهذه الطبعة قيمتها فى ذلك العصر ، ولكنها أصبحت الآن ذات أهمية تاريخية فقط .

واكتشف ماتزينى فى الوقت نفسه الجزء الباقى من مخطوطة « إليترا أبولوجيتيكا » فى حقيبة قديمة كانت تحوى أوراق فوسكولو ، فقام أنريكو ماير « العالم التربوى التوسكانى وصديق ماتزينى » بجهد مشكور لنشر هذه المخطوطة فنشرت فى ليجانو سنه ١٨٤٤ ، ومعها كتابات سياسية أخرى لفوسكولو . كما مد ماتزينى يد المساعدة إلى مونيه الناشر الفلورنسى فى إخراج طبعته الكاملة عن فوسكولو ، وقد صدرت بعد ذلك ببضع سنوات ، ولكن حياة

فوسكولو لم تكتب بعد ، وظل ماتزينى طوال سنوات عدة يتصيد فى حمية التلميذ الوفى كل خطاب وتقرير صدر عن فوسكولو . عسى أن يجد فيه أية إشارة نافعة عن حياته ، ولكن السياسة والعمل الاجتماعى استوليا بمرور الزمن عليه ، فلم يكتب حياة فوسكولو بعد أن بذل فى جمعها كثيراً من العناية .

ثم عاد ماتزينى إلى العمل السياسى تدريجيا غير أن انحطاط قواه المعنوية بادىء الأمر جعله يسترخى استرخاء شديداً مما صعب معه أن يمارس السياسة مثلما مارس الأدب ، ومرت لحظات عانى فيها رد فعل عصبى . لما اكتظ به عقله ، من المشروعات الجريئة والهواجس الضخمة والمبادىء غير المحدودة ، كما أن صراعه مع الكآبة والكساد استنفد قواه بوجه عام ، فأحس أنه متعب خائر لا يستطيع أن يبعث إيطاليا الفتاة . ويبدو أنه كان قد اتخذ خطوة شكلية لاعتزال قيادتها قبل أن يبارح سويسرا ببضعة أشهر ، ولكن لما لم يكن باقياً لإيطاليا الفتاة أى تنظيم حقيقى ، ولم يكن أحد ليخطو بها بدله — كان اعتزاله القيادة لا يعنى شيئاً : فجمعية إيطاليا الفتاة لم تكن إلا هو نفسه : حتى إنها لم تعد إلى الوجود إلا بعد أن أمسك هو بزمامها مرة أخرى . وكان قد حدث بعض الاضطراب والإجفال فى صفوف أعضائها ؛ إذ أن الكثيرين منهم فى إيطاليا سالموا الحكومات ، كما أخذ آخرون يغذون إيمانهم فى هدوء ، ولم يبق إلا قليل استمروا فى عملهم بالروح القديمة ، وهى روح التآمر .

حقيقة إن هذه الجمعية لم تمت ، ولكن فروعها السرية القليلة الباقية على قيد الحياة ارتدت فى الغالب إلى تقاليد الكاربونارى ، أو عادت إلى

الإثارة الإقليمية التى لا يحدها حد ، والتى كان ماتزينى يكرهها كما يكره الردة عن العقيدة . ولم تكن الجمعية أفضل من ذلك بين المنفيين حتى اشتكى ماتزينى قائلا : « لا يوجد اثنان منا يفكران تفكيراً واحداً فى موضوع معين ، وأنت لا تستطيع أن تجد واحداً من بيننا منتمياً إلى إيطاليا الفتاة » . وانتهز كثير منهم فرصة العفو العام فى لمبارديا وبيدمونت ، فعادوا إلى وطنهم كما هاجم جيوبرتى الجمعية ، بل إن الذين كانوا على مقربة من ماتزينى لم يؤمنوا بوسائله وآماله إلا قليلا ، ولم يكن هو ليعتدل فى شىء من عقيدته ليكتسبهم إلى جانبه ، بل تفرد بهدفه تفرداً رفيعاً حتى إنه لم يستطع أن يفهم ضعف الرجال أو يتسامح مع الذين أقسموا على القتال من أجل فكرة ، ولكنهم نكلوا عنها عند أول هزيمة .

غير أن عدم استجابة مواطنيه له كان مدعاة لتجديد مجهوده وزيادة حماسته مما أثار الشفقة عليه من أجل ذلك كله ، ومن أجل رغبته فى الإخلاص لهدفه حتى الموت : فقد قال : « عندما أكتب لصالح إيطاليا أشعر بالخجل كما لو كنت أكذب على الناس! » .

وبالرغم من شعوره بأنه لم يعد قادراً على العمل أغرته نفسه حيناً من الزمن بالذهاب إلى إيطاليا ليقذف بحياته فى غمار التمرد الذى لا رجاء منه . وكان ذا طبيعة مرهفة إلى حد لا يركن معه إلى القعود واليأس ، فكتب فى أوائل سنة ١٨٣٩ إلى أحدهم يقول : « آه لو كنت تدرك كم يثقل على نفسى عبث هذا الوجود ! » : فقد كان يموت فزعاً من عدم إنجازه عمله ، وكانت

ذكرى جاكوبو ريفيني ماثلة أمامه على الدوام ، وشعر بأنه ملزم إنجاز الغرض الذى مات فى سبيله جاكوبو أول شهدائه ، وأنه مسئول عنه « أمام الله وإيطاليا ونفسه » ، وأنه لو قعد عنه لكان كافراً منافقاً . وبالرغم من علمه بأن حماسته ذهبت ، بل ذهبت ثقته فى إيطاليا وفى نفسه أحياناً — كان يرى أن واجبه لا يزال قائماً ، وأنه يستطيع أن يثق فى الله وفى عدالة سعيه ، فكتب يقول : « أنا أعرف أن جاكوبو لم يمت ، وأننا طلائع لإيمان جديد لا لسياسة جديدة ، وربما لا نرى هذا الإيمان حين يتحقق ، ولكن ما من قوة بشرية تستطيع أن تقفه » .

ولم يكن ماتزيني على أية حال قد قرر حتى صيف سنة ١٨٣٩ أو خريفها أن يعود إلى العمل السياسى الإيجابى « بعزم كاسر » كما يقول ، ولم تكن لديه فكرة محددة بادىء ذى بدء إلا أن يحرك الجانب الشعبى من برنامجه ، وأن يهيب بالطبقات العاملة أكثر من ذى قبل . وإذ كانت الوسائل التى يملكها للاتصال بالذين فى الوطن قليلة فى هذا الوقت فإنه يستطيع أن يصنع شيئاً بين الإيطاليين المقيمين فى لندن ، وهم أصحاب الحوانيت وسنانو الأدوات والباعة الجوالون بالتماثيل الفخارية ، ولم يكن قد اتصل حتى ذلك الحين بهذه الطبقة العاملة من مواطنيه إلا غراراً ، فأخذ يعرفهم فى دوامة هذه المدينة الأجنبية ، ونجمت هذه المعرفة عن إحساسه بآلام غيره إحساساً قويا جعله يشعر بسعادة دائمة حين يزيل أسباب البؤس عن فرد من الأفراد: فقد حدث قرابة هذا الوقت أن وجد وهو خارج من داره فى صباح شتا

بنتاً صغيرة على عتبة الدار نهكها البرد والجوع فدفعه العطف على أنوثتها الحزينة ، ذلك العطف الذى شارك فيه أعظم الساسة الإنجليز ، فأخذها إلى داره ، وجعلها فى رعاية صاحبة الدار . وعندما تزوجت هـــذه البنت ، وهجرها زوجها — أخذ ماتزينى على عاتقه تعليم أطفالها ، فكان يخصص جزءاً كبيراً من دخله الزهيد لهذه الغاية عدة سنين .

كما جذبته عاطفة الإحسان هـذه إلى المشردين من بلاده ، فتحدث إلى صبيان الأرغن الإيطاليين الذين كانوا يجوبون شوارع لندن بصندوق الأرغن ، ومعهم السناجيب أو الفيران البيضاء ، ويتكلمون بلهجة إقليمية نصفها أجنبي ونصفها إنجليزى ، فعلم منهم تفاصيل « تجارة الرقيق الأبيض » ؛ إذ كان بعض الإيطاليين الذين يعيشون فى لندن يجلبون إليها الصبيان من الفلاحين الفقراء الإيطاليين بعقود ، ويعدونهم أجراً عالياً وحياة طيبة ، ولكن لم تكن لهذه العقود قيمة قانونية فى إنجلترا ؛ فحالما يصلون إليها يضربونهم ويخوفونهم ويجوعونهم إلى حد الموت ؛ فساق ماتزينى إلى ساحة العدالة أسوأ هؤلاء المجرمين ، وأخاف باقيهم ليحسنوا معاملة ضحاياهم ، ولكنه التفت أكبر التفات إلى تهذيب هؤلاء الصبية أنفسهم والتأثير عليهم فافتتح سنة ١٨٤١ مدرسة فى رقم ٥ هاتن جاردن ، ثم نقلها بعد ذلك إلى رقم ٥ جرايفل ستريت فى لندرلين ، حيث كان الصبيان يجيئون فى الأمسيات المتأخرة ليتعلموا القواعد الثلاث وبعض مبادىء العلوم ، ويأخذوا دروساً يوم الأحد فى الرسم والتاريخ الإيطالى .

وكانت هذه المدرسة جد عزيزة على ماتزينى ، وكان الصبيان كما قال أحد المراقبين الإنجليز « يجلون ماتزينى كأنه معبود ، ويحبونه كأنه والد » حتى إن أحدهم لما رجع إلى إيطاليا سافر إلى جنوة خصيصاً ليفصح لوالدة ماتزينى عن شكره لما صنعه ابنها من أجله . وكان أصدقاؤه الإيطاليون والإنجليز ومن بينهم « جوزيف توينبى » يدرسون بالمجان فى هذه المدرسة ، وكان العشاء السنوى فيها حادثاً عظيما عند ماتزينى وجماعته ، كما كان ماريو وجريزى يغنيان فى الفرق الموسيقية ليعينا مالية المدرسة ، فازدهرت بالرغم من المعارضة الصاخبة التى أبداها أحد القساوسة الإيطاليين المجاورين لها مما جعل ماتزينى يرد عليه بأول هجوم عنيف على البابوية .

وقبل افتتاح هذه المدرسة بقليل كان ماتزينى قد بدأ فى إنشاء جمعية سياسية للعمال الإيطاليين فى لندن ، كما كان يصدر صحيفته « أبستولاتو بوبولير » وظهرت على فترات حتى سنة ١٨٤٣ ، وفيها نشر نداءه للعمال فى إيطاليا . وشعر شعوراً قويا يزيد على شعوره فى أيام مارسيليا بأن الحركة الثورية ينبغى أن تعتمد فى مساعدتها الرئيسة على الطبقات العاملة ، وأن تجعل هدفها النهائى هو خير هذه الطبقات .

وقد جعلته الحياة الإنجليزية يتصل بالتفكير الاشتراكى فى ذلك الوقت ، فشعر بأن الحركات السياسية ما هى إلا أقزام قميئة بجانب حياة الجماهير ، وأخذ يتحدث بأن إيطاليا ستصبح « إيطاليا الشعب » ، وأن الشعب هو الذى عانى كثيراً من تقسيم إيطاليا وسوء الحكم فيها ، وأن بعض الطبقات

أصابت مغانم فى حين حـــرم الفقراء المجهولون وسائل التسلية ؛ فليس لهم مسكن حقيق ولا اهتمام عقلى ؛ فحاول أن ينهضهم من إقليميتهم وإهمالهم للسياسة ذلك الإهمال المستغرق لذات نفوسهم ، وأهاب بهم أن يكونوا وطنيين وجمهوريين فخورين بماضى بلادهم العظيم عاملين لمستقبلها ولأطفالهم مذكراً إياهم بأن الله لن يحاسبهم على ما اكتسبوا من أجور ، ولكنه سيحاسبهم بما قدموا لزملائهم .

وبالرغم من تأكيده الشديد للجانب الديمقراطى فى حركته وتنظيم الطبقات العاملة والإصلاح الاجتماعى كان يقظاً لحماية إيطاليا الفتاة من أن تصبح حركة طبقية ، ففى هذا الحين ولأول مرة فى كتاباته إلى الطبقة العاملة بدأ حرباً صليبية ضد الاشتراكية ، وواصل هـذه الحرب إلى آخر حياته وإن ضعفت أحياناً فى إدراكها وفطنتها .

الفصل السادس

الثورة

١٨٤٣ — ١٨٤٨ م — من السابعة والثلاثين إلى الثالثة والأربعين

السياسات فى إيطاليا — البنديريا — فضيحة مكتب البريد — عصبة الشعب الدولية — حياة ماتزينى من ١٨٤٥ — ١٨٤٧ — خطاب إلى البابا بيونونو — الاتجاه إلى الملكيين — ثورة سنة ١٨٤٨ فى ميلانو

بينما كان ماتزينى يراقب وهو فى إنجلترا فتور العزائم وقد بدت الأمواج حسيرة لا تتقدم شبراً واحداً — كانت اللجة تعلو وتفيض فى إيطاليا ، ولكن إلى أى حد ينسب هذا المد الطارئ فى الباعث القومى إلى تعاليم ماتزينى ؟ تلك لعمرى مشكلة ربما لا تحل ، ولكننا حينما نتذكر كيف كان نفوذ إيطاليا الفتاة واسع النطاق ، وأن كثيرين ممن يتقدمون الآن إلى الصدارة كانوا من أعضائها — يتضح لنا أن القوة الدافعة ما كانت لتنبعث من غير ماتزينى أبداً .

فشبان الجامعات الذين كنزوا فى منازلهم تيبات ماتزينى ، وأعداد

صحيفته « بستولاتو بوبولير » ، والصناع الذين انطبعت آثار أصابعهم على النبذ التي كتبها هو أو كتبها جوستافو مودينا — كل أولئك — كانوا يمعنون في تعاليمه ، ويتربصون حتى يأتي أوان النضج ، ولكن نفوذ ماتزيني مع ذلك لم يكن هو وحده الذي أثر فيهم دون غيره من المؤثرات وإن كان أقواها : فالتقاليد ما انفكت تعيش وقد انحدرت من ثورات الكاربوناري ، والإيمان القديم بشارل ألبرت كان يخفق بالحياة ، والقومية الكاثوليكية المعتدلة التي نبعت من مانزوني ومدرسته كانت تفيض فيضاناً قوياً ، كما أن الشواهد اليومية على الاستبداد وسوء الحكم هناك كانت تدعو ضد النمسويين والطغاة الإيطاليين . وبالرغم من وجود تيارات عدة في زحمة الوطنيين المتزايدة كانت هذه التيارات تتجه كلها إلى نقطتين : هما جلاء النمسا عن إيطاليا ، وضمان قيام حكومة صالحة فيها .

وكانت روح النهضة تبرز في الأدب بالرغم عن أنوف المراقبين والشرطة ؛ « إن ظلّ دانتي شاعر الشعب المنبعث أخذ ينوء على حديث الأرض وصمتها » . واقتفى الطلاب آثار فوسكولو وجبرائيل روستي ، فدفعوا بعالم القارئين الإيطاليين إلى الهدف الوطني العظيم الذي دعاهم منذ أكثر من خمسة قرون إلى الوحدة . وتحدث كتاب التمثيليات والمؤرخون والروائيون عن أمجاد بلادهم القديمة . ولما كان المصلحون الاجتماعيون الذين أخذوا يزدهون بحركة التحرير ومن اقتفى آثارهم من منشئ المدارس وبنوك الادخار ورواد الزارعين وبناة السكك الحديدية — لما كان كل أولئك كذلك —

كان من الطبيعي أن تتجه عواطفهم السياسية بوجه عام إلى السياسيين المعتدلين الذين وصلوا إلى شهرة أوشكت أن تخسف نور ماتزيني .

وأصدر جيوبرتي كتابه « تفوق الإيطاليين الأخلاق والمدني » وردد في هذا الكتاب إيمان ماتزيني بإيطاليا وروما ، ولكنه حرّم الديمقراطية والوحدة، ودعا إلى الفيدرالية وإلى شيء من الحرية ، وتطلع إلى شارل ألبرت وإلى البابوية ليخلصا إيطاليا ، كما كان سيزار بالبو يدعو في بيدمونت إلى هذه السياسة المعتدلة نفسها غير أنه لم يدع إلى الإيمان بالبابوية . وكانت عقيدة هذين الرجلين ميسورة سهلة إذا ما قيست بعقيدة ماتزيني ؛ إذ لم يكن لهما من إيمان ماتزيني الديني ولا من ديمقراطيته المتأججة ولا من دعوته إلى التضحية والاستشهاد إلا النزر اليسير : ومن ثم كانت عقيدتهما تصلح للمرتابين وأنصاف المؤمنين والملكيين والكاثوليك ورجال البلاط والأغنياء والقساوسة ، كما تصلح لرجال الدنيا المتزنين الذين يعرضون عن خيالات ماتزيني ومثاليته ، ويضحكون من رسالة إيطاليا إلى الإنسانية في حين يقدرون أملا آخر أكثر اعتدالا ، هو الأمل في بعث إيطاليا .

ولكن مهما يكن من أمر هذه التعاليم فقد التقت هي وتعاليم ماتزيني في نقطتين : أولاهما — أنها كافحت لتجعل الشعب يتطلع إلى مطمح سديد يبذل في سبيله جهداً جهيداً ؛ والأخرى — أنها نادت بوضوح كما نادى هو بالتخلص من النمسويين .

وهكذا كانت هذه التعاليم تكملة لتعاليمه وإن قلت عنها روحاً ونبلا وطنية وإيحاء بالأعمال العظيمة ؛ ومن ثم سايرت هذه التعاليم من حيث الهدف من لم ينضموا إلى إيطاليا الفتاة ، ولم يفخروا أبداً بالانخراط فى سلكها ، غير أن هذه التعاليم قد أمدت الحركة العامة بصفات كانت تنقص ماتزينى نقصاً واضحاً ، وهذه الصفات هى الإحساس السياسى بالأمور المحتملة الوقوع والممكنة التطبيق ، وقد قال عنها أحد شراحها : إنها الصبر والتسامح والشمول وعدم الحكم سلفاً على طبقة من الطبقات والترحيب بكل من يتقدم إلى العمل الوطنى سواء أكان مغتبطاً به أم متردداً فيه .

وكانت الأسباب التى استندت إليها هذه الحركة المعتدلة هى أن الثورات الصغيرة أدت بعدم أناتها إلى خسارة فى الأرواح لم يستفد منها الثائرون شيئاً ، كما أحنقت الطغاة ، فازدادوا طغياناً . وقد رأى أحد رسل هذه الحركة المعتدلة ألا تقوم ثورة ضد الأمراء الوطنيين الصالحين ، وأن الجيوش النظامية هى التى ينبغى أن تقاتل النمسويين . . ولكن تقاليد الثورة القديمة لا يمكن أن يقضى عليها دفعة واحدة ؛ وذلك لأن الروح الجديدة كانت تعلق أقوى آمالها على خارج إيطاليا فى الواقع ، كما كانت إيطاليا الوسطى تعيش فى غمار المؤامرات . ومع أن ماتزينى بدأ يدرك عبث هذه الثورات الصغيرة كان الاستعداد الذى يؤمن به لا يتناسب هو والهدف الذى يسعى إليه مما يدعو إلى الرثاء . . فأعد مشروعاً لإنهاض الولايات البابوية ، على أن تتبعها حركات فى الشمال والجنوب ، وبشرط أن يساعدها المنفيون

مقتنعاً بأن فى مقدور فرق قليلة من العصابات أن تجر الشعب وراءها ، فلا يحتاج لأجل النصر إلا إلى برنامج جرىء واضح . غير أنه لم يجد لمؤامرته هذه إلا زهيداً من المال وقليلا من الرجال لا يزيدون على أصابع اليدين عدا . وكان من بين القلائل الذين تقدموا إليه نبيلان بندقيان شابان هما آتيليو وأميليو باندريا الضابطان فى الأسطول النمسوى ، وكان رجال هذا الأسطول من الإيطاليين والدلماشيين ، وكان هذان الشابان ذكيين عاطفيين معتدين بنفسيهما سليمى الطوية غير ناضجين ، بيد أنهما على خلق سام مستعدين ليضعا حياتهما على أكفهما ، فأراد ماتزينى أن يستخدمهما فى مشروعاته فى إيطاليا الوسطى ، ولكن عملاء (البوليس) راقبوهما ، وتسقطوا أخبارهما ، وكانت الحكومة الإنجليزية قد فتحت الخطابات المتبادلة بينهما وبين ماتزينى ، وأطلعت حكومة نابولى على خافية الأمر ، فدست هذه الحكومة عليهما رجلا مأجوراً ليقودهما ومن معهما من الأتباع القلائل زاعماً أن ثورة فى كالابريا تستدعى معونتهم . وهكذا خدعا فذهبا إلى حتفهما ، وأحكمت المصيدة حولهما؛ فما إن أرسياهما ومن معهما قرب كوزنكا حتى قبض عليهما ، وقتلا بالرصاص .

وكان هذا العمل الدنىء الذى ارتكبته الحكومة الإنجليزية سببا فى ظهور ماتزينى على مسرح الحياة السياسية الإنجليزية : فقد ارتاب أن خطاباته عبث بها فى مكتب البريد ، ودلته تحرياته اليقظة على أن هذه الخطابات فتحت وأعيد تغليفها ، وغير ختم البريد عليها ، فوضع الأمر بين يدى توماس

دانكومب نائب فنسبورى ، فعرض دانكومب خافية الأمر على مجلس العموم ، فهبت عاصفة للدفاع عن الكرامة دلت على أن الرأى العام البريطانى أحس أن حكومته أخلت بمبادىء الأخلاق ، ولعبت « دور الجاسوس » لصالح الطغيان فى القارة ؛ فاتهمها شيل وماكولى فى البرلمان ، وكتب كارليل إلى صحيفة التيمس يقول : « إننا نعتقد أنه من الجوهرى أن تحترم الخطابات المغلقة فى مكتب البريد الإنجليزى ، وتعتبر من المقدسات ؛ فإن فتح خطابات أى شخص عمل أقرب إلى نشل الجيوب ، وقد يكون بالنسبة لبعض الناس أدنأ أنواع السفالة وأقتلها ، بحيث يجب ألا يلجأ إلى فتحها إلا فى حالات الضرورة القصوى » .

وحاولت الحكومة أن تخمد هذه العاصفة بخدع وأكاذيب ملفقة مما أثبت — كما قال ماتزينى — أن الإنجليز يقيسون الشرف بمقياسين مختلفين : أحدهما لحياتهم العامة ، والآخر لحياتهم الخاصة : فقد أعاد سير جيمس جراهام ذكر تلك التهمة القديمة المبتذلة التى تقول بأن ماتزينى يحرض على القتل فى فرنسا وإن كان قد نفاها عنه عندما علم الحقائق ، ولكن الشعور العام اهتاج ، فلم يترك المسألة تقف عند هذا الحد ، فاضطر مجلسا البرلمان إلى انتداب لجان سرية لبحثها ، وتقدمت هذه اللجان بتقارير جاء فيها : إن الخطابات كانت تفتح فى مكتب البريد فى جميع الأحوال منذ سنة ١٨٠٦ حتى إن خطابات أعضاء البرلمان أنفسهم قد عبث بها ، وإن الحكومة أصدرت أمراً بفتح خطابات ماتزينى ، بل فتحت هذه الخطابات فى الواقع قبل صدور

هذا الأمر بعدة أشهر ، وأخذت الحكومة منها معلومات أرسلتها إلى دولة أجنبية . حقيقة إن هذه المعلومات ذات صفة عامة فى الظاهر ، ولكن هذا لا يؤثر فى أن المسألة جميعها فضيحة وشين ، كما لا يغير من الحقيقة الثابتة ، وهى أن الحكومة الإنجليزية أرسلت تحذيراً لحكومة البوربون مما ساعدها على تصيد الوطنيين المنكودين .

وانتهز ماتزينى هذا الحادث ليدافع عن مصالح إيطاليا أمام الرأى العام الإنجليزى مباشرة ، وكان ماتزينى يحتقر السياسة الخارجية الإنجليزية احتقاراً بالغاً ويقول عنها : « إنها سياسة تعارض كل شىء يتمخض عن حقيقة جديدة فى السياسة الأوروبية ، ولكنها تبادر فتكون أول المعترفين بهذه الحقيقة الجديدة عندما تلوح قوتها ! » . ولكنه لم يكن منصفاً فى انتقاده هــذا ولا سيما بالقياس لكاننج وبالمرستون (وقد غل زملاؤه والبلاط الملكى يديه) كما أن إنجلترا كانت لا تزال تعتبر بوجه عام بطلة الدفاع عن أهداف الرجال ومقاصدهم ، وإن صح هذا الانتقاد فيما يتصل بوزارة الخارجية ، إذ أنها لم تعر الحركات الوطنية العظيمة المعاصرة فى أوروبا إلا قليل التفات . . . .

وأصر ماتزينى على أن السياسة الحكيمة التى يجب أن تتبعها إنجلترا هى تشجيع هــذه الحركات ، فتكسب بذلك شكر الوطنيين الناهضين على أن يكون هذا التشجيع بالمظاهرة الأدبية ، لا بطريق التدخل المسلح ؛ فقد

كان يستنكر هذا التدخل استنكاراً واضحاً . ولربما كان الفضل فيما صنعه بالمرستون فيما بعد راجعاً إلى هذه البذور التي بذرها ماتزيني .

وأدرك ماتزيني أن في استطاعته الاعتماد على أفراد الإنجليز والأمريكيين في العطف العملي على حركته ، فاستغل استغلالا طيبا شعور إنجلترا المضاد للبابوية وحبها القديم للحرية الإيطالية المنحدر من أيام بيرون وهوبهوس ؛ فحمل المسافرون الإنجليز والأمريكيون خطاباته السرية وأدبه إلى إيطاليا . وفكر أيضاً في الاستفادة من « الحلف المسيحي » ، وهو جمعية أمريكية للدعوة البروتستانتية ، كما أقنع بعد ذلك بعام أو بعامين صديقاته الإنجليزيات أن ينظمن سوقاً إيطالية ، فأقيمت هذه السوق في دار مسز ملنر جبسون ، وكان الغرض منها في الظاهر مواجهة مصروفات مدرسته الإيطالية في لندن ، في حين أنه كان يقصد من هذه السوق تخصيص كل فائض من المساهمة الإيطالية فيها للرصيد الوطني الذي كان يحاول تنميته من أجل العمل السياسي .

وفي هذه السنة (سنة ١٨٤٧) أنشأ عصبة الشعب الدولية لتصل ما انقطع من عمل جمعية أوروبا الفتاة ، وإن كان قد هدف من وراء هذه العصبة إلى تجميع العطف على إيطاليا بوجه خاص . وانضم إلى هذه العصبة ستانسفيلد وآل أشيرست وبيتر تيلور ، وشاين ، وتوماس كوبر ، وهنري فنسنت الكارتيستي ، وكذلك و ج . فوكس (وكان خطيباً من أتباع مذهب المنفعة ،

ثم أصبح نائباً عن أولدهام فى البرلمان) . وقد اعتاد هؤلاء أن يجتمعوا كل أسبوع فى منزل مستر و . ج . لينتون فى هاتون جاردن ، وكان ماتزينى « بعينيه العجيبتين اللتين تشتعلان اشتعالا قويا فى معظم الأحيان » يؤثر فيهم بحماسته وإيمانه ، ولكن بعضهم وكان منهم توماس كوبر ، وبيتر تيلور ارتابوا فى إنجيله الثورى ؛ فقد أنكروا عليه علاجه السياسى القائم على القوة البدنية فى إنجلترا ، فأجابهم محتداً : « إنكم محقون فيما يتصل ببلادكم ؛ فقد سبق لكم صراع متواصل عظيم ضد قوة الطغيان فى بلادكم ، وانتهى هذا الصراع بانتصاركم ، فلستم إذن فى حاجة إلى قوة بدنية ، ولكن ماذا تصنع بلادى التى داسها الطغيان الأجنبى تحت عجلاته الحديدية ؟ إن مواطنى ليس لهم من يمثلهم ، ولم يحصلوا على مواثيق ، وليست لهم حقوق مكتوبة ، فيجب والحالة هذه أن يقاتلوا » .

وقد أتاحت له أعمال هذه العصبة إحدى الفرص النادرة أن يشرح فيها — فيما نعلم — آراءه فى المسألة الأيرلندية ، وكان ذلك حين احتج بعض المنتقضين على العصبة لأنها أغفلت أيرلندا فى تقريرها ، فلم تدرجها ضمن قوميات المستقبل ، وطلب هؤلاء المنتقضون أن يرد عليهم ماتزينى نفسه ؛ فوجه حججه إلى الانفصاليين وإن كان يمكن تطبيق هذه الحجج على الحكام الوطنيين كذلك ، ولكنه دل على أنه أساء فهم الحركة الأيرلندية بشكل مضحك ، وشعر بأن الأرض غير مستقرة تحت أقدامه ؛ فقد رأى أن الأيرلنديين لا يطلبون — فى قرارة نفوسهم — إلا حكومة صالحة ،

وقال : إنه يعطف كل العطف على « شعورهم الحق بالكرامة الإنسانية ومطالبتهم بحقوقهم التى اغتصبت منهم دهراً طويلا ورغبتهم فى أن يكون لهم حكام ومعلمون لا سادة ، واحتجاجهم على التشريع القائم على المظنة والعداوة » . ولكنه لم يؤمن بأن الحركة القومية الايرلندية يمكن أن تستمر ، كما أبى أن يرى فيها أى عنصر من عناصر القومية الحقيقية مستنداً إلى أن الأيرلنديين كما قال : « لا يدعون إلى أى مبدأ محدد فى الحياة أو إلى نظام تشريعى مأخوذ من خصوصياتهم الوطنية ويتعارض فى أساسه والحاجات والرغبات الإنجليزية ، كما أنهم لا ينادون بأية مهمة سامية تقوم بها بلادهم خاصة لصالح الإنسانية » .

ويلاحظ أن الاعتراض الأول يبين أن ماتزينى سقيم الإلمام بالحياة الأيرلندية والشعور الأيرلندى ، وأن الاعتراض الآخر يشمل شرطاً لم يطلب من أى شعب ، ولم يرد إلا فى نظريات ماتزينى فحسب .

ثم شغل كل المشغولية بعد ذلك الخمول الذى كان مفروضاً عليه فى بضع السنوات القليلة الماضية ، فازدحم وقته بالمراسلات السياسية والعمل الأدبى والمدرسة والسوق الإيطاليتين وزياراته للناس وزياراتهم له ، فلم يبرح لندن إلا ليزور فرنسا أو ليزور إيطاليا ، كما حج ذات مرة كنيسة نيوستيد والأماكن التى تحوى ذكريات لبيرون . وترك شيلسى ، وانتقل إلى دونفشير ستريت بقرب المتحف البريطانى ، ثم غادره إلى كروبلى ستريت ، وكان

إلى حد ما أسعد من ذى قبل وأكثر أملا ؛ إذ أن حياته الإيجابية لم تترك له إلا قليل وقت ينفقه فى تأملاته القديمة ، كما أن فضيحة الحكومة الإنجليزية الخاصة بمكتب البريد عرفته إلى أصدقاء جدد . فانتهت وحشته ووحدته ، وانضم إلى نادى هويتنجتون ليلعب الشطرنج ، وكان بارعاً فيه ، ولا يحب أن يغلب ، وأزعجه كثيراً اقتراح أحد الأعضاء بمنع لعب الشطرنج أيام الآحاد حتى هدد مداعباً من كان يحب التدخين بأن التدخين لن يباح إلا لمن يتعهد بالجلوس صامتاً غارقاً فى تأملات دينية مدة ساعة ! كما فرض على الأعضاء أن يكفروا عن أخطائهم بأن يقرءوا لمدة اثنتى عشرة دقيقة من كل ساعة خطبة برلمانية من خطب مستر بلبتون أو سير روبرت إنجلز ، أو فصلا من المجلد الثانى من كتاب تانكريد لدزرائيلى !

ولكنه كان فى الغالب يرتد إلى كآبته وتعسه عندما يعود إلى مسكنه . فقد دوختـه الكتابة ، وأتعبه العمل ، وآدته الحاجة إلى طعام وملبس لائقين ، وشعر لأول مرة بسوء حاله البدنية ، وكان لا يزال يئن تحت عبء الفاقة والدين .

صحيح أن والدته أخذت تساعده بإرسال مبلغ صغير إليه ، وفى سبيل ذلك حرمت نفسها كل الكماليات وسعة العيش ، بيد أنه كان كريماً كعهده ، وربما كان سيئ التدبير كذلك ، فعجز عن تخفيف هذا الجبل من الديون ، كما أن وسائل كسبه من الأدب أضحت مرة أخرى قليلة جداً ، فما انفكت قصة

حياة فوسكولو تنتظر أن يبدأ كتابتها ، ولكنه لم يفعل لأنه اعتقد « أن من الأفضل أن يمد التاريخ الإيطالى بمواد جديدة بدل أن يجدد القديم منه » . ولم تعد المجلات التى تدفع أجرا طيبا تقبل مقالاته فكان « يكتب مقالات عن سويسرا لمجلة أدنبرة بمقابل لا يعلم مقداره إلا الله » .

وأغاظته الحاجة إلى العمل الهزيل ومشاغله المتنوعة ؛ إذ لم يتركا له إلا نزراً يسيراً من الوقت ليدبج كتاباته التى كان يعتقد أنها ستساعد على بلوغ هدفه ، كما ساعدت على ذلك مدى خمسة عشر عاماً مضت ، فكتب يقول : « أنا عبد من أجل بضعة وثمانية آلاف فرنك . من أجل هذا المبلغ التعس هرم جسدى وروحى وقوتى ، فلا أقدر على أن أساعد بلادى وأتم رسالتى » .

وحدث انحطاط محسوس — ولكنه طفيف — فى تلك الحرارة المعنوية التى امتاز بها منذ بضع سنوات خلت ، وربما كان هذا الانحطاط راجعاً إلى أسباب لا نستطيع الجزم بها فقد تكون هى القلق أو ذيوع الشهرة أو زوال التعس هوناً ما أو فقدان صحته البدنية ، وكان من نتيجة هذا الانحطاط أن نقصت فيه صفات الرسول ، ونمت صفات السياسى ، فأغرم بأن يكون رجلا عمليا ، غير أنه لم يؤد هذا الدور أداء سليما ، فلم يكن صريحاً فى عباراته ووسائله على الدوام وإن كان فى الحقيقة أكثر تعقلا وتسامحاً من ذى قبل ، ولكنه يلوذ فى الوقت نفسه بالصمت والغموض المفاجئ .

ونقص أصدقاء إيطاليا الفتاة من جراء حادث بانديريا ، فقد ألقيت تبعة

هذه الخطة التعسة وسوء تدبيرها على كاهل ماتزينى ، ولم يكن ذلك من العدالة فى شىء بوجه عام ، واتهمه المرجفون القساة بأنه يلقى بغيره إلى التهلكة على حين يسلم هو بنفسه ، وعلى حين أنه كان يتلهف فى الواقع — كما لم يتلهف من قبل — على أن يقود حرباً فى سبيل إيطاليا « قبل أن يدركه الكبر » وإن اعترف باستحالة القيام بأى عمل مثمر ؛ لأن كل الجهود التى بذلها فى سبيل جمع رصيد مالى قومى لم تجلب له إلا مائة جنيه فقط ، ولأنه أدرك أن قبضته على الطبقات المتوسطة أخذت تضعف ، وأن عليه أن يتريث حتى ينشىء حزباً من عمال المدن .

وبرهنت ثورة ريمينى سنة ١٨٤٥ بما وضعته من برنامج هزيل فى الإصلاح المحلى وبإغفالها الأغراض الأخرى الكبيرة على أن الحركة المعتدلة فى أضعف أشكالها وأسوئها قد أثرت فى إيطاليا حتى فى تلك الأماكن التى كان يعلق ماتزينى عليها آمالا كبارا ، ثم أحرز المعتدلون بعد عام من ذلك التاريخ شهرة شاملة حين تولى بيونونو عرش البابوية ؛ فقد أولع الإيطاليون بأن يظنوا أن البابا مشوق إلى مباركة الأحرار والوطنيين ، وأن شارل ألبرت يجرد سيفه للحرب . واستمسكت جمهرة الوطنيين الأحرار بحماية هذين الرجلين ، وكانت على استعداد لدفع الثمن ، ورجا بعضهم أن يدفعوا بالملك ليكون « سيد إيطاليا » من الناحية الأدبية إن لم يكن فى الواقع ، كما تخيل غيرهم أن الظروف سوف تجعل من البابابيوس رئيساً لجمهورية إيطالية ، ولكن الغالبية قبلت عن طيب خاطر السياسة المحدودة ، واستعدت لحماية

السلطة الزمنية ولجعل الاتحاد الإيطالى مجرد اتحاد فيدرالى مفكك والوقوف عند حد الإصلاح الإدارى أو على الأكثر حد وضع دساتير للطبقة المتوسطة.

وقد شك ماتزينى فى هذا التطور الجديد ، كما غار من انتقال الحركة الوطنية إلى أيد أخرى ، ومن وضع ثقتها فى رجال مثل جيوبرتى الذى سبق له أن تردد فيما آمن به ماتزينى وأصحابه على حين رفع ماتزينى وحده راية الإيمان عالية . كما ارتاب فى نوايا شارل ألبرت والبابا ، وغضب على المعتدلين ؛ لأنهم شرعوا يتجهون إلى مطامح وسط ، ولأنهم نبذوا الديمقراطية ، ووثقوا بالدبلوماسية ومزاعمها وخدعها ؛ فقد كان يعلم أن شارل ألبرت فيه « طبيعة الأرانب » كما حكم على البابا بيونونو حكما قاسيا ، فلما قال البابا : « إنهم يريدون أن يجعلوا منى نابليون فى حين أننى لست إلا قسيساً ريفيا فقيراً » — رد ماتزينى قائلا : « إن البابا بيو قسيس أمين ، ولكنه أمير سيء » .

وبالرغم من أن انتصار المعتدلين كان يعنى أن الوحدة ستهمل ، وأن الاتحاد الفيدرالى سيصيب إيطاليا بوهن دائم — رأى ماتزينى استحالة الوقوف ضد الروح الجديدة ، فاستعد مثلما فعل سنة ١٨٣٣ ، وسنة ١٨٣٤ للتخلى عن إثارته لهائجة الجمهورية لو أن المعتدلين هجروا فكرة الاتحاد ، وأعلنوا الوحدة فقال : « لو آمنت بأن شارل ألبرت سيتطلع إلى مطمح عزيز فيوحد إيطاليا ولو من أجل فائدته الشخصية لقلت له : آمين » كما كتب يقول : « دع المعتدلين يأتوا لنا إذا أحبوا بالبابا أو بملك مفرد أو بدكتاتور ، دعهم فإننا نستطيع أن نتفق معهم على كل شيء إلا على الاتحاد الفيدرالى » .

وبهذه الاتجاهات كان ماتزينى يعمل خلال سنة ١٨٤٧ لجمع المنفيين فى باريس على برنامج عام للوحدة يضم الملكيين والجمهوريين على السواء.

وبهذه الروح كتب فى سبتمبر من السنة نفسها خطابه المشهور إلى البابا، ثم تاقت نفسه لأن يشرح مضمون هذا الخطاب مثلما صنع تماماً فى الخطاب الشبيه به الذى أرسله إلى شارل ألبرت فيما مضى والذى مر ذكره ، فحاول أن يشرح ما جاء فيه من إيمان بوطنية البابا ومن رغبته فى أن يراه قائداً للحركة الإيطالية ، ولكن خطاباته الخاصة فى ذلك الحين أظهرت أن هذا الشرح إنما هو رأى طرأ على ماتزينى ، وأنه فى الواقع كان أصدق مما ظن فى نفسه؛ ففى أحد هذه الخطابات — وقد كتبه قبيل إرساله خطابه إلى البابا — قال على وتيرة كارليل وأسلوبه : « أنا أعتبر أن السلطة البابوية تعانى سكرة الموت ، وأشعر بأننى لن آسف على نظام البابوية الضخم لو قضى عليه قضاء مبرماً وبطريقة نبيلة بعد أن يغير شعار المستقبل ؛ فإن ذلك أفضل من أن نغوص فى أوحال الأرستقراطية الإنجليزية فى قصورها أو فى أوحال الملكية الفرنسية فى قصر التويلرى ؛ فإن السلطة الأدبية ينبغى أن تموت هكذا كما يموت الرجل العظيم ، وهى تتمتم بكلمات جوته حينما وافته المنية : « دعوا مزيداً من النور يدخل » ، كما كتب فى خطاب آخر يقول لأحد أصدقائه : « لقد كتبت إلى البابا فى لحظة من الفسحة والتوهم الصبيانى مثلما أكتب إليك ان » .لآ

وتأثر ماتزينى وتحمس للتمثيلية الأوروبية العظيمة التى كانت تقع على

أعينه والتى أخذت تتطور بسرعة حتى مرت به لحظات استطاع فيها إيمانه القديم بالرجال أن ينفذ من خلال شكه وتضييقه السابقين ، ولما كان يتطلع دائماً إلى دين جديد يصدر عن رومة فقد أخذ يحلم فى ذلك الوقت ببابا وطنى يبشر بهذا الدين ، ولكن مهما يكن من أمر هذه الدعوة فقد كانت مضحكة لعدم تقديرها للحقائق ؛ فقال فى خطابه للبابا بيوس : « كن مؤمناً ووحد إيطاليا » كما قال عنه : إنه رجل الساعة الأول فى أوروبا وعليه واجبات تتناسب هى وأهمية شخصه ، وأنه يستطيع أن يقود إيطاليا لمستقبلها المقدور ، ويجعل منها دولة عظيمة قائمة على الشعب والعدالة والدين ، تحكمها حكومة واحدة فى أوروبا ، حكومة تقضى على سخافة الفصل ما بين السلطتين الروحية والزمنية ، فإذا كانت الكاثوليكية قادرة على النهوض فليكن البابا أداة هذا النهوض تحت راية الله ، وإذا قدر على الكاثوليكية أن تخلى مكانها لعقيدة جديدة مؤسسة على المبادىء المسيحية نفسها فليكن البابا هو القائد الذى يقود الكنيسة فى أمان خلال هذا الطريق . وللمرء أن يتخيل الفزع الذى أصاب بيوس وهو يقرأ الدور الذى اقترحه ماتزينى فى خطابه فى غير ما لياقة ، وكانت النتيجة الوحيدة لهذا الخطاب — كما نعلم — هو تحذير البابا من ماتزينى تحذيراً تاما .

غير أن إيمان ماتزينى بالبابا والملك كان فى الواقع عرضاً زائلا ؛ فمنذ خمسة أشهر مضت كتب خطاباً مفتوحاً يقول فيه : « أنا لا أومن بأن إيطاليا ستجد الآن أو إلى الأبد خلاصها عن طريق الأمير أو الملك أو البابا »

لقد كان عقله مائعاً يتموج ما بين عقيدته القديمة « البسيطة » وإن كانت غير مألوفة فى الوقت الحالى وبين الموافقة على الحالة الجديدة . إننا نخطىء فى فهمه لو اتهمناه بعدم الإخلاص الواضح ولو أن سلوكه كان فى تلك الفترة سلوك المراوغ الذى يخضع كل الخضوع لمقاصده غير الصريحة ، بل كان أقرب إلى « أن يستبدل مكيافلى بدانتى » ذلك الاستبدال الذى اتهم هو به المعتدلين فى غير ما رحمة . فبينما كان يبدى استعداده للعمل إلى جانب الوطنيين الملكيين وهجره للإثارة الجمهورية الإيجابية كلها كان يشجع العقائد الجمهورية ، بل يتوق لإبقاء شىء من التنظيم الجمهورى حتى إذا « ما انتهت رواية المعتدلين المضحكة التى تمثل على خشبة المسرح » أصبح الجمهوريون مرة أخرى فى وضع يسيطرون به على الاتجاه الوطنى ويقودونه نحو هدفهم .

وأراد أن ينشر أدب إيطاليا الفتاة ويذيعه لحرض أتباعه على الانضمام ولو اسميا إلى صفوف المعتدلين والهتاف باسم بيونونو هتافاً يعلو على كل هتاف ، وحثهم على أن يستعدوا فى هدوء للاستيلاء على الحركة لأنفسهم وأن يبخسوا فى الوقت نفسه قدر البابا خارج إيطاليا بالقوة التى يهتفون له بها فى الداخل ؛ حتى إذا زال وهم الناس فى البابا ذلك الزوال المحتوم استطاعوا هم أن يدعوا أنهم أبصروا العواقب قبل غيرهم .

واذا غضضنا النظر عن هذه الدبلوماسية الاحتيالية وجدنا أن تردده كان له ما يبرره الى حد بعيد ، فلم يكن يطمئن الى أن المعتدلين سيقبلون

الحل الوسط الذى عرضه عليهم ، أو يعلنون الوحدة ، كما خشى أن تبخر حماسة الجماهير فى المظاهرات الصاخبة وأن يكون الإصلاح مجرد مخدر يُنيم الدوافع الوطنية مرة أخرى ، وكان أهم مايشغله قبيل نهاية سنة ١٨٤٧ هو أن يثير النمسا باتخاذ موقف الهجوم ، وأن يدفع بالإيطاليين إلى الحرب فى سبيل الاستقلال مثلما صنع كافور لأسباب أخرى بعد مضى اثنى عشر عاماً من ذلك التاريخ . وكان ماتزينى واثقاً من أن النمسا ستتدخل ، كما كان يرجو أحياناً أن يجبر الضغط الشعبى شارل ألبرت على أن يتزعم الدفاع الوطنى ، كما رحب أحيانا أخرى بالفكرة القائلة بأن الحكومات الوطنية المعتدلة ستكفكف من هذا التحدى للنمسا ، وبذا يترك المجال لإيطاليا الفتاة لتقود الحرب .

ولكن ماتزينى قد أخطأه التوفيق لأول مرة حين بخس قوة الشعور الوطنى ، فقد استهلت السنة الجديدة بقيام ثورات متتابعة تتابع التمثيليات ، فشاهد يومها الأول الشغب الذى قام به المشتغلون بصناعة التبغ فى ميلانو ، والذى كان فاتحة لنهضة بالغة فى لومبارديا . وبعد ذلك بيومين أطلت الثورة برأسها فى ليجهورن ، وأصبح جيراتزى معاون ماتزينى القديم سيداً للمدينة الثائرة بضعة أيام . وفى الخمسة عشر يوماً التالية بذلت صقلية مجهوداً كبيراً فألقت نير البوربون عن كاهلها دفعة واحدة ، وقبل أن ينتهى الشهر أملى أهل نابولى دستوراً على الملك فرديناند ، وفى النصف الأول من فبراير أخذت توسكانيا وبيدمونت دستوريهما ، وبعد بضعة أيام قلائل أعلنت

الجمهورية الثانية فى فرنسا ، وتغير وجه السياسات الأوروبية ، كما أن بيونونو ساير مبدأ الحرية عاجزاً خائفاً ، فأعطى الرومانيين دستوراً.

وهكذا اكتسبت إيطاليا كلها حريتها ما عدا الأقاليم النمسوية والدوقات غير المستقلين وأصبحت الحرب مع النمسا مسألة أسابيع ليس إلا . وانتظر الشعب مبهور الأنفاس إشارة البدء من ميلانو أو تورينو ، وما زال شارل ألبرت « الملك المتأرجح » يسير فى تيار الحرب متعطشا إلى التهليل الوطنى والانتقام من النمسا ، غير أنه تخوف القوى الديمقراطية التى تدفعه من خلفه ، وفزع من فرنسا الجمهورية فزعه من النمسا العدو الحقيقى الرابض فى الجانب الآخر من تيسينو . وبينما كان يتريث جاءت النهضة الكبرى فإن أبناء الثورة فى ڤيينا أعطت الشمال الإشارة ، فطرد أهل ميلانو الشجعان الحامية النمساوية الكبيرة ، ففرت بعد أن قاتلوها قتالا خالد الذكر . ثم إن البندقية وبيرجامو وبرسكيا وكومو وكل مدينة تقريباً فى لومبارديا وأراضى البندقية قاتلت من أجل حريتها فانتصرت ، وتحطمت القوة النمساوية فى خلال أسبوع ولم يبق قدم واحدة من الأرض الإيطالية تحتله النمسا ماعدا فيرارا والحصون المربعة ، وتلك أيضاً قاربت الضياع ، وأسرعت قوات الشعب من جميع أرجاء إيطاليا لإتمام هذا العمل ، وأعلنت بيدمونت وتوسكانيا الحرب ، واضطر البابا وملك نابولى إلى إرسال فرقهما العسكرية إلى جبهة القتال ، وتدفق المتطوعون من المدن والقرى ومن السهول والجبال ، واكتسح فيضان الوطنية العارم الأمراء ورجال السياسة ورجال الدين والنبلاء

والطلبة والصناع ولو أن بعضهم كان يستخف بالحركة ، وبعضهم يقصد إلى الخيانة ، ولكن جمهرة الشعب كانت فى حماسة الصليبيين طوال اليوم تهب راحتها ومنازلها وحياتها عن طيب خاطر ، كالو كانت رؤيا ماتزينى قد تحققت، وتغيرت إيطاليا بدعوة مقدسة فنهضت بقوة لا تغلب .

وكان ماتزينى حينئذ فى باريس ، وقد ذهب إليها بعد الثورة مباشرة ، وأنشأ اتحاداً وطنيا لينفذ سياسته فى جمع المنفيين الملكيين والجمهوريين على كلمة سواء بينهم من الاستقلال والوحدة ، فأسرع إلى إيطاليا عندما سمع البشائر فعبر قمة سان جوثار ، واجتاز بعض المخاطر ، وكتب إلى إنجلترا يقول : « لقد كان المنظر رفيعاً فيه لمحة من الله العلى ، ولا يعرف أحد ما الشعر إذا لم يذهب إلى هناك ، فيجد نفسه فى أعلى مكان فى الطريق على النجد تحيط به هامات جبال الألب فى ذلك السكون الأبدى الذى يتحدث عن الله ؛ فالإلحاد لا يمكن أن يوجد فى جبال الألب » .

وعندما ترك منطقة الثلوج توقف ليلتقط أول زهرة رآها من أزهار البانسيه ليرسلها إلى صديق إنجليزى ، ووصل إلى ميلانو فى السابع من إبريل إذ لم يستطع الذهاب إلى بيدمونت أو جنوة لأن حكم الإعدام الصادر ضده سنة ١٨٣٣ لا يزال مصلتاً على رأسه ، وفضلا على ذلك كانت ميلانو مركزاً لكل الحوادث التى تجرى فى ذلك الحين ، ولكن منظر الأيام الخمسة التى قضاها قبل الوصول إلى ميلانو لم يشعره بالتعظيم الذى كان يتوقعه فكتب يقول : « لقد هرمت بالنسبة لإيطاليا ، ويبدو أنه كثير على أن أحمل أغلال

المنفى معى ، غير أنه صاح فى حماسة الطفل عندما رأى ألفى إيطالى — كانوا قد فروا من الخدمة فى فرقة عسكرية نمسوية — وهم يسيرون بين زحام الهاتفين ؛ فقد سرء قلبه هذا الاستقبال الذى رآه ، كما عرفه من صُوره رجال الجمارك على الحدود ، ورددوا عباراته عليه .

وعند أبواب ميلانو قابله المستقبلون وأخذوه فى موكب النصر إلى الفندق . وكان مركزه قويا فى الواقع إذ لاح لمواطنيه كالنبى الذى نبذه الناس ورجموه بالحجارة ، لأنه كان يدعو وسط الضلالة بالدعوة التى أصبحت الآن مألوفة على كل لسان ؛ فإيمانه الذى كان بالأمس خيالا مستحيلا فى نظر غيره أصبح اليوم حقائق قوية ؛ إذ بدت الديمقراطية على وشك الانتصار فى كل مكان فى البلاد ، بل إن الجمهوريين وأصحاب الوحدة أظهروا قوة غير متوقعة منهم ، أما هو الذى دعا دعوته وعانى الآلام فى سبيلها سنين طوالا على حين ارتدالآخرون أوارتابوا — فكانله المقامالمحمود عندمواطنيه ، وربما كانت كلمته آن ذاك قانوناً فى ميلانو .

وبقى محلا للنظر : هل يملك ماتزينى موهبة الحياة السياسية الواقعية ؟ وهل يستطيع أن يزيل المساوى المتراكمة ، ويرى بجلاء الغاية الضرورية الرفيعة ، وينبذ من أجلها كل الأشياء الثانوية الأخرى ؟ لقد اتخذ وضعاً حكيما ؛ إذ قرر وجوب قيام هدنة فى الصراع الحزبى — فيما عدا مبدأ التسليم بالوحدة — طالما كانت الحرب مستعرة الأوار ، كما قرر أن الملكية

أو الجمهورية ينبغي أن تنتظر قرار الشعب الموحد المتحرر ، أما الآن فيجب أن نوجه كل قوة البلاد للحرب .

وجاءت أعمال ماتزيني الأولى مصداقاً لهذا البرنامج : فقد ساعد الحكومة وفل من عزيمة الجمهوريين المتطرفين ، بل ربما مال أول الأمر إلى الاعتقاد بأن شارل ألبرت هو أصلح أداة لتحرير إيطاليا ؛ فقد أشار هو نفسه إلى ذلك فيما بعد .

وبالرغم من أنه لم يلبث أن تخلى عن أمله فى الملك ظل يكرر حتى النهاية أن الإثارة الجمهورية يجب أن توقف فى أثناء الحرب . ولما كانت الحرب شغله الشاغل حاول جهده أن يشجع المتطوعين ، وهم السبيل الذى كان مفتوحاً أمامه ، فبالغ فى قوتهم العسكرية مثلما كان يبالغ دائماً فى إمكانيات حرب العصابات فى إيطاليا . وكانت نصيحته التى نصح بها وهى أن يلقى بكل رجل ممكن لهم على مواصلات العدو فى إقليم البندقية — كانت هذه النصيحة من حيث الإستراتيجية والوطنية — أفضل من مسلك الجيش النظامى والسياسيين الحاسدين الذين بخسوا قيمة المتطوعين حذر أن يتجهوا نحو الجمهورية . ولما لم يكن للإيطاليين قائد عبقرى واحد فى القتال فقد ارتكب المعتدلون حماقة حين رفضوا خدمات رجال مثل غاريبالدى وفانتى (الذى أصبح بعد اثنى عشر عاماً أول قواد إيطاليا) .

بيد أن ماتزيني وإن كان مخلصاً فى مساعدته للحرب لم يكن كذلك فى

القرارات التى أصدرها فى سياسته الحيادية ؛ فقد رفض أن يبسط مسألة الوحدة على بساط المناقشة ؛ وبذلك جرد هذه السياسة من الجدية ، بل كان اتجاهه الصورى نحو الملكية مسألة ضرورة لا مبدأ إلى حد ما . ويبدو أنه ذهب إلى ميلانو دون أن يتخذ أى سياسة محكمة ، وعندما وصل إلى هناك كتب يقول : إنه مهتم بتنظيم الجمهوريين عسى أن ينجحوا إذا ما فشل شارل ألبرت فى إحراز نصر سريع لامع .

ولكن سرعان ما تحقق لديه أن الإثارة الجمهورية إذا لم تعن الحرب الأهلية فإنها ستعنى على أية حال فتنة عارمة بين الإيطاليين وهم يواجهون العدو ، فتنة شائنة لفاعلها ليس فيها شىء من المبادىء الحيوية أو الشرف .

ولما كان الجمهوريون فى ميلانو أقلية وإن كانوا أقوياء كما كانوا حفنة فى سائر لمبارديا على حين ظلت بيدمونت وجيشها ثابتين على ولائهما للملك — التزم ماتزينى طائعا أو مكرها وعده الذى وعد بأن يمتنع عن الإثارة الجمهورية ، ولكن سياسة الحياد ثقلت عليه ، فنقض روح العهد الذى أخذه على نفسه ، فقام بأعمال صارخة الدلالة على الإيمان الجمهورى ، وتقدم بمقترحات لا تتفق أبداً مع الهدف الذى تعهد به ، وكانت سياسة الحكومة الرسمية مبرراً له إلى حد ما فى تغيير اتجاهه ؛ فقد قبل كل شخص فى بداية الحرب أن تعلن هدنة فى السياسة إلى أن تضع هذه الحرب أوزارها ، ولكن الحرب تثاقلت ، فأصبح الوضع لا يكاد يطاق ؛ إذ عجزت حكومة لمبارديا عجزاً

تاماً وود كل فرد لو رآها تسقط ، وخشى المحافظون فى ميلانو وتورينو أن يتركوا ثغرة تنفذ منها جمهورية لمباردية بعد الحرب ، ووعد كثير من الديمقراطيين أن يقوموا بضم الصفوف حتى يكون ذلك خطوة نحو الاتحاد ، فاشتدت إثارة الناس من أجل الاندماج مع بيدمونت مما جعل الحكومة تقرر إجراء استفتاء عام حول قيام هذا الاندماج فوراً . وما من شك أنه حدث عند التصويت كثير من الإرهاب من جانب دعاة الاندماج ، غير أن الغالبية الساحقة التى أعطتهم أصواتها دلت فى الواقع على أن الرغبة فى قيام مملكة إيطالية شمالية كانت سائدة على سياسة ذلك الحين .

ومع أن القوى التى قررت الاندماج كانت بحيث لا يمكن مقاومتها صمم ماتزينى تصميما قاطعاً على أن يصمها بأنها نقضت العهد ، وحاول دعاة الاندماج أن يكسبوه إلى جانبهم ، وبعث إليه الملك برسالة يقول فيها : إنه إذا استخدم نفوذه على الجمهوريين لصالح الاندماج فسيسمح له بمقابلته شخصيا ، ويمنحه ما يشاء من سلطة فى وضع الدستور عل الاتجاهات الديمقراطية ، ولكن ماتزينى لم يقبل هذا العرض الوطنى الكريم إلا بشرط أن ينادى الملك بالوحدة علناً ، ويكتب ميثاقاً ضافياً بأن يكون « الملك الكاهن للعصر الجديد » .

وبطبيعة الحال لم يرد الملك على هذا الشرط ، واندفع ماتزينى فى الجدال يقول : إن الآخرين الفاسدى الإيمان أرادوا أن يصنعوا شيئاً من قبيل

الاعتذار فى حين أنهم لا يزالون يخالفون روح تعهدهم ؛ وقال : إن إيطاليا لن تتحد حتى يخفق علم الجمهورية على رومة ، كما دعا فرنسا إلى وجوب الأخذ صراحة بسياسة « جمهورية ثورية النزعة » ، وقال أيضاً : « إن الملكية أكذوبة موروثة » ، وإن الجمهورية هى الحكومة الوحيدة التى تضع زمام السلطان فى يد أصلح المواطنين ؛ وأخذ يوجه قوارص الكلم حيناً بعد حين إلى معارضيه مما زاد فى مرارة التحزب ، بل كلما حاول أن يتسامح أفلت زمام القلم منه ، فهاجم نبلاء تورينو ناسياً أنهم وأبناءهم خاضوا غمار الحرب ، ووهبوا حياتهم من أجل الغرض الذى يحبه .

وما من شك أنه أثير فهاجمهم ، وما من شك أيضاً فى أن المعتدلين الأصلاء كانوا أقل منه تسامحاً ، ولكنه على أية حال لعب دوراً تحزبياً غير كريم ، وارتكب فى الواقع خطأ فاحشا لبقائه فى ميلانو ؛ فإن بقاءه هناك لم يساعد فى الحرب إلا قليلا فى حين كان عوناً للحزبية التى يقع على عاتقها كثير من المسئولية عن سوء طالع الجيش سواء أشاء ماتزينى أم لم يشأ ، فكان ينبغى له والحال هذه أن يتخذ مقره فى رومة ، فقد هزم الإيطاليون فى واقع الأمر لضعف قيادة شارل ألبرت وسياسته ، وبسبب عجز البابا وملك نابولى .

وإذا كان ماتزينى لم يستطع أن يجعل من الملك قائدا مقتدرا فإنه كان يستطيع أن يؤثر على سياسته . غير أن شارل ألبرت الهيابة الجبان المتمسك

بالعرف قويت قبضته على الشعب فعلا ، وكان على استعداد ليقويها مرة أخرى وكذلك صنع ابنه فيكتور عمانويل بعد بضع سنوات .

وعلى ذلك كان حكم ماتزينى على الملك حكما صادقا لم يظلمه فتيلا ، بيد أن اتجاه ماتزينى نحوه كان مجرداً من كل شعور : فالهجمات العنيفة على الملكية والدعوات الشاجية إلى قيام « الملك الكاهن » والمقترحات التى تقول بأن الشعب الموحد ينبغى أن يعلن الجمهورية من الكابيتول — كل ذلك — لم يكن إلا نذيراً للملك . ولو كان الضغط الشعبى كافياً وموجهاً توجيهاً سليما لاتخذ شارل ألبرت طريقه إلى تاج إيطاليا خائفاً ومسروراً معا ، فقد كان إيمانه بالوطنية عميقاً ، وكان حبه للتهليل الشعبى كبيراً ، وكانت رومانا تنتظر إشارة منه لتأتى إليه طائعة ، كما كان وكلاء بيدمونت يعملون فى توسكانيا ، وقد وافق — فيما نعتقد — على مهمتهم ، كما تردد كثيراً قبل أن يرفض باسم ابنه التاج الذى وضعته صقلية تحت أقدامه . فلو أن ماتزينى ذهب حينئذ إلى رومة لاستطاع أن يمنح الراديكاليين ودعاة الوحدة هناك باعثاً عظيما ، ولكان من المؤكد فى الغالب أن يعلن الاتحاد الرومانى ، ولسهل عليه أن يخلق قوة من الرأى العام فى إيطاليا الوسطى بأسرها ، قوة تقهر دعاة الحكم الذاتى ، وتتغلب على تردد الملك ، وتضع كل الولايات البابوية وتوسكانيا تحت سيادته المطلقة ، بل إن الثورة المضادة وإن انتصرت فى نابولى كانت العناصر الوطنية أقوى منها فى الجنوب ، فلو نظمها ماتزينى من رومة ، وسار غاريبالدى جنوبا باسم الوحدة وباسم شارل ألبرت لكان العمل الذى تم فى سنة ١٨٦٠ قد تم

قبل ذلك باثنى عشر عاما ، وحتى لو فشلت الغاية القصوى التى استهدفها ماتزينى وهى الوحدة — لاستطاع أن يجبر البابا على أن يتبع سياسة وطنية ، أو ينزل عن عرشه الزمنى ؛ ولاستطاع أيضاً أن يلقى كل جهود الحكومة الرومانية فى الحرب ، ويضع تحت تصرف شارل ألبرت عشرة آلاف أو عشرين ألفاً من الرجال زيادة على من معه ، فيحرز بهم النصر .

الفصل السابع

الجمهورية الرومانية

١٨٤٨ — ١٨٤٩ — من الثالثة والأربعين إلى الرابعة والأربعين

تدهور الحرب — حرب الشعب — فى فلورنسا — رسالة رومة — الجمهورية الرومانية — الحكومة الثلاثية — الاتجاه نحو الكنيسة — الهجوم الفرنسى .

لو أن ماتزينى ذهب إلى رومة وصنع ما قلناه فيما سبق لتجنب المصيبة التى نزلت بآمال الشعب كارثة ماحقة ؛ فإن الشجاعة لم ترأب صدع القيادة السيئة والنقصان المتواصل فى عدد المقاتلين وإن انتصر الإيطاليون فى معركة إثر معركة .

وهكذا وقع التدهور فى نهاية يوليو ، وكان الجيش الإيطالى يراوغ فى القتال ، ولكن المجاعة وسوء الحركات العسكرية جعلته يتقهقر إلى ميلانو . وكان ماتزينى قد تكهن بهذه الكارثة تكهناً صادقا ، فحث الإيطاليين منذ بضعة أسابيع على أن يختاروا لجنة صغيرة للدفاع فأبوا ، فلما تهددتهم المصيبة

سمحوا له بان يختار هذه اللجنة ، فاختار فانى واثنين آخرين ، فبذلوا أقصى الجهد فى وقت قصير لينظموا الدفاع عن المدينة ؛ ونهض أهل ميلانو مرة أخرى بروح يشبه روحهم فى « الأيام الخمسة » ، غير أن الفرصة فى تحويل لجة النصر قد أفلتت ، فرد الجيش إلى داخل أبواب المدينة بعد أن قاتل قتال بسالة خارج أسوارها .

وكان ملك ميلانو التعس راغباً فى مواصلة القتال لولا أنه أدرك أن لا أمل فى النصر ، فطال تردده ، ثم سلم المدينة ، فجن الشعب من نكوله ، وهاجم قصره ، فلم ينج بحياته إلا بصعوبة ، وانسحب هو وجيشه خاسئين يتبعهم آلاف من المواطنين الذين لا يطيقون حكم النمسا .

وعندما وصل الجيش النمسوى إلى ميلانو غادرها ماتزينى مدججاً ببندقية كانت قد أعطتها إياه مسز إشيرست حين بارح إنجلترا ، ولما كان يعتقد أن النهضة الشعبية ربما أنقذت المدينة حيث لا يستطيع الجيش أن ينقذها سار لينضم إلى غاريبالدى ، وكان غاريبالدى يقود المتطوعين فى بيرجامو ، وكانت عدتهم ثلاثة آلاف رجل يرتدون ارتدادا صعبا فى جو مرعب وتحت تهديد مستمر من الخيالة النمساويين ، فقابل ماتزينى جماعة من هؤلاء المتطوعين فى مونزا يحملون علماً مكتوباً عليه شعار « الله والشعب » فاختاروه ليحمل هذا العلم ، فاحتمل وتصبر بالرغم من ضعفه وإجهاده ، فنال إعجابهم . وما من شك فى أنه سعد بهذا العمل « البسيط » الذى لا يتطلب إلا احتمالا بدنيا بعد أن عانى من السياسات المختلطة فى أربعة الأشهر الأخيرة .

ثم تفرق المتطوعون بعدما عبروا الحدود ؛ فقد ظهر لهم أن الغرض الوطنى ميئوس منه ؛ إذ ارتد الجيش إلى بيدمونت ، وأعلن الملك الهدنة العسكرية ،كما تبددت القوات الرومانية والتوسكانية أو كادت ، وأصبحت نابولى تحت رحمة الملك فرديناند . وانتصر النمسويون انتصاراً سريعاً حاسما وإن لم يجرءوا على عبور تيسينو لخوفهم من التدخل الفرنسى ، ولأنهم لم يكونوا أقوياء بالقدر الذى يسمح لهم بالتقدم إلى إيطاليا الوسطى ، كما أن البندقية تحدتهم ببحيراتها ، ولو أن لمبارديا والأراضى البندقية الأصلية فقدت أملها الماضى فيما يظهر .

وأبى ماتزينى أن يقر بالهزيمة وأخذ يشيد آماله على الأوهام الحزبية بدل الإمكانيات الهادئة ، فرأى أن الحرب الملكية انتهت ، وأن الإيطاليين خانهم أمراؤهم ؛ فيجب أن تبدأ حرب الشعب وأن ينهض الإيطاليون بقوتهم هم ، ويسحقوا النمسويين بكثرة عددهم وحماستهم . فأخذ يعمل فى ليجانو كأن به مسا من الحمى ليخلق تنظيما وطنيا يستهدف هذه الغاية ويعد نهضة شعبية فى لمبارديا ، كما أخذ مرة أخرى يتأرجح مابين رفع علم الجمهورية وعدم رفعه ، وظن أن العناية الإلهية إنما توجه الإيطاليين بما وقع من الكوارث إلى الجمهورية ، ولكنه اعترف باليأس من قيام ثورة فى الأقاليم النمسوية بغير مساعدة من الجيش البيدمونتى ؛ وذلك بعد أن منيت بالخيبة ثورة مجنونة قامت قرب كومو

وهكذا نسج ماتزينى على منوال المفكرين الهادئين ، فرأى أن الجيش

البيدمونتى لا مندوحة عنه . وعلى حين كان يحث الرومانيين على إعلان الجمهورية فى رومة كان يريد إرجاء المسألة السياسية فيما عداها من الأماكن والعمل مع أى شخص يرغب فى إرجاء هذه المسألة إلى قرار يصدر من جمعية تأسيسية تتكون بعد الحرب ، وإلقاء كل القوى فى حرب جديدة .

وأقر ماتزينى أخيراً بأن أفضل ميدان يعمل فيه هو إيطاليا الوسطى ، وقد دفعته إليها دوافع عدة ، وهى أنه يستطيع أن يستعمل نفوذه فى فلورنسا ورومة لينجز الاستعدادات الحربية ، وربما يستطيع أن يحقق اتحاد الولايتين ، فيكون هذا الاتحاد خطوة نحو الوحدة ، وقد تساعده الظروف على إنشاء العلم الجمهورى ؛ فالديمقراطية انتصرت فى توسكانيا ورومة كلتيهما ؛ فقد فر البابا إلى حصن فرديناند فى جايتا ، ولما وجد الرومانيون أنه يأبى كل مفاتحة فى الصلح وأنهم تركوا بغير حكومة مستقرة انقلبوا إلى الجمهورية انقلاباً لا يقاوم ، كما كان الغراندوق فى فلورنسا تحت رحمة الديمقراطيين ، وليس أمامه إلا أن يسلم بدون قيد أو شرط أو يفر .

ولذلك بارح ماتزينى ليجانو ، وأبحر من مارسيليا ، فوصل إلى ليجهورن فى الثامن من فبراير فى الوقت الذى جاءت فيه الأنباء بأن الغراندوق فر من فلورنسا ، فاستخدم ماتزينى نفوذه ليمنع غزو الدوقيات ، كما ثنى أهل ليفورن عن عزمهم فى الانفصال ، وبعد أسبوع وصل إلى فلورنسا ، وهناك رأى جيديتا سيدولى ، وقابل فى منزلها جينو كابونى كما زار جيوستى ، ولكن لم يكن لديه سعة من وقت ليمكث مع جماعة أصحابه .

وكان جيراتزى هو الديكتاتور الحقيق فى توسكانيا فى ذلك الحين ، وكان عمليا أكثر من ماتزينى فى بعض الأمور الثانوية ، فحاول أن يشق طريقاً وسطاً ، ويتنحى عن الجمهورية ، غير أنه لم يكن فى إخلاص ماتزينى الملهم ولا فى ولائه المجرد للفكرة ، فتبادلا كلمات قاسية . ولما كان ماتزينى قد ظاهره موكب جمهورى ضخم جاء من أوركانجالوجيا ؛ أجبر جيراتزى على برنامجه فقبله قبولا ظاهريا لا إخلاص فيه . وبعد أن بذل ماتزينى فى فلورنسا جهوداً غير مثمرة لترويج فكرة الاتحاد مع الولايات الرومانية ، وبعد أن جعل التوسكانيين المتباطئين يستعدون للحرب — ذهب إلى رومة وكان قد دعا أصدقاءه فيها ليثيروا الثائرة من أجل الجمهورية بعد فرار البابا فى نوفمبر الماضى ، وحضهم على سلوك طريق واضح نحو الجمهورية ؛ فقد نزل البابا فى الواقع ، وأصبحت الجمهورية فى قبضة يدهم دون قتال ، وقد يقدر لها أن تصبح جمهورية إيطالية ، فكتب يقول لهم : « إن بين أيديكم مستقبل إيطاليا ، ومستقبلها هو مستقبل العالم » .

لقد كانت هذه إحدى أفكاره الرئيسة فى الحياة ، وكان يعتز بها فى سنوات التأمل منذ الأيام الأولى لإيطاليا الفتاة ، ولكنها فكرة خيالية بل هى وهم من أوهام تلميذ يتغذى من دراساته الكلاسيكية الأولى ، ومن دراساته اللاحقة فى التاريخ الوسيط ، وقبل كل شىء من إيمان ذاتى برومة العاصمة المقدورة للإمبراطورية ، ومن مخلفات تاريخية عجيبة نجمت كما يقول سيزار بالبو « من تلك الذكرى الملحة فى عظمة رومة الخالية » .

وكان هذا الوهم يترجم نظريات الإمبراطورية الرومانية المقدسة إلى مصطلحات حديثة ، وكان كثير من الإيطاليين فى تلك الأيام يشاركونه فى هذا الإيمان الذى يغذى عزمهم المتأجج على أن يجعلوا رومة عاصمة إيطاليا، بل ذهب ماتزينى وجيوبرتى إلى أبعد من هذا ، وتطلعا إلى رومة لتحمل رسالة حق جديدة للإنسانية كلها .

ولكن على حين كان جيوبرتى يرى أن الأداة التى قدر لها أن تقوم بهذا الغرض هى البابوية بعد إصلاحها كان ماتزينى يرنو إلى رومة الجمهورية الإيطالية التى ليس فيها بابوات لتبزغ بفجر «هذا التحول الدينى» المسيحى فى روحه ومبدئه وإن كان قائماً على مذهب آخر ، وهذا المذهب سيوحد مرة أخرى الجنس البشرى فى إيمان عالمى حى .

وكان مبدأ ماتزينى هذا فضفاضاً أدخل فيه فكرة الوحـــدة الشاملة و «كلمة الأخوة العالمية» والعلامة الحتمية لدين جديد . فكما وحدت رومة الإمبراطورية — أوروبا بقوة السلاح وعظمة القانون ، وكما وحدتها رومة البابوية بسلطان الفكر والروح — كذلك ستوحد «رومة الشعب» — أوروبا مرة أخرى بإنجيل جديد للواجب الاجتماعى والتقدم ، وستنسق القوة الزمنية مع القوة الروحيـة كما تنسق القانون الرومانى للعدالة مع القانون المسيحى للتضحية .

وعندما تعيد القومية صياغة أوروبا سيقدر لرومة وحدها دون بقية

البلاد أن تنهض من كل كبوة وهى أقوى مما كانت ، وتحتل مركزها الأدبى، وتأخذ مقعدها فى مجلس الشعوب لتعلمها الواجبات العامة عليها للإنسانية . . فمن ذا الذى يقول بأن هذه الرؤيا الأخيرة المعتدلة هوناً ما لن تتحقق يوماً ما بأية طريقة ؟

وكان من نتائج تحريض ما تزينى وحكم الظروف على الأكثر أن أعلنت الجمهورية فى رومة بعد يوم من وصوله إلى ليجهورن ، أعلنتها الجمعية الرومانية بأغلبية كبيرة .

وكانت هذه الجمعية تتكون من نفر من الأذكياء ينتخبون انتخابا عاما من بين أكبر ملاك الأراضى وأرقى الطبقات المتوسطة . وكان الحكام الثلاثة الجمهوريون فى رومة قد ألقوا خطبا على وتيرة ماتزينى وبدءوا أعمالهم باسم « الله والشعب » ، وفى اليوم الرابع للجمهورية اتخذت هذه الجمعية بإجماع الآراء قراراً بجعل ماتزينى مواطناً فخريا لرومة وبدعوته للمجىء إليها ، فسافر إلى رومة عندما استطاع أن يبارح توسكانيا ، ووصل فى مساء الخامس من مارس ، وانفلت إلى المدينة لم يلحظه أحد «وعليه مهابة العباد» ، وشعر عندما مر من تحت بوابة الشعب « Borto del Bopolo » بأن حياة جديدة تتدفق فى تلك اللحظة ، وتكتسح الشكوك والحظوظ العاثرة .

وكان أول ما فكر فيه ما تزينى هو التنظيم من أجل الحرب التى توشك أن تقع ؛ فإن بيدمونت التى لم ترض بالهزيمة والتى لدغتها الوحيشة

فى لومبارديا تكاد تنقض الهدنة ، كما قامت استعدادات هائلة للثورة فى المدن اللومباردية ، وأخذت البندقية الآمنة تهدد وتتوعد من وراء بحيراتها ، فيجب ألا تتأخر الجمهورية الرومانية عن الركب . فلما جعلها ماتزينى تتوقع دعوة بيدمونت — وإن طال انتظارها — تقدمت بعشرة آلاف رجل رحلوا إلى الشمال عندما جاءت أنباء « نوفارا » .

ولكن بيدمونت ضربت ضربة ساحقة ، فذهب الأمل فى تحرير لومبارديا هباء ، وانحصرت المهمـــة فى إنقاذ إيطاليا الوسطى ، واتجه الرومانيون فى هذا الخطر المحدق إلى ماتزينى الرجل الذى فاز بإجلالهم والذى سما بهم إلى عظمته الأدبية ، فجعلوه أحد الحكام الجمهوريين الثلاثة ، ومن ثم أصبح شبه دكتاتور ، غير أنه لم يشعر فى قرارة قلبه إلا بأمل ضعيف لإنقاذ الجمهورية ، ولم يخف مخاوفه عن أصدقائه الأجانب مثل كلو ومارجريت فولر ، وإن لم ييئس بعد من الغرض الذى يسعى إليه ؛ فقد أدرك أنه يستطيع أن يتغاضى عن أهل نابولى مهونا من شأنهم وهم يحومون حول الحدود الجنوبية ، ولما لم يكن يتكهن فى ذلك الوقت بالدور الدنىء الذى ستلعبه فرنسا لم ير أمامه من عدو حقيق إلا النمسويين ، وكانت المجر قد ثارت عليهم ولم تروض بعد ، وتطلع هو إلى بيدمونت عسى أن تقوم بجولة ثالثة فى الحرب ، ورأى أن أى دفاع ولو كان هزيلا سيصد النمسويين عند الخليج ، وقرر أن يثلث القوات الرومانية ، وأن يركزها فى تيرنى : لتنقض

على خطوط مواصلات النمسويين الطويلة عندما يتقدمون على طول الشاطئ الشرقى .

وفضلا على ذلك أخذ ينشىء حكومة جديرة بمثاليته ، فقال للسياسيين الذين كانوا يرتعشون فرقا فى الجمعية وهم يسمعونه : « هنا فى رومة يجب علينا ألا نكون معتدلين من الناحية الأدبية » . لقد كان ماتزينى يرجو أن يوحى إلى الحكومة والشعب بهدف عظيم موحد لا يترك مجالا للروح الحزبية أو للشك ، فلا استثناء ولا تعصب ولا حرب طبقات ولا اعتداء على الممتلكات أو الأشخاص ؛ فشعار حكمه « شدة فى المبادىء وتسامح مع الأشخاص » . وكان صادقاً نبيلا فى هذا الشعار حتى فى الأوقات المضطربة التى عقبت ذلك ، والتى كان فيها الخطر القومى يبرر اتخاذ احتياطات قاسية : فهو لا يكاد يتدخل فى الصحافة ، ولم يعتقل المعارضين السياسيين إلا فى القليل ، ولم يعاقبهم إلا فى النادر ، كما تسامح مع المتآمرين بغير استثناء محتقرا إياهم أو محذرهم مجرد تحذير ألا يجعلوا الشعب يعرف شيئا عن دسائسهم ، ولكن هذا التسامح الكبير مع المتآمرين على إسقاط الجمهورية كان سبباً لحدوث اعتداءات فردية قليلة وصمت اسم ماتزينى .

ولما كانت الوظائف المدنية ووظائف (البوليس) ملأى بالأعداء أو بالأصدقاء الخاملين — فقدت قدرتها على قمع عناصر الشغب ، فكان المتعصبون والمجرمون ينتهزون فى أماكن متفرقة ما يشاع عن ماتزينى من

تسامح ، ويغتالون دعاة البابوية ، ولكن الأمان المطلق كان مع ذلك ناشراً لواءه على الصديق والعدو على السواء فيما عدا بعض المدن الإقليمية القليلة التى كان فيها الاغتيال السياسى مرضا متوطنا ، وفيما عدا بعض الاعتداءات الفردية القليلة التى وقعت فى رومة ؛ وهكذا كان سلطان ماتزينى مضيئا لا تعلق به أية شائبة على الضد من الإرهاب البابوى الذى صب على أهل هذه الأرض التعسة سوط عذاب من قبل ، وسيذيقهم العذاب الأليم من بعد .

وكانت وجهة ما تزينى نحو الكنيسة الكاثوليكية حين ذاك بداية غريبة لا تتناسب هى والأسطورة التى دونت اسمه بين أسماء المتعصبين ضد النظام الكنسى ؛ فإن ذلك الرجل الذى كان يؤمن بأن الكاثوليكية نظام بائد ، ويتوق من أعماق نفسه إلى دين جديد يصدر عن رومة — حرص كل الحرص على ألا يهز أركان العقيدة الدينية فى الشعب مع أنه كان من السهل عليه أن يصنع ؛ فقد كان الشعب يحقد حقدا ضاريا على قساوة البابا ، وعلى التعصب الغاشم فى رجاله ، أولئك الذين هان عليهم أن تضرب رومة بالقنابل ولا يتنازلوا عن شىء من سلطانهم الزمنى ، فخلت الكنائس من القساوسة أو كادت ، ولولا احتياطات الحكومة لذهب بعض القساوسة ضحية لغضب الشعب ؛ فجعل ماتزينى من أوائل ما يهتم به حماية رجال الدين فى أثناء تأدية وظائفهم الدينية ، إذ جعلته غريزته الدينية العميقة وذكرياته وصداقاته القديمة واحترامه لرجال الدين الذين كانوا شهودا على الناحية الروحية

— جعلته — دائم التسامح معهم ، فقال ذات مرة : « إن القسيس فى إيطاليا لا يقدر على الإيذاء ، وإنما يقدر على صنع الخير » .

كما دعا رجال الدين قبل هذا الحين وبعده دعوات تحرك عواطفهم ليأخذوا دورهم فى العمل الوطنى ، وحاول أن يكسبهم إلى جانبه ؛ فإصلاحاته للحكم الكنسى السيء لم تكن صادرة عن رغبة سيئة تجاه الكنيسة ، بل قصد من وراء ذلك إلى تقويتها .

وبالرغم من أن السلطة الكنسية كرهت إصلاحاته انضم كثير من القساوسة والأساقفة إلى الجمهورية متحدين الكرادلة الذين كانوا فى « جايتا » يتهددون ويتوعدون .

وكان تأميم الأراضى الكنسية التى استولى عليها ماتزينى يهدف إلى إصلاح الرواتب لرجال الدين الفقراء ، كما ظلت الخدمات والوظائف الدينية غير مقطوعة ولا ممنوعة ، ولم يقس ماتزينى على القساوسة إلا مرة واحدة حين أمر بتغريم قساوسة القديس بطرس ؛ لأنهم رفضوا أن يحتفلوا بعيد القيامة الاحتفال المعتاد ، وقال الحكام الثلاثة : « إن واجب الحكومة أن تحافظ على الدين لئلا يدنس » .

وكتب ماتزينى إلى راهبة كانت تخشى إغلاق ديرها فقال : « لا تخافى وصلى لله من أجل بلادنا ومن أجل ذوى المقاصد الطيبة » ، وحدث فى أثناء

الخوف من هجوم وشيك على المدينة أن جلب المتجمهرون مقاصير الاعتراف من الكنائس ليصنعوا منها متاريس للدفاع ، فذكرهم ماتزينى بأن هذه المقاصير صدرت عنها كلمات دينية أراحت نفوس أمهاتهم ؛ فسرعان ما أعادوا المقاصير إلى أماكنها من الكنائس ؛ مما يدل دلالة واضحة على قوة قبضته على قلوب الشعب .

بل كان ماتزينى مستعداً للتصالح مع البابا نفسه . والحق أنه جعل إبعاد البابا وزوال سلطته شرطاً لقيام الإيمان الجديد الذى كان يتوق إليه ، بيد أنه ذهب فى الصلح معه إلى أبعد حد ، ولعل ذلك راجع إلى أن ماتزينى الرجل السياسى رأى أن على ماتزينى الرجل المثالى أن يتريث ، أو راجع إلى احترامه العميق لذلك النظام الذى اتصل بشطر كبير من التاريخ المسيحى ، أو لأنه أراد أن يقضى على كل ذريعة لتدخل الكاثوليك الأجانب .

ولما كانت الجمهورية فى أول عهدها قد قررت إسقاط السلطة الزمنية للبابا ، وأن تعهدت بكل الضمانات لإبقاء سلطته الروحية — حاول ماتزينى — مقتفياً إثر كافور — أن يقنع الجمعية بإلغاء هذه الضمانات وأن تناقش كل الاقتراحات التى تتقدم بها السلطات الكاثوليكية ، وقال : يجب أن نفرق ما بين البابا القس والبابا الأمير ، وأن نتمسك بحقوقنا دون أن نرتكب أعمالا عنيفة ضد العقيدة الدينية .

وهكذا كان حكم الحكام الثلاثة نبيلا لطيفاً استجاب له الشعب فى رقة

ودعة . وكانت حماسة الرومانيين للجمهورية ضعيفة أول الأمر ، ثم قبلوها بعدذلك فى هدوء بدل حكم القساوسة الذى لا يطاق . ومس ماتزينى شغاف قلوبهم بإيمانه العظيم ؛ فقد دعاهم إلى مصالح لا تنطوى على الأثرة ، كما وعدهم بإصدار تشريع اجتماعى وإن جاء هذا التشريع متأخراً عن المسألة القومية ، فلم يتسع الوقت لتنفيذ مشروعات لرفاهيتهم المادية فيما عدا مشروع الأراضى الذى قصد به إنشاء ملكيات للفلاحين فى أراضى الكنيسة .

فكان حكم ماتزينى نفوذاً روحيا بحتا جعل الجمهور الذى أفسدته من قبل الحكومة الفاسدة والصدقات يسمو إلى بعض ما سما إليه ماتزينى ، ويتواصى بالصبر ، ويقتحم الموت ؛ مما جعل بعض الناس يرون أن رومة أصبحت « مدينة الله » بعد أن باركتها المثالية العظيمة والحكم النبيل .

وما أعظم ما استحق ماتزينى من حبهم ! فقد ولت مغالطات الشهور القليلة الماضية ، وأصبح فى مركز القيادة الواضحة لا تضطره الحاجة إلى صلح مع القوات الأجنبية . ووقف فى جلال روحه التى تكاد تشف وقد علا وجهه التعب والضنى ، وبدا فى نظر مارجريت فولر « مقدساً أكثر مما كان » وكانت حياته — وإن لم يصلنا مع الأسف إلا تقارير قليلة عنها — حياة « بساطة » وديمقراطية ؛ إذ كان يسكن فى الكرينال مقتصراً على « غرفة صغيرة يشعر فيها أنه فى منزله » .

ها هوذا يجلس هادئاً بغير حراسة ، حزيناً كما قال كلو : « لأن الاغتيال

السياسى فى البلاد كان تقليدا عند كلا الطرفين المتنازعين » ، يستطيع أن يدخل عليه العمال رجالا ونساء كما يدخل موظفوه على السواء ، فيقابلهم بالابتسام ، ويصافحهم جميعاً .

ودأب فى أن يتناول غذاءه نظير فرنكين فى مطعم رخيص ، أما فى أيام الحصار فقد اقتصر فى طعامه على الخبز والعنب . وكانت متعته الوحيدة « باقة زهور » اعتاد أن يرسلها له كل يوم شخص غير معروف ، كما كان يغنى على الجيتار فى فترة راحته واسترخائه وحيدا فى الليل . وكان مرتبه (مع أنه أحد الحكام الثلاثة) هزيلا لا يزيد على اثنين وثلاثين جنيها فى الشهر ، ينفق أكثرها على الآخرين .

بيد أنه لم يكن إداريا بمعنى الكلمة ؛ إذ كان لطيفاً إلى حد نأى به عن حسم الإداريين وعبوسهم حتى لقد رفض مرة أن يوقع حكم الإعدام الذى أصدرته المحكمة العسكرية على أحد الجنود ، ولكنه عوض ذلك النقص بجهده الذى لا يلين وعقله النشيط الخصب الذى أعانه على بحث كل التفصيلات العسكرية الخاصة بالدفاع ، والذى جعل ملاحظاته السياسية « نماذج للتفكير والمحاجة » كما قال بالمرستون .

وبالرغم عما أحاط به من الهموم المتشابكة فى الحكومة احتفظ بهدوئه ورصانته وحقه كرجل سياسى فى أن يسمو بالشعب إلى أحلام وقوى جديدة . ولم يكن يتوقع أكثر من أن يترك للناس مثالا جمهوريا عظيما .

ولا ريب أنه تحمس لهذه الجمهورية وإن تحقق منذ البداية فى لحظات تفكيره الهادئ أن قوى الشر أقوى بكثير من هذه الجمهورية النبيلة الصغيرة . وجاءت الضربة من ناحية لم يتوقعها ماتزينى ، إذ جاءت من فرنسا ، وليس هنا مجال لتمحيص الأسباب التى دعت فرنسا إلى ارتكاب أعظم جريمة سياسية حديثة أدت إلى تحطيم جمهورية شقيقة غير معتدية مع أن فرنسا هذه تعهدت فى دستورها نفسه « ألا تستخدم قواتها ضد حريات شعب آخر . »

ولكن فرنسا ستدفع فى « سيدان » ثمن الاستهتار بالشرف الذى جعل الكاثوليك ولويس نابليون يرتكبون باسمها أعظم جريمة ، وكان واضحا منذ بداية حملة أودينو أن الحكومة الفرنسية قد صممت على سحق الرومانيين بالرغم من الأكاذيب المتلاحقة التى أذاعتها ، كما كانت سياسة ماتزينى واضحة ؛ فهو لن يسلم للقوة الغاشمة الظالمة ، وقال للجمعية : « يجب على رومة أن تقوم بواجبها ، وتضرب مثلا عالياً لكل شعب ، ولكل جزء من إيطاليا »

ولكن العدو فى نظره لم يكن فرنسا ، بل الحكومة الفرنسية ؛ فقد كان الجمهوريون الصادقون فى باريس يكدحون كدحا لإنقاذ الرومانيين مما أريد بهم ولإنقاذ شرف فرنسا الوطنى ، فكان الأمل الوحيد فى النجاة قائماً على جهودهم ؛ ولذلك فهو لن يصنع ما يضعف به أيديهم أو يؤذى كبرياء الفرنسيين بغير مقتض ؛ فعندما قررت الجمعية بالإجماع المقاومة مهما يكن

تمنها ، وعندما رُدت فرق أودينو العسكرية خاسئة بعد أن هزمتها جماعات المتطوعين الإيطاليين الناقصة التدريب — لم يشأ ماتزينى أن يدع غاريبالدى يقضى عليهم ، وأطلق سراح الأسرى الفرنسيين بعد أن عاملهم معاملة سياسية كريمة إنسانية ، وأرسل لهم كميات هائلة من السيجار وقد لفت فى لفائف كتب عليها دعوة للإخاء الجمهورى ، وهذا يذكرنا بما حدث منذ ثمانين عاماً قبل هذا التاريخ حين أرسل الكونجرس الأمريكى تحية صادقة مثل هذه التحية إلى الجنود المرتزقة من أهالى هيس الجرمانيين « Hessian » .

فشلت الخديعة والقوة معا فى فتح أبواب رومة للعدو ، ولكن بدأ فصل طويل من الغش الذى لا يكاد يوجد له شبيه حتى فى دبلوماسية الدول الكبيرة ؛ فقد أرسلت فرنسا مبعوثها الناشئ « فرديناند دلسبس » ليلعب لعبته على الرومانيين حتى تصل الإمدادات إلى أودينو ، وحتى تأتى الانتخابات الجديدة فى فرنسا بأغلبية كاثوليكية فى مجلس النواب . لقد كان الأمر محض خدعة ، بيد أن دلسبس كان صبى نابليون ، وكان يفاوض بإيمان قوى مما جعل ماتزينى يمنحه ثقة وافرة لما كان عليه « من اعتدال وإخلاص وشجاعة » كما قال ، ولو تُركا هما وشأنهما لقررا السلام بشروط مشرفة لكلا الجانبين . ويظهر أن ماتزينى كان يرجو زوال الخطر من جانب فرنسا ، فأرسل غاريبالدى لمقابلة أهل نابولى الذين تقدموا حتى وصلوا إلى « البانو » فردهم عبر الحدود على أعقابهم منهزمين ، ومنح فرديناند ملك نابولى قائد جيشه أجناسيوس ليولا رتبة الفيلد مارشال ، ولكن هذا الإنعام الذى جاء

بعد أوانه لم يكن تعويذة من شأنها أن تطرد الفزع الخرافى الذى ألقاه اسم غاريبالدى قائد العصابات العظيم فى روع رجال فرديناند ، ولو كان الحكام الثلاثة أحراراً لتركوا غاريبالدى يتقدم نحو نابولى ، ولتحطمت سلطة البوربون مثلما تحطمت بعد ذلك بأحد عشر عاما .

وعندما اتفق ماتزينى ودلسبس على شروط الصلح نزعت الحكومة الفرنسية النقاب عن وجهها ، وقام قائدها أودينو بهجوم غادر ، وهكذا جاء الحصار الخالد الذكر ؛ إذ ظل الرومانيون مع سوء تسليحهم وقيادتهم قرابة شهر يصدون عند الخليج جيشاً ضعف عددهم مزوداً بمدفعية حصار قوية ، ويقاتلونه قتال الأبطال . وكان أكثر جنود الجمهورية الرومانية من أهالى ولاية رومة ، والباقى ممن تجمعوا من جميع أرجاء إيطاليا يدفعهم سحر رومة للقتال من أجل البلاد مرة أخرى . . لقد كانوا جماعة من الأبطال لم يجتمع مثلها فى الصراع الإيطالى أبدا : فثمة قواد المستقبل مثل مديشى وبكشيو ومانارا قائد لمبارديا فى « الأيام الخمسة » ، ومامیلی شاعر الحرب فى إيطاليا وهو ابن السيدة التى أحبها ماتزينى فى صباه ، وأجوياسى القس الوطنى ، وكان أعظم داعية إيطالى فى أيامه قريب الشبه بماتزينى من الناحية الروحية ، وبيرتانى المنظم المقبل للصقليين الألف ، وبيساكان رائدهم ، والبطلين العظيمين ماتزينى وغاريبالدى . لقد كانوا خليطاً متنوعا نبلاء وعامة ، قديسين وخاطئين ملكيين وجمهوريين يسيرهم جميعاً ذلك الحب السامى الذى يفدى إيطاليا ورومة .

وكانت رومة فى الداخل تظهر بطولة سلبية رائعة ؛ فقد احتمل الناس فى هدوء وصبر تحطيم منازلهم وندرة المواد واليأس من النصر كلما اقتربت المتاعب من المدينة التى كتب قدرها . وتقدمت ستة آلاف امرأة يعرضن خدماتهن فى المستشفيات ، وعندما أخرجت القنابل الفرنسية نساء التراستيفير Trastevere الفقيرات من منازلهن أسكنتهن الحكومة فى قصور النبلاء الفارين على أن يتعهدن بألا يسرقن منها أو يتلفنها ، وقد وفين بهذا التعهد الذى أعطينه باسم « الله والشعب » .

وكانت هذه الأسابيع بالقياس إلى القادة فترة كدح مخيف . وأدت قيادة غاريبالدى السيئة وسوء طبعه إلى تقصير أمد المقاومة وإن كانت لا رجاء منها منذ البداية ، ووقعت خسائر فادحة ؛ فقد سقط ماميلى ومانارا وكثير من أصدقاء ماتزينى صرعى . وبعد ثورة الجبل الفرنسية السيئة الحظ التى أخفقت فى ١٣ من يونيو لم يعد هناك رجاء فى التغيير عند الجمهوريين فى باريس . وكانت الجمعية فى رومة تساعد ماتزينى فى إخلاص ، ولكن كان عليه أن يواجه النقد النزق الحاد الذى وجهه إليه غاريبالدى والمتآمرون الذين اتخذوه أداة لهم .

ورأى ماتزينى أن الواجب يقتضى أن تواصل الجمهورية الحرب حتى النهاية وقال : « إن الملكيات قد تكتب شروط التسليم أما الجمهوريات فتموت دون ذلك ، وهى تحمل الشهادة على استشهادها » . وعندما تحطمت خطوط

الدفاع الأخيرة عن المدينة أراد ماتزينى أن يقاتل قتال اليائس من شارع إلى شارع ، أو ينسحب هو والجمعية والجيش إلى جبال الأبنين ، ويقذفوا بأنفسهم على خطوط النمسويين مقاتلين ، ويحتفظوا بعلم الجمهورية خفاقاً فى رومانا . وكان الجيش مستعدا لأية الخطتين ، ولكن الجمعية لم تعد تستسيغ التضحية ، فعنفهم ماتزينى تعنيفاً مرا ، واستقال من منصبه قبيل سقوط المدينة . وهكذا سلمت رومة المستبسلة ، ودخلها المنتصرون ، ولكنهم ارتدوا أمام الجماهير الساخطة المتوعدة .

وبدأ غاريبالدى تقهقره العظيم هو وثلاثة آلاف ممن أنفوا التسليم بالرغم من « الجوع والعطش والسهاد حتى لا يسلموا للعدو » وكان أوفق لماتزينى لو ذهب معهم ، ولكن ربما كان السبب فى عدم ذهابه أنه لم يشأ أن يجزىء ما بقى من مشروعاته تجزيئاً فاشلا ، أو ربما كان التوتر بينه وبين غاريبالدى قد بلغ أشده .

وبقى ماتزينى فى رومة بضعة أيام مجهداً مرهق الأعصاب ؛ إذ لم ينم على فراش منذ الحصار ، ولم يتناول إلا النزر اليسير من الطعام الخشن ؛ حتى بدا عليه الكبر فى هذين الشهرين ؛ فاغبرت لحيته ، وشحب وجهه كالأموات أما سلوكه فقد كان كما قالت مارجريت فولر — رقيقاً هادئا وإن كان مفعما بعزم ملتهب أشد من ذى قبل » . وأخذ يجوب الطرقات متحديا الأخطار . وربما يرجع ذلك إلى أنه أراد أن يعرض نفسه لسكاكين السفاحين ، فلا يقتله

أحد منهم و وبذلك يقضى على ما افترته الصحافة الكاثوليكية عليه حين زعمت أنه فرض طغياناً كريها على الرومانيين ، فضلا عما كان يراوده من الأمل القوى فى أن يستنفر الشعب وبقية الفرق العسكرية إلى قتال آخر ؛ فإن العاطفة التى كانت تدفعه للاحتجاج حتى النهاية على انتصار القوة الغاشمة قد ملكت عليه روحه . ومن الغريب أن الفرنسيين لم يقبضوا عليه ؛ وذلك لأنهم أدركوا جيداً شعور الشعب نحوه . وأخيراً أقنعته زوجة جوستاڤو مودينا وماوجريت فولر أن ينسحب من رومة ، ولم يكن لديه جواز سفر ، ولكنه أبحر إلى مارسيليا حيث نجح فى تضليل (البوليس) الفرنسى ، وسافر منها إلى جنيف .

الفصل الثامن

لندن مرة أخرى

١٨٤٩ — ١٨٥٩ — من الرابعة والأربعين حتى الرابعة والخمسين .

فى سويسرا — الحياة فى لندن — الأصدقاء الإنجليز — السياسات والآداب الإنجليزية — أصدقاء إيطاليا .

استقر ماتزينى بضعة أسابيع فى جنيف فى فندق هادئ قرب الأحيله التى ألفها هناك ، ثم رحل إلى لوزان حيث سكن فى منزل صغير « ڤيلا منتاليجرو » قرب المدينة التى تشرف تلالها على البحيرة ، وكان يساكنه بعض اللاجئين ، ومنهم سافى (أحد زميليه فى الحكومة الثلاثية فى رومة) وبيساكان .

وسرعان ما انغمس هو وأصدقاؤه فى عملهم القديم المشوق ، وهو المراسلة والصحافة كأنما كان الصراع فى رومة مجرد عطلة . وأصدر صحيفة أخرى من صحفه السريعة الزوال ، وهى « إيطاليا ديلبوبلو » ، وكان رأسه يزخر بالمشروعات الأدبية ومنها ترجمة إيطالية للأناجيل مصحوبة بمقدمة ، ودائرة

معارف جديدة تؤدى للديمقراطية الدينية ما أدته دائرة المعارف القديمة للفكر فى القرن الثامن عشر .

وقضى هؤلاء الأصدقاء وقتاً هادئاً سعيداً ذكرهم بشىء من أيام مارسيليا الخوالى ، ولكن ماتزينى كان فى بعض الأحيان بائساً متشائماً كعهده فيما مضى ، يفكر فيما ضاع من صداقات ، ويتملكه الغضب لانتصار القوة الغاشمة فى إيطاليا ، وكان يتجنب كل أصحابه فى تلك الساعات من الكآبة والصمت ، وفيما خلا ذلك كان هادئاً مبتهجاً ، بل كان يشرق باللطائف والفكاهات عندما تأخذ الجماعة فى حديث المساء ولعب الشطرنج .

وفى ربيع سنة ١٨٥٠ شب هياج فى فرنسا حول التنقيح المقترح للدستور الفرنسى مما بعث آمالا غامضة فى اندلاع الثورة ، فذهب ماتزينى إلى باريس وقد استولت عليه فكرة حمقاء صورت له أن فى استطاعته أن يساعد على منع لويس نابليون من أن يكون إمبراطورا ، ولكن ماتزينى اكتشف فشل هذه الفكرة ، وفقد فى رحلته تلك مفكرة كان يكتب فيها آراءه فى الدين سنين طوالا ، ولو اكتشفت هذه المفكرة المفقودة لاستفاد العالم من اكتشافها أكثر مما يستفيده من العثور على إحدى المآسى الإغريقية الضائعة .

ثم سافر ماتزينى إلى إنجلترا حيث مكث بضعة أشهر ، وعاد منها إلى سويسرا ، ولكن الاضطهاد القديم الذى حدث فى سويسرا سنة ١٨٣٤

تكرر ، فقد ضغطت الحكومات الأجنبية على السويسريين ليطردوا اللاجئين ، فاختفى ماتزينى شهرا أو شهرين ثم رأى ضرورة الارتحال . وفى ليلة من نوفمبر بارح هو وصديقان له جنيف ، وساروا على طول شاطىء البحيرة حتى نيون وهم يتناقشون فى « بيرون » و « ميكيو ويكز » ، ثم أخذهم صديق فى عربته إلى لوزان حيث تيسرت لماتزينى وسائل الهرب إلى إنجلترا .

وقر قراره فى إنجلترا حتى آخر سنى عمره فيما عدا بعض الفترات ، ولعب دورا كبيرا فى المجتمع الإنجليزى والسياسة الإنجليزية ، كما وجد عند الإنجليز رجالا ونساء حسنى الصداقات ، فقال « إن إيطاليا بلدى وإنجلترا موطنى الحقيقى لو كان لى موطن» فقد أخذ يحب إنجلترا والأساليب الإنجليزية، وكان فى أثناء رحلاته السياسية القصيرة إلى إيطاليا يرتد بأفكاره إلى إنجلترا موطنه ، وتسره عودته إليها ؛ وقد استحال فزعه من لندن حبا حقيقيا .

وكانت ظروف عمله تجعل من الصعب عليه أن يترك تلك المدينة إلا عندما يذهب فى زيارات نادرة لأصدقائه أو يقضى يوماً أو يومين ينعش فيهما صحته فى سنت ليونارد أو بريتون أو أيستبورن (التى كان يحبها) ؛ وربما أطال فآوى إلى « ركن خفى فى الريف يستنشق الهواء النقى ، ويتطلع إلى السماء أو إلى البحر » .

غير أنه عندما كان يحثه أصدقاؤه ليستريح فى الريف كان يعاتبهم ويقول عنهم: «هؤلاء — الأصدقاء المضللون والحالمون» فقد حسبوا أنه يستطيع التوفر

على عمله بعيداً عن لندن ، فى حين أنه لا يزال يفتتن بضبابها افتتاناً ، فكتب مرة من إيطاليا يقول : « دائماً أفكر فى ضباب لندن » وأنا تحت سماوات بلادى المشعة ، وآسف على هذا الضباب كأنما أصبحت رجلا إنجليزياً ! »

وعاش ماتزينى أول الأمر فى كرمويل لودج بأولد بروبتون وسط البساتين والحدائق فيما كان يعتبر فى ذلك الوقت أقصى الطرف الغربى للندن ، ولكن عمليات البناء التى قامت هناك جعلته يرتحل منها ، فأوجدت له مسز كارليل سكناً أعلى مكتب البريد فى رقم ١٥ رادنور ستريت قرب حجراته القديمة فى يورك بيلدنجز حيث عاش عيشة اقتصادية إلى أبعد حد ، وكان يساكنه ساقى وثلاثة آخرون من المنفيين ، ثم انفرد عنهم .

وزاد دخله فى الواقع عما كان عليه ؛ إذ ورّثته أمه دخلا سنويا قدره مائة وستون جنيهاً ، وقد وكلت أمر الإشراف على هذا الدخل إلى وكيل ؛ لأنها كانت تعلم أن مال ابنها ماتزينى يذهب جله إلى العمل العام والإحسان !

وود أصدقاؤه أن يمدوا إليه يد المساعدة ، غير أنه لم يكن يطلبها منهم صراحة إلا فى سبيل المصلحة العامة ، وكان يسدد ما يقترضه لهذا الغرض بضمانه الشخصى فى مواعيده . ولم يقترض منذ ذلك الوقت — بقدر ما أعلم — مالا من أجل حاجاته الشخصية البحتة غير مرتين : مرة حين أراد أن يستأجر

سكرتيراً خاصا له ، ومرة ليدفع أجور العربات التى كان يركبها بعد أن حذره أصدقاؤه المؤامرات التى تدبر لاغتياله ، وخشوا عليه من السير فى طرقات لندن ، وهو أعزل إلا من عصا فيها سيف .

والحق أن إيراده لم يكن ليبلغ أكثر من مائتى جنيه فى السنة حتى مع إضافة ما يأتيه من دخل عن طريق الأدب عرضا ، وكان ينفق من هـذا الإيراد ثمانين جنيهاً لتعليم أبناء تنسيونى الذين يرعاهم ، ثم ينفق كل درهم فائض لتمويل المؤامرات التى يقوم بها للثورة فى وطنه . وعلى حين كان خصومه يزعمون أنه يعيش فى رفاهية النبلاء كان هو يحرم نفسه كل متعة سوى السيجار وما يجبره أصدقاؤه عليه من المتع المعقولة .

ولم يكن يحتاج إلى المال إلا من أجل مشروعاته السياسية ؛ فعندما أعوزته البنادق لإحدى مؤامرات الثورة كتب يقول : « إنى لم أشعر أبداً نحو الفقر اللعين بمثل هذا الشعور المرير إلا هذه المرة ! » فى حين قنع هو نفسه بأجره المتواضع وحجرته الصغيرة التى كانت فيها كل قطعة من الأثاث مفعمة بالكتب والأوراق ، والتى كان جوها يتلبد بدخان السيجار السويسرى الرخيص الذى يشتريه أو سيجار الهافانا الفاخر الذى يمنحه إياه أصدقاؤه .

ولم يكن يلوح على ماتزينى الإشراق إلا عندما يخلو إلى عصفورى كناريا كان يألفهما ، أو إلى نباتات دأب على رعايتها والعناية بها .

وكان يجلس عامة نهاره إلى مكتبه حتى يرخى الليل سدوله ، وبيده عمل

يزيد على طاقته ، فيعالج جمهرة الرسائل التى اعتادها ، ويكتب مقالات لصحفه الإيطالية ، أو يعمل على تنمية الرصيد العام من أجل الهدف الوطنى بجهد متواصل ، أو يحث أصدقاءه الإنجليز على معاونته فيما يسعى إليه من غاية وطنية ، أو يبحث عن مال أو عمل لفقراء اللاجئين ، أو ينظم فرقاً موسيقية لمساعدتهم

وظلت مدرسته فى جريفيل ستريت تؤدى رسالتها ثلاثة أعوام حتى أغلقت فيما عدا أيام الآحاد ، فكانت تلقى فيها المحاضرات . . وبالرغم عما أحاط به من مشاغل العمل العام لم يضن بنفسه على أصدقائه الإنجليز ، فأخذ ينصحهم فى شئونهم الخاصة ، ويكتب الرسائل الطوال التى تفيض بالرقة والحكمة الروحية ، ليمتع ابناً يتيما ، أو ليهدى بنتاً ركنت إلى حياة الأثرة — إلى أشياء أرفع وأسمى

وكان ماتزينى قد تقدمت به السن بعد أن بارح إنجلترا منذ ثلاث سنوات مضت ، فأمسى متعباً نحيلا ، وابيضت لحيته ، كما أن ملامحه التى كانت سمراء يوماً أمست تحيط بها « هالة غبراء فى لون الرماد » وإن ظلت على حالها جبهته العالية التى تشبه طلع الجبل ، وملامحه المنتظمة ، وأنفه القوى المستقيم « وضمة شفتيه الشائقتين اللتين تشبهان شفتى المرأة فى تعبيرهما عن طهر لم تشبه شائبة ! » ، وعيناه السوداوان النافذتان اللتان لا يعرف رائيهما شبيهين لها ، « وسريرته النيرة المملوءة بالرقة والشجاعة والطهر والأحزان ، والتى تتأجج

ناراً ، وتومض ببريق الكرامة واللطف ، وتسفر عن تعبير خفي لعزيمة لا تستنفد » .

وقال آخر يصفه : « إنى لم أر عينين تلوحان كالشعلتين إلا عينيه ، وكان وجهه — على انبساطه — رصيناً ، بل حزيناً ، بيد أنه يضيء بابتسامة فائقة الحلاوة حين يحي صديقاً بالأحضان فضلا على مصافحته له بيده النحيلة » .

وكان ماتزيني يشرئب برأسه قليلا ، كما اعتاد أن يجلس على حافة الكرسي ، ولعل مرجع ذلك إلى أن الكتب فى غرفته لم تترك له إلا مجالا ضيقا للجلوس . وكان يلبس فى عناية تامة حلة رسمية سوداء قديمة وصديريا من قطيفة مضاعف التبطين عالى الأزرار ، وقد استعاض عن الياقات المنشاة بمنديل حريرى يلفه حول عنقه ، ويحمل سلسلة ساعة من ذهب رفيعة ربما ورثها عن أبيه وخاتمين أحدهما بلا شك خاتم أمه الذى فك رهنه من حانوت الرهون .

وتركزت حياته الشخصية فى الغالب فى أصـــدقائه الإنجليز ، والحق أنه كان يشعر بمرارة المنفى حتى لقد كتب إلى أصدقائه فى عيد الميلاد يقول : « ادعوا لى أن أموت فى البلاد ومن أجل البلاد التى حرم على أن أعيش فيها » ولكن لم يعد يربطه منزل بإيطاليا ؛ فقد مات أبوه ذلك العجوز العبوس سنة ١٨٤٨ ، وترك ماتزينى يفكر فيما سببه له من ألم على حين لم يفقد أبداً وهو تحت أكداس همومه وحاجته إلى العطف اعتزازه بابنه وحبه له .

وماتت أمه فى صيف سنة ١٨٥٢ بعد أن رآها لآخر مرة فى ميلانو . أمه التى دأب على أن يبعث إليها برسائله العاطفية الوثيقة ، لقد كان موتها ضربة فادحة ؛ فما من أحد يحل فى قلبه محلها كما فقد بموتها « حلم حياته الذى كان يراوده ، وهو أن يراها فى فرحة النصر عندما تتحرر إيطاليا » ، غير أنه تجلد واتخذ من فقدها دافعاً له على بذل مجهود جديد ، فكتب يقول :

« يبدولى أن أمى لم تمت ، وأنها حاضرة ماثلة ، بل ربما كانت أقرب إلى منها حال حياتها على الأرض ، إنى أشعر شعوراً متزايداً بقدسية الواجبات التى أقرتها والرسالة التى وافقت عليها ، لم يعد لى الآن أم على وجه البسيطة إلا بلادى ، وسأكون مخلصاً لها ، كما كانت أمى مخلصة لى » . هكذا كانت أمه حقيقة ماثلة لديه حتى خيل إليه ذات مرة وكان محتفياً مغموما كل الغم أنها أتت إليه بلحمها ودمها لتنصح له ، وتشد من أزره !

وكان قلبه متفرداً متعطشاً إلى المودة أبداً ، يجذبه إلى أصدقائه الإنجليز ولا سيما النساء منهم ، أولئك الأصدقاء الذين يؤمنون به وبسياسته ، ويحاولون أن يكسبوا حياته الحزينة شيئاً من الدفء والإشراق . وبعد عام أو عامين من عودته إلى لندن أخذت رؤيته لآل كارليل تقل ؛ إذ احتل منزلتهم فى قلبه آل أشيرست ، وآل ستانسفيلد ، وآل بيتر تيلور ، وآل شاين ، وآل مالصون ، وآل ناثان ، وآل ملنر جبسون ، فكان عندما ينتهى عمله فى النهار ينفق مساءه فى منزل من منازل هؤلاء ، وفى الأغلب فى منزل

آل ستانسفيلد فى بلفى لودج على مسيرة خطوات من منزله . وبدأ يوسع دائرة عارفيه ، فراسل جروت ، ومسز جاكسل ، وآل براوننج ، وجون ستيوارت ميل ، وجودت ، وسوينبرن ، وكيرنز ، ومسز مارتينو ، وكان ديكنز من بين الذين يقابلهم أحياناً .

وعن طريق هـذه الصداقات بزغ فى حياته ضوء وسعادة جديدان ، وربما كان شعور أصدقائه بأنه لعب دوراً عظيما فى رومة هو الذى أضفى عليه فى نظرهم لمحة نبيلة من التبجيل واللطف ، ولاحظ أحد الذين قابلوه بعد فترة أعوام عشرة : « أن طلعته التى كان يشوبها التألم لآلام الآخرين ، تلك الطلعة التى لا يمكن وصفها — قد اختفت ، فأصبح الآن رجلا مليئاً بالتجارب والصبر والأمل » .

وكتب كارليل إلى إمرسون يقول : « إن الثورة الرومانية جعلت من ماتزينى رجلا مشرقا كل الإشراق » ، وأزهرت رقته وإنسانيته ، فلما عاونه أصدقاؤه على رعاية منزله وكان قد فقد الرعاية عندما فارق أمه وأخواته فى جنوة منذ عشرين عاما خلت — أحب أن يجزى هؤلاء الأصدقاء بكثير من علائم المودة ، فأخذ يتذاكر أعياد ميلادهم ، ويشترى لهم هدايا من الكتب والحلى من كيس نقوده الهزيل ، ويأخذهم إلى دار الأوبرا ، وكان معارفه من كبار المغنين الإيطاليين يضعون بعض مقصوراتها تحت تصرفه .

وكان يفيض فى أمسياته عند آل ستانسفيلد فكاهة ومرحا فى غالب الأحيان ، فيقص إحدى القصص بطريقة فيها سخرية لاذعة من لكنته الإيطالية ، وكانت قصةالحانوتى إحدى فكاهاته المفضلة (وقد قصها على مسز كارليل من قبل) ، وتدور هذه القصة حول حانوتى أخطأ ، فأحضر نعشاً إلى صاحبة المنزل الذى يسكن فيه ماتزينى ، ورفض أن يأخذه ، فخيب ماتزينى فأله ، وقال له فى هيبة ووداعة : « يا عزيزى ليس عندنا ميت ! » .

وإذا ما انفرد بأسرة ستانسفيلد غنى على الجيتار ، أو عزف عليه قطعاً من الأوبرات المفضلة ، وكانت رقته الوطنية تظهر فى شفقته على الأطفال والحيوان ، وإن لم يكن بطبيعته مغرماً بالأطفال غراماً كبيرا ، ولكنه إذا ماوجد بينهم شعر كأنه بين أهله مما جعل بعض الأطفال الفرنسيين القاطنين فى منزل كان يزوره يرحبون به لأنه فى رأيهم شفيق جدا ، ولا يفوته أن يستعلم عن لعبهم وعرائسهم ، ويجلس إليهم ، ويستمعوا إليه ، لا لأنهم يفهمون كلامه ، ولكن لأن صوته الجميل يفتنهم ، فى حين أنهم كانوا يستحون من لويس بلان عندما يزورهم .

كما كانت الكلاب والقطط والطيور تسعده على الدوام ، حتى أوشك مرة أن يغضب إحدى مضيفاته لأنه أصر على إطعام كلبها وهم على العشاء ، ولكنه أجابها « يا سيدتى ، إننى أسعد برينو (يعنى الكلب) » . وذات مرة كان يتحدث مع لورد رولان فى الثورة الأوروبية وهما يدخنان ، فأزعج

الدخان أحد الكلاب فتركا سيجارهما ، وسكتا عن التدخين ! وكانت طيوره الأليفة من الكنارى والتفاحى أوفى صاحب له حتى لقد وضع سياجاً على النوافذ لتستطيع هذه الطيور أن تنطلق كما تشاء حول غرفته ، وكان ضيوفه غالباً ما يرون طائراً أو طائرين يجثمان على رأسه أو على كتفيه أو يقفزان على أوراقه ، وقد تعودا رائحة التبغ الكثيفة التى يعيشون فيها جميعا .

كان ماتزينى محدثاً نابها ؛ إذ كان جادا ؛ وكانت أفكاره واضحة فى ذهنه فى كل حين ، ولم يكن يبدو عليه أثر للجهد أو للتصنع ؛ فقد حافظ على سمته لا يحيد عنه ولم ينافق أبدا . يتحدث فى وداعة الأنبياء مؤمناً بعقيدته الدينية وبالأقدار . فكان حديثه رشيقاً يجرى فى إصرار كل حين ، ويجرى فى حدة أحيانا ، ويتكلم بالقوة التى يتكلم بها من يعيش ويعانى من أجل عقيدته لا من أجل نفسه .

ولما كان بعض مضيفيه من أبطال الصراع حول الأهداف كانت المحادثات التى تجرى بينه وبينهم تدور بطبيعة الحال حول الرق فى أمريكا أو حقوق المرأة أو الوطنية أو التعاون ، كما كانت الموسيقى والشعر من الموضوعات المفضلة لديه ، فكان يجادل وهو خصيم ساخر عن أفضلية ميربير على روسنى ، أو يقدح من كل قلبه فى النظرية التى يبغضها وهى « الفن من أجل الفن » ، وحدث ذات مساء وهو يتناول العشاء مع وليم شاين

وزوجه أن أمسك عن الطعام ، وأخذ يجادل ليثنى مضيفته عن إلحادها ، وعندما ألحا عليه أن يطعم اعتذر بأن لديه ما يشغله وقال : « إن مسز شأين تسرع الخطا إلى الهلاك ما استطاعت ، وعلى أن أنقذ روحها ما استطعت ! » لقد أضحى يتكلم بالإنجليزية بطلاقة وإن كان يلكن فيها قليلا بإيطاليته ، أما كتابته الإنجليزية فعلى العكس إذ كانت اصطلاحية إلا فيما ندر .

وكان ماتزينى عصبيا بوجه عام مع الذين قلما يقابلونه ، فهو يهدأ أحياناً، وأحيانا أخرى تدفعه عصبيته ، فيحتكر الحديث كله ، ثم يأسف على ذلك . فقد حدث بعد هـــذا التاريخ بسنوات أن قابل « جودت » وتحدث إليه ساعتين متواصلتين وجودت ينصت إليه دون أن يقاطعه ، وعندما فارقه لاحظ ماتزينى ذلك ، فقال : « لقد تركنى أتكلم الوقت كله ، ولم أعرف رأيه فيما أقول ! » ولكن جودت اعتنى بما قاله ماتزينى فى ملاحظات كتبها عنه ، وأشار بعد ذلك بسنين إلى مقابلتهما تلك فقال : « إن ماتزينى عبقرى ، غير أنه متأثر بفكرتين مجردتين ، هما الله ومبدأ القومية » كما قال أيضاً : « إنه متحمس وخيالى » بيد أن جودت كان طيب الإحساس نحو ماتزينى فقال : « إن ماتزينى ذو خلق نبيل جدا ، وعبقريته أسمى من عامة السياسيين وإن لم يكن هو سياسيا ، وإنى أعتقد أن شهرته ستزداد بمرور الزمن على حين تنطوى شهرة أغلب السياسيين » .

أما الذين يعرفونه جد المعرفة فقد فرض عليهم نفوذه ؛ إذ أنه يتحدث

سلطان من الحياة والله والواجب ، فكان الشبان دائماً يتأثرون بسحر عينيه ، ويستمعون إلى صوته المرتجف وهو يتحدث فى جد وانفعال عن أسرار الله الخفية ، فيترك فى نفوسهم مهابة له واحتراماً لا يوحى بها من ذلك الجيل إلا القليل أو لا يوحى بها أحد .

إنه الرجل الذى ضحى بكل شىء فى سبيل مثله الكامل ، والذى قبل الفقر والفاقة من أجل عروسه تلك ، ولم يدع لنفسه حقا ، الرجل الذى يحزن جد الحزن لخطيئة العالم وصراعه حتى إنه لم يرد لنفسه إلا أن يكون متواضعا ، الرجل الذى يعيش على رأس مرحلة كبيرة من التاريخ ، ويعاون على صياغة أوروبا من جديد ، المفكر العظيم والمعلم الأخلاقى الكبير الذى لا ينفك مشغولا كل الشغل بمحاولات روحه الهائمة هوناً ما وتجاربها .

وقال عنه كلو بعد أن عرف شيئاً عن حياته وهو فى رومة : « هذا النبيل ماتزينى » . أما شعور الذين تشرفوا بصادقته الوثيقة فكان أعمق من هذا بكثير ، ومع أنه يصعب علينا إثبات هذا الشعور نستطيع أن نقول : إن ماتزينى ترك أثراً غير يسير فى التفكير الإنجليزى ، فنجد فى شتى الأماكن علائم قوية تدل على تأثيره فى الرجال الذين عاونوا على صياغة أفضل الآراء فى إنجلترا فى الأربعين سنة الأخيرة من القرن الماضى ، فقد قال أرنولد توينبى : « إن ماتزينى هو المدرس الحقيقى لعصرنا » ومن المؤكد أن عصرهم كان يحتاج أكثر من غيره من العصور إلى مثالية ماتزينى العالية ؛ ليتعلم الناس قواعد أنبل فى الحياتين القومية والخاصة .

ولم يكن عمل ماتزينى الأدبى قد اشتهر فى ذلك الحين ، فما زال ماتزينى يدعو الله « ليمنحه عامين من حياة التنسك بعد أن تصبح إيطاليا شعباً موحدا ، ليستطيع فيهما أن يؤلف كتاباً طالما كان يعتز به ، يتناول فيه الدين والتاريخ الشعبي للقومية الإيطالية ، ولكن الأمل فى تأليف هذا الكتاب أخذ يضعف لاشتغاله طوال هذه الحقبة بالدعاية السياسية ، فلم تكن كتاباته الجدلية فى تلك السنوات على العموم من أفضل كتاباته . ومهما يكن من شيء فإن الفصول الأخيرة من كتابه « واجبات الإنسان » تعود إلى هذه الحقبة ، ولكنه وجد فسحة من الوقت للقراءة بالرغم من امتلاء حياته بالمشاغل ، فكتاباته عن المشكلة السلافية مثلا تدل دلالة واضحة على أنها حصيلة دراسة سياسية واعية . وفضلا على ذلك كان الأدب الإنجليزى يجذب اهتمامه ؛ فما زال بيرون هو أعظم الشعراء الإنجليز فى نظره ، فكان يقرأ « البيرونية » بلذة المتعبد ، ولم يغفر لإنجلترا إهمالها « لشاعرها الأوحد الذى سيخلد على الأزمان التالية » فكتب مرة يقول : « وددت لو كان لى من الوقت ما أكتب فيه كتاباً عن بيرون قبل أن أموت ، وأهجو فيه إنجلترا بأسرها ما عدا بعضاً من نسائها ، للطريقة التى عاملت بها واحداً من أعظم رجالها روحاً وعقلا » .

واهتم اهتماماً كبيرا بالجدل الدائر حول معاملة بيرون لزوجه ، ولم يشأ أن يصدق أن بيرون هو المخطئ غير أنه كان يعتبر نفسه معجباً ببيرون بحيث لا يحسن الحكم عليه ، ولا يصلح لأن يكون قاضياً عادلا فى هذه

المسألة . وكان يميز ما بين بيرون وبين وردسورث وكولريدج ، فينتقد الاخيرين قائلا : إنهما من شعراء التأمل ، يعيشان بعيداً عن الواقع بين بحيراتهما وجبالها ؛ مما يدل على أنه لم يقرأ أغانى وردسورث الوطنية .

كما أحب تشاترتون ، ويرجع ذلك بلا شك لنهاية تشاترتون المحزنة وتمثيلية « ديفينى » فقال عنه : « إنى أغرم به ، وأحس له بما أحس به للأزهار التى سحقت » ، كما كان يفضل مسز براونج على الشعراء المعاصرين لها ، وكان يقرأ لها « أورورالى » ، ويقول : « إنى أعجب بها كثيراً ، وأود من حين لحين لو كتبتها فى نثر بديع بدل كتابتها بالشعر المهمل إلا فى بعض مقطوعاته » . أما براونج نفسه فقد قيل لنا إن ماتزينى قرأه وأعجب به ، غير أنه أشار إليه حين قال : « إنى أظن أن طريقة نظم الشعر فى إنجلترا أوشكت أن تصير خاطئة » .

واستعاد ماتزينى فى تلك الأثناء اهتمامه القوى بالحياة والسياسة الإنجليزية ، وما من شك فى أنه تأثر بالمفكرين الأقوياء الذين يسايرهم وإن احتفظ على الدوام بنظرته الأساسية فى هذه الحياه وتلك السياسة . وكانت هذه النظرة فى مجموعها نقداً ذا قيمة إلى حد ما . وأعجب فى إخلاص إعجاباً متزايداً بحرية الأساليب الإنجليزية وجديتها إلا أنه شعر شعوراً قويا بانحطاط حياة الإنجليز الدينية ، واعتبر أن الأثرة وعدم المبادئ فى سياستهم الخارجية ناتجة عن هذا الانحطاط الدينى ، كما كانت معرفته بالبروتسانتية لا عمق فيها

ولا عاطفة ، وإن كان يعلم من مبادئها ما يكفيه لتمحيص حيويتها الدينية . فاتهمها بالشكلية التى قضت على الروح ، وأوضح أنها أجرمت فى حق نفسها لما لم تعد تهتم بالنَّاس كمواطنين .

وصب ازدراءه على «الجمعيات الإنجيلية » التى حاولت أن تهدى مواطنيه الإيطاليين إلى مبدئها فى حين أنها لم تنبس ببنت شفة عندما كان هو والإيطاليون يحاربون فى رومة من أجل حرية الضمير ، كما دفعته رغبته فى إيجاد دين حقيقى إلى اتهام الإنجليز بالأثرة الضيقة الأفق .

لقد كره ماتزينى أتباع كوبدن « أصحاب حرية التجارة Cobdenites » ، ورأى « أن رجال السلم لا مبدأ لهم » وكتب فى خطاب مفتوح إلى شعب إنجلترا يقول : « إن جمعياتكم للسلام سمحت بسحق القانون الإلهى وحياة البشر الجليلة فى ثلثى أوروبا سحقاً منظما ! إن المؤمنين منكم بالحرية والذين اعتبروها الميثاق الوحيد لمسئولية الإنسانية ناصروا الطغاة ! » فإذا لم تمد إنجلترا يد المعونة للقوميات الناشئة التى سيئول إليها أمر المستقبل فستجد نفسها فى خلال عشرين عاماً منقطعة الصلة بعواطف القارة وأحلافها وأسواقها .

واتهم حرب القرم اتهاماً قويا ووقف إلى جانب القلة الذين حاولوا إنقاذ إنجلترا من الوقوع فى خطأ جسيم باشتراكها فى تلك الحرب ، لقد كان يعارض فى حرب القرم : لا لأنها حرب ضد طاغية روسيا ، ولكن لأنه رأى فيها شبهاً للحرب الصليبية بالقياس إلى شعوب شرقى أوروبا المهيضة

الجناح ، ولأنها جعلت إنجلترا — ويا للأسف — بطلة للحرية بوقوفها بجانب الأتراك والنمساويين ؛ فقال : إن المحالفة مع النمسا وهى الطاغية التى تحكم إيطاليا ، ومع تركيا وهى الطاغية التى تحكم المجر — قد جردت الحرب من كل مايجعلها مقدسة فى نظر الله والإنسان . إن هذه الحرب التى تعهدت فيها إنجلترا بمساندة أشد الحكومات استبداداً فى القارة قد خلت من كل مبدأ ، « والحرب إذا لم تقم من أجل فائدة الجنس البشرى أو لإعلان حقيقة ضخمة ، أو للقضاء على أكذوبة كبيرة — كانت أفظع الجرائم » ولكنه انحنى « للتقشف القانت الذى قابل به الشعب الإنجليزى كل التضحيات التى أوجبتها الحرب » غير أنه قال : « إن سياسة الإنجليز فى الحرب لاتمت إلى الأخلاق بصلة إطلاقاً ؛ فكيف يرجون النصر ؟ » فلو تجنبت إنجلترا ذلك الاتصال الشائن بالنمسا ، وبحثت عن حليف لها فى الثورة البولندية — لاختلف الأمر .

لقد كان ماتزينى يرمى من وراء اهتمامه بالمجتمع الإنجليزى والسياسة الإنجليزية إلى فائدة بلاده شأنه فى كل شىء فيما عدا صداقاته ، وكان يتوقع من دعايته الإنجليزية ثلاث نتائج : أولاها أن يحقق لإيطاليا عونا أدبيا من الرأى العام الإنجليزى والصحافة الإنجليزية ، وثانيتها أن يؤثر على سياسة إنجلترا الخارجية لتتجه فى صالح بلاده ، وثالثتها أن يجمع مالا لمشروعاته الثورية .

أراد ماتزينى أن يؤثر فى العاطفة الإنجليزية التقليدية نحو إيطاليا وحاول

أن يحول هذه العاطفة من الإيمان ببيدمونت إلى الإيمان ببرنامجه الثورى الديمقراطى ، فأهاب بالشعور المضاد للبابوية فى إنجلترا ، ولوح بأن إيطاليا الحرة ستسمح بدور واضح للإرساليات البروتستانتية ، ودلل لرجال المدرسة المانشسترية بأن التجارة الحرة ستعقب قيام الحكومات الحرة ، وتحدث مع الطبقات العمالية عن المصالح المشتركة بين عمال العالم كله . وكان يضم أصدقاءه إلى جانب مشروعاته باستمرار ، ويجمع منهم جبايات كبيرة حتى قال أحدهم وقد أصبح سياسيا معروفاً فيما بعد : « إن شعر رأسى يقف عندما أفكر فيما صنعته تلبية لمقترحات هذا الرجل (ماتزينى) »

وكان ماتزينى يرجو التأثير على الرأى العام الإنجليزى عن طريق « جمعية أصدقاء إيطاليا » التى أنشأها فى خريف سنة ١٨٥١ ممن روجوا لعصبة الشعب الدولية منذ أربع سنوات مضت ، وهم جيمس ستانسفيلد ، وبيتر تيلور ، ووليم أشيرست ، ووليم شاين ، وانضم إلى عضويتها نفر من أفضل الأحرار الإنجليز ، وهم وليم بايلز (من برادفورد) وجوزيف كوين ، وجورج داوسن ، وجون فورستر ، وا. فورستر ، وج. ا. فرود ، وج. هوليثوك ووليم هويت ، ودوجلاس جيرولد ، وولترسافيج ، لاندرو ، وج . ه. لويس وو. ج. لينتون ، ودافيد ماسون ، وإدوارد ميال ، والعلامة نيومان .

وكان ماتزينى غالباً ما يتكلم فى اجتماعاتهم السنوية فى عصبية زائدة ، وذلك لأنه ما انفك غير متمكن من الإنجليزية تمام التمكن ، عاجزاً عن التحدث

بها فى طلاقة تامة ، كما كان « لايستطيع أن يفكر دون أن يكون فى يده قلم وكان يقول : أنا لا أفهم كيف يستطيع بعض الناس أن يعدوا خطبة أو مقالة وهم يسيرون جيئة وذهاباً فى غرفهم أو فى حدائقهم ، فأنا شخصيا ربما سرت يوما كاملا دون أن تطرق رأسى أية فكرة » ومع ذلك كانت خطبه فصيحة ناجحة فيما يبدو ، كما أن طريقته فى الإلقاء — كما قالت الصحف — أضحت أكثر تأثيراً مما كانت .

ولما نشبت حرب القرم توقفت الجمعية عن أعمالها ، ثم أعيد إنشاؤها فى نهايةسنة ١٨٥٦ ، ولكن رجاء ماتزينى فى أن يثير الرأى العام فى إنجلترا كان يفتر كلما نضب المال . صحيح أن بعض الأصدقاء كانوا يمدونه بالمال بسخاء ، ولكن ما أقل استجابة الإنجليز لنداء غاريبالدى بعد بضع سنوات من ذلك التاريخ! غير أن الجمعية صنعت الكثير لتكسب الرأى العام الإنجليزى ، إن لم يكن إلى جانب مشروعات ماتزينى الخاصة — فإلى جانب المسألة الكبرى وهى حرية إيطاليا على أية حال ، فأفسحت صحف « ذى ليدر » و « ديلى نيوز » و « مورننج أدفيرتسر » أعمدتها لهذه الغاية ، وحاولت أن تعارض ما تبديه صحيفة التيمس من تحيز ضد الإيطاليين . وفى سنة ١٨٥٧ أخذوا يثيرون الرأى العام إثارة ضخمة واضحة ولا سيما فى الشمال وفى أسكتلندا ليتم العمل الذى بدأته اجتماعات كوست ، فأيقظت هذه الإثارة شعوراً شعبيا قويا ضد النمسا .

الفصل التاسع

ماتزيني وكافور

١٨٥٠ — ١٨٥٧ — من الخامسة والأربعين إلى الثانية والخمسين

المدرسة البيدمونتية — ماتزيني وكافور — الحلف الفرنسي — ماتزيني ومانين — نظرية الخنجر — بعض المؤامرات — مؤامرة جنوة سنة ١٨٥٧

من المؤلم أن نترك الحديث عن ماتزيني فى إنجلترا ، وهو ذلك الصديق الكبير القلب والمفكر المتكهن الصادق الفراسة والعامل الكريم من أجل الإنسان ، ونتحدث عن عمله السياسى فى إيطاليا . لو نزل ماتزينى فى هذا الوقت على نصيحة بعض أصدقائه وترك السياسة إلى الأدب لأصبحت شهرته ألمع ، وحياته أكثر إثماراً للخير المحض ؛ فقد تم عمله من أجل إيطاليا ؛ إذ ظفر فيها بما يزيد على نصف معتقداته ، وأصبح نصف الإيطاليين الفضلاء يتغذون بكتاباته ، فتعلموا منه كيف يؤمنون بالاستقلال والوحدة وإن كانوا لا يزالون يتحدثون عن الوحدة همسا ، بيد أن ماتزيني لم يكن يعلم إلى أى حد تقدمت هذه الفكرة .

إن أيام التآمر قد ولت ؛ فهذه بيدمونت الحرة تجيش فى بطء قوات الشعب ليخوض حرباً أخرى حاسمة ، وغدت الجمهورية مستحيلة ؛ فقد أقسم فيكتور عمانويل على الإخلاص للدستور ، ومن ثم نادى بنفسه بطلا للمطامع الإيطالية ، ولم يعد الأمر يحتاج إلا إلى انضواء كل فريق من الوطنيين تحت لواء الملكية ، وهو اللواء الوحيد الذى كان متاحاً لإيطاليا ؛ ولذلك فكل مهاجمة للملكية تسىء إلى النتيجة الكبرى ، كما تؤدى إلى طمس الهدف العظيم فى ضباب من الشقاق الذى يحل المرارة والفتنة محل النظام ، وقد كان النظام ضروريا ليوم المحنة . ولم يصر أحد على وجوب النظام أكثر مما أصر ماتزينى وإن كان هو قد جعل هذا النظام مشروطاً فى تلك السنين بأن يكون هو قائدا بالذات .

لو أن ماتزينى ظن أن الجمهورية هى أهم ما يسعى إليه لكان يتناسب عمله وذلك الهدف على الأقل ، ولكنه وضع الوحدة فوق الجمهورية ، كما وضع الاستقلال عن النمسا فوق الجمهورية والوحدة جميعا ، ومع ذلك عجز عن أن يكبح جماح تعاليمه الجمهوريه طويلا ، فى حين أن السياسى العاقل هو الذى يتغاضى عن الغرض الأصغر فى سبيل الغرض الأكبر . ولعل مرد هذا هو اقتناع ماتزينى بأن بيدمونت لا ترمى إلى الوحدة إطلاقا ، وأن النمساويين لا يخرجهم من إيطاليا إلا أن يهب الشعب هبة عظيمة . ولم يقلع ماتزينى عن هذا الاقتناع إلا فى لحظات من الهدوء ، فى حين أنه لو قاس الشعور الإيطالى قياساً محكما لتجنب الزلل ، ولزالت عنه ريبته العميقة

فى بيدمونت ، ولانتهت عداوته المريرة لـكافور ، ولخفت مبالغاته فى قوة حزبه ، وكانت هذه المبالغات تدعو إلى الرثاء حقا .

ولـكننا يجب أن نعذر ماتزينى ؛ فقد كان منفيا والمنفى بحكم منفاه لا يعرف إلا بعض المعلومات فقط ؛ ولذلك لم يكن يعرف أن حكومة بيدمونت — وكانت حاسمة متشددة مثله — جردته من كل نشاط فى بلده ، فى حين أنه لو كان فى تورينو على اتصال يومى برجال الأحزاب الأخرى لأصبح هو وهم قوة عظيمة من أجل الخير ؛ وهكذا كان رجال الحكومة فى بيدمونت هم السبب فى إهدار وطنية ماتزينى التى أسف عليها الناس .

كلا ، بل إن ماتزينى عز عليه أن يدرك الحقائق الجديدة : فقد كان صليب الرأى ككل صاحب دعوة ، وكانت عقيدته إصراراً حادا ، بل كانت معقدة تعقيداً شديداً يجعل فهمها متعذراً إلا بعد طول الجهد والعناء ، وكتب هو عن عقيدته السياسية فقال : « ربما أكون مخطئاً ، ولـكن عقيدتى من العمق بحيث يصعب على أن أعدلها أو أبدلها » ؛ ولذا لم يكن يقبل النصيحة : فإذا اختلف فى شىء والناس هاجمهم هجوما مرا بدل أن يفحص أسباب هـــذا الخلاف ؛ فكان الرجل الحزبى المختفى فى إهابه يضخم حتى يطغى على رجل السياسة فيه ، إذ مع إصراره على أنه ليس من حق أحد أن يفرض آراءه على الإدراك العام للشعب — كان هو آخر من ينحنى لقرار الشعب إذا كان هذا القرار ضده ؛ ومن ثم أضر بمثله العليا أكثر مما أفادها .

وبالرغم من أنه قام بعمل متواصل ضخم ليدفع مواطنيه إلى وطنية عالية التفكير غير وانية ، وبالرغم من أن هدفه كان أبعد من هدف السياسيين جميعا — كانت رميته تخطىء هذا الهدف ، ولكنه ظهر عليهم جميعاً فى المدى الواسع ؛ مما جعل المهمة صعبة على من ولوا وجوههم شطر هدفه العظيم حتى لو كانوا فى صدق وطنيته ، بل أحكم منه فى تدبيره .

ومهما يكن من أمر فإن النكوص مستحيل على من كان فى طبيعة ماتزينى؛ فهو محموم قلق على خلاص بلاده بحيث لا يستطيع أن يقف أو ينتظر ؛ فالجمود فى نظره خيانة لهذا المطلب السامى ، وأصر فى كلتا حياتيه العامة والخاصة على أن « التفكير والعمل » ينبغى أن يسيرا جنباً إلى جنب ، وأن المرء لا يحق له أن يقصر جهوده على الأدب ، ويؤخر دوره فى العمل السياسى الإيجابى ؛ ولذلك انتقد انتقاداً شديدا من كانوا يكتبون الأدب الوطنى فى إيطاليا بدل أن يدبروا الثورات ، وقال إن : « الأعمال هى كتب الجماهير » ولا سيما فى البلاد التى أغلب أهلها أميون .

فماتزينى فى الواقع — ككل الوطنيين الآخرين — قد دفعه إلى مايشبه الجنون ذلك الطغيان الضارى الذى صبه النمسويون والبابا وملك نابولى على بلاده التعسة ، فكتب إلى صديق إنجليزى بعد صدور أحكام الإعدام فى مانتيان يقول : « إن الانتصار الوقح للقوة الغاشمة ، ونفى إخواننا وقتلهم فى ثلثى أوروبا ، وتعاليم من حاربوا وماتوا فى هدوء ، والعار الذى نحسه

من أجل الذين يئسوا وخضعوا وباعوا أنفسهم — كل هـذا — لا يمكن أن تدوم حاله ، ويجب ألا تدوم ؛ نخير لنا أن نموت فى معركة الفخار الآثم ونحن نحارب أمام ناظرى الله ولواؤنا الوطنى منشور من أن نرى أفضل أراضينا تسقط واحدة إثر واحـدة تحت معول الجلاد ! » ؛ إذ كان من الخطيئة — فى نظره — أن يتريث الإيطاليون ، ولم ير حاجة للتريث ؛ فقد آمن — وكان محقا — بأن الشعب الذى أوشك أن ينال حريته يجب أن يعاود الكرة لنيلها ، فقال : « إن أحلام العنف قصيرة العمر ، بل هى تؤدى فى النهاية إلى انتصار الشعب الذى يرجو العدالة والحرية المقدسة ، ويحارب ويعانى من أجلهما » واعتقد أن الجماهير لا تنتظر إلا الإشارة البدء لتنهض وتلقى بأنفسها على النمسا ، وكان منطقه — كما هو دأبه دائماً — أن ما هو كائن لابد أن يكون .

ولما أدرك أنه لا يستطيع أن يعتمد على الطبقات المتوسطة للقيام بثورة وأن الأعضاء الذين كانوا قوة فى إيطاليا الفتـاة تحول أغلبهم إلى المدرسة البيدمونتية زرافات ووحدانا ، ولم يدخر هو وسعاً فى تعنيفهم ، فلم يرجعوا — انحصر رجاؤه فى العمال ، فى حين كان المعتدلون لا يكادون يقيمون لهم وزناً ؛ ورأى مادة عظيمة فى الصناع الإيطاليين المحتقرين الذين أسىء فهمهم ، غير أنه بالغ فى تقدير نفوذه عليهم حين قال : « هؤلاء هم رجالى المخلصون لى إلى حد العمى ! » صحيح أنه اكتسب أفراداً من هؤلاء الصناع كما اكتسب أفراداً

من جميع الطبقات بهمته النبيلة ، ولكن هؤلاء الصناع كانوا قليلى العدد فيما عدا جنوة وما حولها .

غير أن هذه السياسة كانت مستحيلة فى ذلك الوقت ولو أنها أوشكت أن تنجح سنة ١٨٤٨ حين كانت أوروبا تشتعل ، ولكن غاب عن ماتزينى أن الظروف تغيرت ، فلم يعد هناك أمل فى أن تمزق الحركة الديمقراطية الاوروبية العامة قوى النمسا ، كما أن جهوده فى جمع الديمقراطيين من البلاد المختلفة للمرة الثانية ولا سيما من إيطاليا والمجر باءت بالفشل فى كل الأحوال حتى بعد ذلك بسنوات : فإن انتعاش النمسا وظهور قوتها العسكرية وقيام الإمبراطورية الثانية فى فرنسا ، واستقالة بالمرستون فى إنجلترا ، وتدهور الديمقراطيين الألمان — كل هذا — قضى على الأمل فى كسب الحرب حتى لو ألقت إيطاليا فيها بكل قوات الشعب المسلحة من الجيوش النظامية والمتطوعين على السواء .

صحيح أن الشعب يستطيع أن ينال حريته حتى فى هذا الوقت لو سعى إليها بأى ثمن ، وواجه من أجلها التضحية الكريهة وصبر على حصد العدو المتطوعين غير النظاميين وتخريب البلاد ، وحارب من خلال الهزيمة حتى انتصر ، ولكن الرجاء الذى عقده ماتزينى فصمته الحقيقة الواقعة التى أخذ يعرفها فى مرارة ، وهى أن الإيطاليين — كبقية الشعوب — ليسوا شعباً من الأبطال المستشهدين ، وأن الفلاحين منهم ليس لديهم من الوطنية

الإيجابية إلا القليل ، وأن آلافاً من بقية الطبقات يهتمون بالكنيسة أكثر مما يهتمون ببلادهم ، بل إن سائر الطبقات ليس فيهم إلا النزر اليسير ممن فيهم تلك الاستماتة الفظيعة التى كانت فى الأمريكيين والهولنديين ، أو فى الشجعان الضوارى الذين لا يغلبون من الإغريق والإسبان .

وكانت هذه الأسباب هى التى بررت وجود الحزب البيدمونتى : فقد أدرك هذا الحزب الحقائق على كل حال ، وإن كان فى طبيعته جبانا محافظا ، فرأى أن الحماسة غير المنظمة لا تصح أن تكون عملا له وأن أى نهضة قومية ثانية فى الحال الحاضرة فى أوروبا تعنى مصيبة أشد هولا مما سبقها من المصائب وأن أية ثورة أخرى صغيرة حين تنتهى إلى نهاية بائسة تثبت فى الواقع أقدام الطغيان ، وتخمد حمية الوطنيين ، كما رأى أن أول واجبات بيدمونت أن تحافظ على حريتها الذاتية ، وليس هذا بالمطلب الهين فى حد نفسه ، وأن تجمع حولها كل مطامح البلاد وتنظمها وتزاوج ما بينها حتى تحين الفرصة التى يتوقع فيها النصر ، فقد تعلم البيدمونتيون من حوادث سنة ١٨٤٨ ، سنة ١٨٤٩ دروسا تختلف عما تعلمه نقادهم ، فكان النظام أهم شىء لديهم ؛ ولذلك لن يسمحوا للشقاق الذى يقع حول الوسائل أن يشل البلاد وهى أمام العدو ، ولن يرحموا النظريات الديمقراطية إلا قليلا ؛ فقد كانوا على استعداد ليظلموا المعارضين ، وليسحقوا الأقليات فى سبيل مصالح البلاد .

ورأى البيدمونتيون أن فيكتور عمانويل يجب أن يرأس الحركة ،

أن يكونوا هم قوادها . وكانت سياستهم تلك أضيق أفقا بطبيعة الحال من سياسة ماتزينى من الناحية النظرية ، كما كان ينقص حركتهم الشعر والمثالية اللذان أوحى بهما ماتزينى ، فلم يكن عندهم خيال رائع يدفع الشعب للنهوض بقوته التلقائية وتقرير مصايره وهو جمع قوى ملتئم ، بل كانت سياستهم تسليما بالاعتداء على الحرية الديمقراطية وشراء الأحلاف ولو كان عن طريق الإذعان مما يحط من كرامة البلاد .

ولقد حجبوا الوحدة ذلك المثال العظيم ، والتمسوا بلوغ الغاية بخطوات بطيئة وبطرق ملتوية ، وإن ادعوا أن الاستقلال والوحدة هما الأمران الجوهريان لديهم ، وفى هذا يتفق أفضل رجال الحزب البيدمونتى مع ماتزينى على حين كانت حقيقة اتجاههم أن يتبعوا أية سياسة ممكنة . وقد جعل هذا الشعور كتلة الوطنيين الضخمة تلتف حول علم بيدمونت ، وتدع ماتزينى يحتج وحده وقد تركته قائدا بغير أتباع !

وتمثلت الخصومة بين المدرستين فى كافور وماتزينى ؛ إذ كانا يختلفان فى طباعهما جد الاختلاف : فكافور أرستقراطى التعليم يبغض النظريات بغضا أصيلا ، نهاز يشق طريقه بخطوات بطيئة ويصبر عاما بعد عام ولا يخاطر فيفشل ، ويهدف إلى النجاح دون أن يلتفت إلى الوسائل أو الشرف الشخصى إلا قليلا . وهكذا بدأت بلاده تكسب .

أما ماتزينى فأسمى من كافور بطبيعته وثقافته وإن كان يقل عنه مقدرة :

كان ديمقراطى الديمقراطيين ، لا يثق فى الملك والنبلاء والطبقات المتوسطة ، حاد المزاج صريحا فى صداقته وعداوته على السواء ، صلبا لا يعرف الوسط من الأمور ، رسولا لا يهدأ ، يريد أن يقهر الجيوش بمبدأ الحق المجرد ، زائغ البصر فى المستقبل البعيد لا يرى العوائق الدنيوية والحقائق القاسية التى تحت قدميه ، أما كافور فكان يحتقر ماتزينى ونظرياته ، ويتشامخ عليه ويتكبر ، ويعتبره من عوامل المضايقة ، ويود لو رآه يُرمى بالرصاص !

كان كافور يعمل على كسب إيطاليا ما استطاع دون أن يخاطر كثيرا ؛ فقد كان وزيراً للتاج البيدمونتى ؛ ومن أجل ذلك لن يصنع ما من شأنه أن يعرض هذا التاج للخطر ، واقتنع بأن الطريق الوحيد لطرد النمسويين من إيطاليا هو التحالف مع فرنسا ، وظل ثابتا على رأيه هذا إلا حين يستخفه التفاؤل فى قوة إيطاليا ؛ ومن أجل ذلك لاطف لويس نابليون ، وطأطأ رأسه للخديعة ، واستبد بالجمهوريين ، ولم يكن لديه مانع من أن يستخدم الثوريين لو استطاع بشرط أن يكون ذلك على مسئوليتهم وفى سبيل عظمة الملكية ، كما كان يخفى مثله العليا ، ويضرب فى ضباب السياسة مفضلا أن يسىء الناس فهمه ؛ فلا عجب إذن إذا كان ماتزينى قد فهمه فهماً سطحيا بوجه عام ، ورفض أن يبحث إلى أى حد تشترك براجهما فى الأغراض العامة ؛ فكان من رأيه أن سياسة كافور البطيئة الصبور هى نتيجة ضعفه وعدم ثباته على مبدئه ، كما ظن فيه أنه سياسى وجل هياب يتألف الطغاة إلى حد ما ،

ويعنى بالحل الوسط أكثر مما يعنى بالحق، غير قادر على إلهام إيطاليا وروما، ولم يفهم سياسته إلا أخيرا .

كما كان يكره كافور ؛ لأنه يبادل نابليون المنافع ، وخيل إليه أنه يؤثر لوسيان ميرا ابن أخت نابليون بعرش نابولى ، وأنه يقيم وزناً لصداقة نابليون أكثر من إيطاليا . ولم يتحقق ماتزينى إطلاقا أن هذا السياسى اليقظ يحمل بين جنبيه روحا شجاعا تواقا ربما لا يقل عن روحه ثورة واشتعالا فى لحظات القتال .

وكان من الطبيعى أن رجلين هذا شأنهما من اختلاف الأخلاق — لا يعملان معا بإخلاص صادر من قلبيهما إطلاقا ، ولكن ربما يتبادلان المساعدة ، ويكمل كل منهما الآخر لو وجدا فى ظروف أخرى غير هذه الظروف . لقد أضاع الزمن القاسى كثيراً من وقتيهما فى عداوة مريرة لا داعى إليها ، ويرجع ذلك إلى أن ماتزينى كان فى المنفى وتعذر التفاهم بينه وبين كافور تعذراً مستديما . ولا ريب أن ماتزينى كان لديه ما يثير عداوته المستمرة ؛ فقد بذل لبلاده كل ما يستطيع ، ومع ذلك نفى من هذه البلاد التى يحبها ، فلا يراها إلا خفية فى زيارات نادرة ، ويختلس الخطا إلى قبر أمه ليلا « كمن يعكف على جريمة ! » ، كما عذب أتباعه واضطهدت آراؤه .

بيد أنه بالغ مبالغة مؤلمة فى سيئات المدرسة المخاصمة له ؛ فعندما سأل الحكومة البيدمونتية : هل هى مع النمسا أو ضدها ؟ وحين وصم الملكيين

بأنهم العقبة الكئود بعد النمسا فى عرقلة الحرية الإيطالية — كان يبين عن عزوف حزبى ، أو عن عجز حزبى يمنعه من النظر إلى الحقائق ؛ فقد توقفت رقابته لأحوال بيدمونت منذ سنة ١٨٤٨ ، ولم يعد يستطيع أن يرى إلى أى مدى غير كافور والملك من روح السياسة البيدمونتية تغييرا أساسيا ، فأكد تأكيداً قاطعا أن فيكتور عمانويل « لا يريد أن يكون ملكا على إيطاليا ، ولا يستطيع أن يكون ، وأنه من المستحيل عليه أن يحاول كسب الحرية الإيطالية ما لم يجبر على ذلك إجبارا ، ولو أنه كان يعتبره أفضل من وزرائه » .

ولكن ماتزينى كان أحكم رأيا عندما أبرق وأرعد لقيام التحالف ما بين فرنسا وبيدمونت ؛ فقد تكهن هو وآخرون بصعوبة الاتفاق ما بين لويس نابليون بجبنه وبين الإيطاليين بطموحهم ، كما تكهنوا بأن الساسة الإيطاليين سيعمدون إلى النفاق ليكفكفوا من شكوك نابليون ومخاوفه ، وكان ماتزينى محقا حين قال : إن مما يلطخ « اسم إيطاليا بالعار أن تلتمس خلاصها عن طريق نابليون وهو الذى سحق الجمهورية الرومانية وقلب لها ظهر المجن » .

. غير أن ماتزينى لم يواجه الحقيقة القاسية ، وهى أن النمسا لا يمكن أن تطرد إلا بهذه الوسيلة ، وكان إغفاله لهذه الحقيقة آتيا من محض كراهيته للإمبراطور نابليون ، فلم يحاول أن يتفق معه ؛ ولذلك غاب عنه أن نابليون كان بالرغم من جبنه يريد أن يعيد صياغة أوروبا على أساس مبدئه الشخصى

فى القومية ، ولم يفطن إلى هذا إلا بعد مضى سنوات وإن كان إدراكه لها غير كامل ، كما لم يفهم مطلقا مقدار رغبة الإمبراطور الطيبة لإيطاليا ومدى سياسته الخارجية التى سبق بها شعبه ؛ فقد ظن ماتزينى أن لديه استعلامات سباقة عن مشروعات نابليون ، ولكن هذه الاستعلامات كانت دائما ناقصة ومضللة ، ولم تكن كراهية ماتزينى منحصرة فى الإمبراطور وحده ؛ فقد كتب سنة ١٨٥٠ يقول : « إن عداوتى للفرنسيين تزداد كل يوم » فكان يعارض لويس بلان والاشتراكيين الفرنسيين معارضة مريرة ، ولكن من الغريب أنه لم يتهم أبدا الكاثوليك الفرنسيين الذين استحثوا الحملة على رومة والذين منعوا نابليون باستمرار من إبداء مشاعره الكريمة لإيطاليا غير أن ماتزينى بخس فيما بعد — قدر هؤلاء الكاثوليك بخساً تاما .

ولكن هل كان صلحه مع بيدمونت مستحيلا ؟

حدث أن دانيال مانين أحد الحكام الجمهوريين الثلاثة فى البندقية سنة ١٨٤٩ والذى يعتبر حكمه كحكم ماتزينى فى رومة إحدى الصفحات اللامعة فى تاريخ القرن الماضى — حدث أن دانيال هذا — أسس فى ذلك الحين جمعية قومية تقوم على الوحدة وإن كانت ملكية النزعة ، وأقر مع الساسة البيدمونتيين بالحاجة إلى النظام ، وأن هذا النظام لا يمكن أن يتوافر إلا بالموافقة على أن يكون فيكتور عمانويل قائدا اسميا ، ولكن مانين اشترط للأخذ بمبدأ الملكية أن يقبل الملك الوحدة ، فكتب إليه : « اصنع إيطاليا ونحن معك ، فإن لم تصنعها فلسنا معك » . وحاول أن يكسب

ماتزينى إلى صفه فقد كان جمهوريا مثله ، وكانت حياته الخاصة حياة نبل واضح ، كما كانت وطنيته صادقة أعظم الصدق يكدح كدحا فى سبيل الوحدة ويتميز غيظا — مثل ماتزينى — من وسائل كافور البطيئة ؛ فلماذا إذن لا يهجر ماتزينى حلمه المستحيل فى الجمهورية ، ويعمل مع مانين فى سبيل الغاية الكبرى وهو رجل ديمقراطى مثله ؟

غير أن ماتزينى رفض ذلك ، ولم يتعهد إلا بأن يرفع « راية الحياد » التى سبق أن رفعها فى سنة ١٨٤٨ ، فوعد بأن يترك أمر الاختيار ما بين الملكية والجمهورية إلى جمعية تأسيسية يكونها الشعب المتحرر فى المستقبل ، ولكن هذا الوضع وإن كان مقبولا لا ترد عليه اعتراضات خطيرة ، ومن هذه الاعتراضات أن هذا الوضع يشجع الاتحاديين على الإثارة والتهييج ، ويبعد الملك عن الحركة بطبيعة الحال ، فيجعل استتباب النظام أصعب مما كان . ولما أخذت الدولة تعلن الملكية ، واعترف ماتزينى بأنها محقة فى هذا الإعلان — كان ترك المسألة معلقة ولو فى الظاهر يدل على الانقياد لحرفية هذا الرأى أكثر من الانقياد لروح السيادة الشعبية .

ويلحق بهذا الخلاف الذى اشتجر بين ماتزينى وبين مانين ما دار بينهما من محاجة مشهورة حول « نظرية استعمال الخنجر » ؛ فقد كتب مانين سنة ١٨٥٦ خطابا مفتوحا يهاجم فيه نظرية الخنجر ، ويصفها بأنها « أكبر عدو لإيطاليا » ؛ وأرسل هذا الخطاب إلى صحيفة التيمس مستفزا ماتزينى ، فرد

عليه بقوله : « إن شعوره بكرامته واحترامه لبلاده ينبغى أن يمنعاه من الكتابة إلى مثل هذه الصحيفة » .

صحيح أن مانين فى خطابه لم يذكر ماتزينى نفسه ولكن الإشارة كانت مفهومة ، فرد عليه ماتزينى مستهزئا ساخرا . ولسنا مضطرين فى أيامنا هذه أن نرد على التهمة التى وجهت إلى ماتزينى بأنه يشجع على الاغتيال السياسى ؛ وإن كان الحق أنه تمسك بأن الاغتيال السياسى قد يكون صوابا فى بعض حالات نادرة وصفها بأنها : « لحظات استثنائية فى حياة الشعوب وتاريخها ، لا تحكمها القواعد العادية للعدالة البشرية ولا يستوحى فيها فاعلوها إلا الله وضمائرهم » . وبرر اغتيال الطغاة إذا كان هو الوسيلة الوحيدة للقضاء على الاستبداد الذى لا يطاق ، فكان من المألوف أن يعظم الناس بروتس وشارلوت كورداى .

وقال ماتزينى إنه من الزيغ أن يلتمس من أتباعه اتهام الرجال الذين حاولوا قتل لويس نابليون أو فرديناند ملك نابولى ؛ فقد قام هؤلاء الرجال بعمل يشبه ما قام به بروتس وشارلوت كورداى .

ولكن من الحق أيضا أن ماتزينى مقت الاغتيال السياسى فى غير هذه الحالات ، فقال عنه : « إنه جريمة لو ارتكب بقصد الانتقام أو القصاص الشخصى ، وهو جريمة كذلك إذا كانت هناك طرق أخرى توصل إلى الحرية كما أنه عمل خاطىء حين يرتكب ضد شخص لن يقبر طغيانه معه » ؛ ولذلك

عندما اتهمه كافور بالتآمر على قتل فيكتور عمانويل أجابه مستهزئا ، فقال . « إن حياة الملك مصونة ، وذلك لوجود الدستور ولعدم فائدة الجريمة » .

وأخلص ماتزيني لهذا الرأى فى كل الأحوال فيما عدا حادثة واحدة سيأتى ذكرها ؛ فقد نبذت جمعية إيطاليا الفتاة بوضوح تقاليد الكاربونارى فى اغتيال الخونة ، ولم تخرق هذه السنة التى استنتها طالما كان ماتزيني مؤسس هذه الجمعية ممسكا بزمامها ، ولكن الحكومة الفرنسية اتهمته كذبا سنة ١٨٣٣ بأنه أمر باغتيال بعض الجواسيس فى رودس ، ورددت هذه التهمة الزائفة بكثرة سنة ١٨٤٥ ؛ إذ كررها سير جيمس جراهام ، ولم يخجل مراسل صحيفة التيمس فى باريس ، فأعاد نشر هـــذا القذف بعد تسعة عشر عاماً من ذلك التاريخ ، فى حين أن ماتزيني عندما كان أحد الحكام الثلاثة فى رومة قمع حركة الاغتيالات فيها وفى أنكونا قمعاً عنيفا ، كما كان يجهل كل الجهل شروع أورسيني فى اغتيال لويس نابليون ، بيد أنه أنف من الدفاع عن نفسه وتبرئتها من مظنة الاشتراك فى هذه الجريمة : لأنه احتقر المطاعن التى كانت تنشرها الصحف وإن كانت تورية لا إفصاحا ، ولأنه رأى أن « أوروبا تحتاج إلى عفريت يخيفها وأن اسمه قد يفى بهذا الغرض ! » .

أما الاتهامات التى وجهت إليه بأنه كان على علم بمؤامرتى تيبالدى وجريكو ضد الإمبراطور نابليون فكانت من مزاعم (البوليس) الفرنسى بوجه قاطع فى المؤامرة الأولى ، وبوجه يغلب أن يكون قاطعا فى المؤامرة الأخرى . كما أن ماتزيني بعد مدة من الزمن ثبط المؤامرات التى قصد بها

اغتيال البابا وفيكتور عمانويل ، كما وقف مؤامرة أخرى كان يراد بها تفجير ست قنابل فى حفلة رقص أقامها نائب الملك النمسوى فى البندقية .

وهكذا لم يشترك ماتزينى فى مؤامرات القتل إلا فى حال واحدة حدثت فى أوائل حياته ، وكان ذلك فى أثناء الاستعداد لغزوة سافوى ؛ إذ جاءه شاب كورسيكى ، هو أنطونيو جالينجا الذى أقام بعد ذلك فى إنجلترا ، ثم أصبح مراسلا خاصا لصحيفة التيمس فى إيطاليا مدة من الزمن ، جاءه هذا الشاب الكورسيكى يعرض عليه خطة أعدها لاغتيال شارل ألبرت انتقاما منه لأحكام الإعدام التى نفذها فى أهل جنوة ، فحاول ماتزينى أن يثنيه عن عزمه ، ثم اقتنع أخيرا بأن كالينجا هذا هو مبعوث العناية الإلهية « ليعلم الطغاة أن حياتهم قد تتوقف على إرادة فرد واحد » كما قال ، وزوده بوسائل السفر إلى تورينو ، وأرسل له خنجرا ، ثم لم يعر المسألة بعد ذلك إلا قليلا من التفكير ، وربما كان الأمر قد انتهى به إلى تصوره أن كالينجا لا يقدر على هذا الفعل .

كما اتهمه مانين بأنه يقر استعمال السكين فى الثورات الشعبية ، فرد عليه ماتزينى ردا سهلا وإن كان أقل حذقا من رده السابق فى مسألة الخنجر ، فقد قال: إن من الرياء ألا نسمى إطلاق الجندى النار من بندقيته على العدو قتلا على حين نسميه كذلك إذا ضرب الصانع الإيطالى المتآمر جنديا نمسويا بالسكين ، وهو السلاح الوحيد الذى يملكه ! ولكن ماتزينى أوهن نظريته

هذه » عن الحرب غير النظامية ، حين جعلها تتناول حادثتى روسى ومارينوفيتش ، وقد قتل فيها رجال غدراً فى أثناء الثورات ، وكان ذلك بقصد الانتقام السياسى أو الشخصى مع أنه سبق أن استهجن اغتيال روسى استهجاناً قويا ، كما كان يجهل الحقائق فى حادثة مارينوفتش ، غير أنه من العسير علينا أن نبرر إرساله أورسينى ليعد رجالا يفاجئون الضباط النمسويين فى ميلانو ، ويقتلونهم إشعالا لنار الثورة ، وليس هذا العمل بأدنأ من الناحية الأخلاقية من بعض القواعد المقررة فى الحرب ، غير أنه يعتبر ضربة محزنة لماتزينى الذى عُرف عنه تقديره للحياة البشرية وتقديسها .

•

وهكذا كانت نظريات ماتزينى تضرب فى الأشواك فى تلك السنوات ، كما كان عمله السياسى قصة تدعو إلى الرثاء ، قصة من المجهود النبيل الذى أخفق والغرض السامى الذى ضيعه العناد والعجز : ففى خريف سنة ١٨٥٠ أنشأ اللجنة الإيطالية القومية التى كانت فيما زعموا خلفاً شرعيا للجمعية فى الجمهورية الرومانية ، وكانت هـــذه اللجنة منظمة جمهورية فى الباطن وإن لم تكن كذلك فى الظاهر ؛ فقد كتب عنها ماتزينى يقول : « إن المنشور الذى أصدرته اللجنة معتدل ، ولكن يقف من ورائه شخصى أنا الذى أفكر فى الجمهورية » .

واكتنف الغموض اللجنة منذ البداية ، فهاجمها الجمهوريون المتشددون ، واتهموها بأنها بعيدة عن العقيدة . ونأى عن هذه اللجنة واحترس منها

أشد أعداء الديمقراطيين ، وهم الذين تعلموا الإيمان بملكية بيدمونت ، وثار آخرون على ماتزينى ، واتهموه بالدكتاتورية التى لا تطاق ، وكانوا محقين فى هذه التهمة إلى حد ما ؛ فقد كان ماتزينى فيما مضى يستجيب فى إعزاز وإخلاص لكل تعبير عن الطموح الشخصى ، أما الآن فيتطلب طاعة مستحيلة من أتباعه العمال !

وانضم إلى هذه اللجنة بعض الأتباع فى المدن اللومباردية بإيطاليا ، فكان ماتزينى يفخر ويقول ، ولعله كان جادا ؛ إن العلم الجمهورى سيخفق على الكيرينال فى السنة القادمة .

أما خارج المدن اللومباردية فلم يكن لهذه اللجنة من القوة الحق إلا النزر اليسير ؛ إذ كانت مفككة ، ففقدت التأثير على الناس ، وأخذ المنفيون ينسحبون منها واحدا إثر واحد حتى انفضت سنة ١٨٥٣ ، كما أخفق القرض الوطنى الذى عقد عليه ماتزينى آمالا كبارا : إذ قصد أن يجمع من ورائه رصيدا ماليا للثورة ، فأصدر سندات لتعتمدها الدولة الإيطالية فيما بعد ، وقال : « إن هذا أول عمل لحرب مالية نثبت بها أن القوة الجماعية لرءوس أموال الديمقراطية الصغيرة يمكن أن تبارى أصحاب رءوس الأموال الضخمة من الملكيين والاستقراطيين القلائل » .

ويبدو أن كمية كبيرة من هذه السندات قد أرسلت إلى إيطاليا ، ولكن الدخل الذى جاءت به استهلك فى نفقات الإثارة والتآمر .

وكان ماتزينى قد اقتنع إلى ذلك الوقت بأن يؤجل الثورة حتى تبدو لها بارقة نجاح ، ولكنه — للأسف — اتصل بجمعية ثورية من الصناع فى ميلانو وإن تردد بادئ الأمر فى تشجيعهم على الثورة ، إلا أن أحكام الإعدام الطائشة التى أصدرها النمساويون على بعض المتآمرين فى مانتوا دفعت هؤلاء الصناع إلى الجنون ، فقرروا أن يثوروا سواء أساعدهم ماتزينى أم لم يساعدهم . وبالرغم من أن ماتزينى لم ترتح نفسه لهذا المشروع الذى لا أمل فيه دفعه سخاؤه وتشوقه إلى مساعدتهم ، فبذل كل ما فى وسعه ليوجد لهم مالا ورجالا يعطفون عليهم .

وأخيراً ذهب سنة ١٨٥٢ إلى لوكارنو متخفياً ليتم إعداد الثورة وقد تحدد لها يوم الكرنفال فى ٦ من فبراير ، وفى نهاية هذا اليوم توجه ماتزينى إلى الحدود فى شياسو متأهبا للذهاب إلى ميلانو حينما يدعوه الثائرون ولكنه علم بأن الثورة ذهبت بددا ، وانتهى أمرها إلى شغب دموى مضطرب ، فى حين أنه كان يمكن أن تصادف بعض النجاح لو نظمت تنظيما أفضل . فكان فشلها شؤما عليه ؛ إذ عاد بسمعة محطمة تحطيما مروعا ، وألقيت مسئولية هذا الفشل على عاتقه ، فرضى بها مع أن دوره لم يتعد المشاركة فى الخطة التى وضعها غيره .

كما أن أصدقاءه فى إيطاليا نشروا دعوة كان قد كتبها كوست منذ عامين يحض فيها الفرق المجرية فى الحاميات على التمرد ، وسواء أكان كوست

قد خول لهم هذا النشر فى هذا الوقت أم لم يخولهم فقد غيروا فى نصوصه بغير مبرر . وكان ماتزينى مسئولا على الأقل عن عدم اتخاذه الاحتياطات لمنع هذا النشر ، بل زاد الأمر ضغثاً على إبالة حين صرح بأن الذين يخاطرون بحياتهم من أجل البلاد غير مطالبين بتنفيذ القواعد الدقيقة فى الأحوال العادية تنفيذاً محكما ، فكانت حماقة هـذا العمل وسوء إدارته كما كان الإشفاق على الأرواح التى أهدرت والشعور بأن هـذه النهضات التى لم يحكم تدبيرها تعوق الهدف الوطنى ، بل تفسد أمره فى نظر أوروبا — كان هذا كله — دافعا للناس إلى الإسراع فى الهرب من حزب ماتزينى ، فأخذ أتباعه من الطبقات المتوسطة يتقلصون حتى لم يبق منهم أحد بالرغم من أنه ظل قابضاً على زمام الصناع فى بعض مدن الشمال وإن ضعفت قبضته عليهم عن ذى قبل .

ويئس ماتزينى حين شعر بأنه كما قال « ملعون من الجميع ؛ كأنما تراكمت على رأسه خطايا إسرائيل » ، وتحاملت عليه الصحافة البيدمونتية ، وانطلقت تسبه فى بذاءة شائنة ، بل حاول بعضهم قتله ، وأحنقه الشعور بالهزيمة ، كما حزن على المتآمرين الذين عانوا الآلام من انتقام النمسا الوحشى .

وبدل أن يأخذ من هذا الإخفاق عبرة وعظة انفجر يهجو البيدمونتيين واندفع فى المشروعات الثورية اندفاع اليائس المجازف بكل شىء ، وضل ضلاله حين ظن الظنون بما حدث من اتفاق بين فرنسا وبيدمونت ،

فقد خيل إليه أنهما تفاهمتا على إيجاد محميات فرنسية فى جنوبى إيطاليا ووسطها ، فتاقت نفسه للقضاء على هذا التفاهم بأن يدفع الحركة الوطنية نحو الوحدة ونحو الحرب الثورية ضد النمسا ، وأعد لذلك خطتين :

إحداهما أن يثير ثائرة إيطاليا الجنوبية ، غير أنه لم يستطع فى ذلك الوقت إلا أن يبذر بذور هذه الخطة فقط وإن كان مشوقا تواقا للعمل المباشر .

والأخرى أن ينظم حرب العصابات فى الألب والأبنين الشمالية ، ويشجع المدن اللومباردية على التمرد .

كما اقتنع بأن المسألة الشرقية نضجت نضجا كبيرا مما يجعل الفرصة سانحة لمهاجمة النمسا ؛ فإن سياستها المتأرجحة بين الدول الغربية وروسيا جلبت عليها كراهية الطرفين مما اضطرها إلى سحب حامياتها من إيطاليا وحشدها على الحدود الروسية .

وداعب ماتزينى أمل غامض بأن أمريكا ستساعده ؛ فقد رحل كوست إلى الولايات المتحدة سنة ١٨٥٢ ، وألقى فيها محاضرات أثارت غضب الأمريكيين على النمسا ، كما أن عداء إنجلترا وفرنسا للولايات المتحدة أهاج الحكومة الأمريكية وكانت هذه الحكومة تدبر خططا للاستيلاء على جزيرة كوبا ، فرجا ماتزينى أن تشجع القوات الثورية فى أوروبا لتشغل الدول العظمى بشئون بلادها ، وأقام جورج ساندرز القنصل الأمريكى فى لندن مأدبة غداء لماتزينى وكوست ولدرو رولان شربوا فيها نخب التحالف المقبل

بين أمريكا وبين اتحاد من شعوب أوروبا الحرة ، وعلق ماتزينى على هذا آمالا كبارا ، فدرس الخرائط العسكرية مع كوست ولدرو رولان فى غابة سان جون ، كما ذهب متخفيا إلى باريس وإيطاليا سنة ١٨٥٤ ، وقضى معظم وقته فى جنوة ، وزار فى طريقه جيوديتا سيدولى ، وقد أمست فضية الشعر وإن ظلت كعهدها رقيقة عذبة . وأقلقت تحركاته كل (بوليس) إيطاليا وفرنسا وسويسرا ؛ فقد كان بالغ الروعة فى رحلاته السرية ، ماهراً فى تخفيه جريئاً فى هربه ، حتى شاعت عنه أغنية تنسب إلى « دول أونجارو » يقول فيها :

« تتساءل أشجار الصنوبر عن ماتزينى أين هو ؟ »
« هو على سفوح الألب والأبنين حيث جثا الطغاة »
« على ركبهم خائفين مذعورين ينتظرون مصيرهم المحتوم »
« وحيث وقف الوطنيون تواقين إلى بذل دمائهم من أجل إيطاليا »

وكتب ماتزينى إلى إنجلترا يقول : « إن شعب إيطاليا يتطلع إلى العمل، وسينهض توا ما لم يكن ذلك الشعب خاملا خانعا إلى حد غير مألوف »

وكان يأمل القضاء على نفوذ الملكيين فيما لا يجاوز الشهرين ، فيخلو الميدان له ، فذهب إلى أنجادين فى أغسطس من ذلك العام يرتب للثورة فى ريف فالتتين وكومو ، ولكن (البوليس) السويسرى شتت شمل المتآمرين وكاد ماتزينى يعتقل .

تحطمت آماله فى عزلة النمسا : فقد انضمت إلى الحلف الغربى اسما ، وتبعتها بيدمونت ، فأرسلت فرقة من جنودها إلى القرم ؛ وهكذا خاب فأل ماتزينى خيبة مرة ، فحنق على السياسة الإنجليزية والبيدمونتية ، وأخذ ينفس عن ذات نفسه ، فانتقدهما انتقادا مرا ، وكان نقده لبيدمونت خاصة عنيفا كالا رحمة فيه ، كما أن موافقة كافور على هـــذا الحلف الغربى كانت سبباً فى حيرة أتباعه .

وليس من السهل علينا أن ندرك عن يقين حكمة هذا الحلف ولو من ناحيته الأخلاقية ، وإن كنا نعرف على كل حال أن مسألة القرم إنما وضعت لتكون « طريقاً إلى حل مسألة لومبارديا » ، ولكن ماتزينى أعمته حزبيته ، فلم ير فى هذه المسألة إلا دليلا على أن كافور يميل إلى المستبدين أكثر مما يعطف على المستبد بهم .

وتراءت لماتزينى تلك الفترة فراغا لا أمل فيه ، وفقد بهـذا الإخفاق روحه المعنوى ، فتاق إلى إيجاد عمل آلى يسكن به آلامه أو ينفجر فى عمل يائس ، فكتب يقول : « إنى أحلم بإيجاد عمل وأهذى وأتحرق باحثا عن أى عمل جسمانى ، لقد أسقمتنى الدنيا ومشاغلها ، وأريد أن أصبأ » ، كما كتب إلى صديق يقول : « إن الحياة تثقل علىّ بكل معنى الكلمة ، وقد أصبح شعورى نحو بلادى ـــ سواء أكان مصيباً أم خاطئا ـــ لا يطاق ، ولو كنت أصغر سنا لآويت إلى جبل ومعى عشرون أو ثلاثون لأصبأ ، ولكننى

كما تعلم لا أقدر إلا على تحطيم نفسى ، وأنا أتصنع الابتسام حتى أتجنب تعذيب الآخرين »

وفى السنة التالية (سنة ١٨٥٦) انتعشت آماله فجأة : فقد لاحت له الفرصة ؛ فإن كافور سيساعد سرا الثورة التى ستقوم ضد دوق مودنيا فى ريف «كرارا» ، وكان كافور وهو رئيس وزراء بيدمونت يفكر فى خلال هذه السنة والسنتين التاليتين فى مشروعات منجمة ليثير بها ثورة فى مودينا تؤدى إلى ضم الأراضى المجاورة لها ، أو تؤدى إلى حرب مع النمسا فيضطر لويس نابليون إلى إرسال جيشه عبر الألب ، فسمح لماتزينى أن يزور جنوة حيث اتصل به ، ولكن لا سبيل لمعرفة تفصيلات المؤامرة التى كانا يدبرانها . وعلى أية حال استحال عليهما الوصول إلى اتفاق ، فكتب ماتزينى إلى إنجلترا يقول : « إن رجال الحكومة البيدمونتية كالطاعون ، وأنا أتصل بهم اتصالا غير مباشر ، وأحاول معهم شتى أنواع الاتفاق ، ولكن دون جدوى . إن وضعى بين المتطرفين من رجالى وبين حزب البيدمونتيين دقيق جدا وصعب ؛ ولذلك أنذرتهم إنذارا نهائيا إذا قبلوه فقد تم الصلح بيننا ، وإن لم يقبلوه تصرفت كما أشاء »

وعندما دب الشقاق بينه وبينهم عاد إلى خططه التى أعدها لإثارة جنوبى إيطاليا وظل عامين يعمل جاهدا فى نسج خيوط المؤامرة التى قام بها كريسبى وآخرون فى صقلية ونابولى ، وقابل غاريبالدى فى لندن ، وناقشه فى إرسال

حملة إلى جزيرة صقلية ، فوعد غاريبالدى بالذهاب إليها لو ثار الصقليون .
ولما كان كافور على استعداد للتعاون معهما فقد لاح الأمل مرة أخرى
فى أن يساعد هذه الحركة مساعدة سرية ؛ فقد رأى الوطنيون جميعاً الخطر
الذى ينجم من تنفيذ نابليون لخطته فى تأمير لوسيان ميرا ابن أخته على عرش
نابولى ، ولم يكن كافور يجرؤ على معارضة نابليون إلا أنه ود لو قضى على هذه
الخطة ؛ إذ كان يريد أن يضيف صقلية إلى ملك فكتور عمانويل ، فوعد —
فيما يظهر — بأن يمد مشروع ماتزينى بالمال ، غير أنه تراجع لسبب
غير معروف .

ورفض ماتزينى أن ينزل عن مشروعه ؛ فإن أهل جنوة المتآمرين كانوا
يتوقون إلى تنفيذه سواء أراده أم لم يرده ، فذهب ماتزينى إلى إنجلترا ليجمع
مالا لهذا المشروع . وعاد إلى جنوة ليتمه .

وأخذ كارلو بيسا كان صديق ماتزينى وزميله فى المنفى — وهو أحد
دوقات نابولى ، وكانت له آراء اشتراكية لا تتفق إلا قليلا مع آراء ماتزينى —
أخذ هذا الدوق — باخرة يتردد بها على جنوة وساردينيا ، ثم يذهب
إلى كالابريا ليمد الثائرين فى الجنوب بالرجال ، ويجمع البلاد على الوحدة ،
ولكن هذه المؤامرة ارتبطت بمؤامرة أخرى كانت محل نظر : فقد تقرر
أن على المتآمرين الذين يتخلفون عن الذهاب إلى صقلية أن يستولوا
على الحصون فى جنوة وليجهورن ، ويرسلوا ما فيها من ذخائر إلى بيسا كان .

وبالرغم من أن ماتزينى أيقن خطر هذه الحركة وأنها ستؤدى إلى حرب أهلية، وستؤول على أنها حركة من أجل الجمهورية لا من أجل الوحدة — بالرغم من كل ذلك — سهل عليه أن يقتنع بهذه الخطة ؛ إذ خيل إليه أنها ستثبت على كل حال التعاون بين الشمال والجنوب ، وستدفع إلى محاربة النمسا ، وتمنع قيام المحالفة الفرنسية ، ولكنه لم يجاهر بأمله فى أن تعمل هذه الحركة فى سبيل الجمهورية ، فاتخذ احتياطات دقيقة ليمنع المتآمرين من أن يثأروا من المحافظين من أهل جنوة ، وليمنع أى صدام مع الفرق العسكرية ، ثم ألقى بنفسه فى هذه المؤامرة الجنونية .

فاستولى بيساكان على كاجاليارى ، ثم ذهب إلى قضائه وقدره . ولما وجد ماتزينى أن الحكومة اشتمت الخطة التى وضعت للاستيلاء على الحصون حاول أن يمنع هذه الخطة فى اللحظة الأخيرة ، ولكن الوقت أفلت وانتهى الأمر إلى قتال فى الشوارع وخسارة فى الأرواح قليلة .

وكان ماتزينى قليل الثقة فى أمانة الحكومة ؛ لأنها ضربت زملاءه المتآمرين منذ أشهر قليلة ضربة قاسية ، وهكذا كان : فقد أساءت الحكومة عن عمد إلى هذه الحركة ، فصورتها بأنها حركة فوضوية ، وفر ماتزينى وخمسة آخرون حكم عليهم بالإعدام بتهمة التمرد ، كما حكم على غيرهم بالسجن مددا مختلفة .

ولجأ ماتزينى إلى المركيز أرنستو باريتو ، وهو قريب لرئيس وزراء

بيدمونت سنة ١٨٤٨ »، فأخفاه فى منزله ففتش (البوليس) المنزل وسبر الحشايا وأثواب المركيزة بسيوفه بحثاً عنه ولكن ضاع ذلك عبثا ، وشاعت الشائعة بأن ماتزينى فتح وهو متنكر فى زى خادم باب المنزل لضابط (البوليس) ، وكان هذا الضابط من أتباع مدرسته القدماء ، ولربما عرفه ، وبعد بضعة أيام خرج ماتزينى من مخبئه وسار علانية ، يضع ذراعه فى ذراع إحدى نساء جنوة ، بل سأل الحارس عن كبريت لسيجاره ، فما ارتاب أحد فيه ، ثم رحل إلى كارتو ، وظل فيها مختفيا آمنا حتى جاءته أنباء كارثة بيساكان .

الفصل العاشر

اكتساب نصف الوحدة

١٨٥٨ — ١٨٦٠ — من الثالثة والخمسين إلى الخامسة والخمسين

حرب سنة ١٨٥٩ — فى فلورنسا — خطط من أجل الجنوب — حملة غاريبالدى — غزوة تدبر فى أمبريا — فى نابولى.

رجع ماتزينى إلى إنجلترا متعباً حزيناً وإن لم يكن خائر العزيمة؛ فقد اقتنع بأن النجاح ليس إلا مسألة فرصة وإدارة، وعرف أن المد يرتفع فى جانب الملكيين ارتفاعاً كبيراً وإن اعتقد أن الطبقة العاملة لا تزال فى جانبه.

إن دور كافور المزدوج وقسوته فى إخماد المؤامرة فى جنوة جعلا ماتزينى يهاجم الملكية ورجالها هجوماً أشد مرارة من ذى قبل؛ فكتب إلى كافور رئيس وزراء بيدمونت خطاباً مفتوحاً يقول فيه: «أنا لم أحبك قط فيما مضى، أما الآن فإنى أحتقرك!».

وكذلك هاجم ماتزينى المحالفة القوية مع فرنسا؛ فقد خيل إليه أن المصلحة السياسية وحدها هى التى تسير الإمبراطور بالرغم من أن الإمبراطور كان

يدبر خططه ليطرد النمساويين من إيطاليا . ولا ريب أن الإمبراطور قد خبا بريق هيبته فى وطنه ، كما كان يخشى من ظهور أورسينى آخر يغتاله ، فأثر هذان الأمران عليه ، ولكنه ظل مع ذلك صادقا إلى حد ما فى مثله القومية كما ازدادت رغبته فى تحرير إيطاليا والمجر منذ أن ضحى ببولندا فى سبيل المحالفة الروسية .

وكان ماتزينى من أوائل الذين كشفوا عن اتفاق كافور مع الإمبراطور فى بلمبيير ، وقد وصلت هذه المعلومات إلى ماتزينى عن طريق مخابراته الخاصة ، وكانت هذه المخابرات كعادتها غير دقيقة ، فاعتقد ماتزينى خطأ أنهما اتفقا على ترك إقليم البندقية للنمسا وإعطاء الأمير نابليون إيطاليا الوسطى ، وأن كافور عرض التخلى عن الحريات البرلمانية فى بيدمونت ثمنا لضم لمبارديا إليها ، فلم يكن ماتزينى يعلم أن نابليون تعهد بأن يعطى الملك فيكتور عمانويل نصف الإقليم البابوى .

ومرت الحوادث سراعا . ففى ربيع سنة ١٨٥٩ أضحت الحرب أمراً محتوما ، وأخذت إيطاليا تهتز لهذه الحرب بفضل سياسة كافور الماهرة الجريئة ؛ إذ كان من الجسارة والذكاء بحيث استخدم العناصر الثورية التى أصر ماتزينى على أهميتها إصراراً شديدا ، فتدفق المتطوعون إلى بيدمونت وعلى رأسهم غاريبالدى ، كما نادى كل الجمهوريين بفيكتور عمانويل قائدا ما عدا ماتزينى وكريسبى وحفنة من الرجال على غرارهما ، بل إن ماتزينى

جرفه التيار فى بعض الأحيان حتى قال لأصدقائه الإنجليز : « إن الملكيين والجمهوريين على السواء يهدفون إلى الوحدة » ، كما أهاب بالساسة البيدمونتيين أن يعلنوا السياسة الكبرى ، وهى الوحدة ، وأبدى استعداده لمساعدتهم إذا ما انهارت المحالفة الفرنسية ، أما قبل ذلك فلا يستطيع أن يوافق على مساعدة تأتى من الإمبراطور البغيض.

وغفل عن الحقائق القاسية ، فظن أن بيدمونت تستطيع أن تهزم النمسا دون أن يعاونها حليف اللهم إلا ثوار المجر المترددون ، ورأى أن طلب المساعدة من مستبد — يلطخ احترام البلاد لنفسها ، وأن حصولها على حريتها بغير قوتها الذاتية — يحط من شرفها منذ البداية ، وأن استبدال رعاية فرنسا المتغطرسة بطغيان النمسا المستبدة — ليس إلا مكسبا زهيدا للإيطاليين ؛ فكتب يقول : « إنى عدو للنمسا ولنابليون على السواء ، وأهدف إلى التخلص منهما معا إن أمكن ».

وعندما أعلنت الحرب قال كافور وماتزينى كلاهما : « إن النرد قد ألقى » وأضاف كافور : « لقد صنعنا التاريخ » ، وعقب ماتزينى : « لقد هزمنا ».

غير أنه لما بدأ القتال ، وجاست الحماسة خلال البلاد ، وأصبح لويس نابليون إلى حين بطلا فى نظر المواطنين الإيطاليين تاليا للملك وغاريبالدى — لم يستطع ماتزينى أن يمسك عن القتال : إذ رأى من الواجب عليه أن يبذل أقصى ما يستطيع للحرب سواء أكانت هذه الحرب صائبة أم خاطئة

عسى أن تصنع إيطاليا فى النهاية ؛ وطردت مودينا وپارما وروما نا وتوسكانيا أمراءها ، وأعلنت حكم فيكتور عمانويل لها .

وحينما كانت الجيوش تستولى على لمبارديا وإقليم البندقية كان ماتزينى يود لو يرى القوات الشعبية تقضى على سلطة البابا الزمنية ، ودعا أصدقاءه فى نابولى أن يثيروا ثائرة الجنوب وألا ينضموا إلى بيدمونت فى أثناء الحرب، وامتلأ بالأمل بعد موقعة سولفيرينو فقال : « إن حكم النمسا لإيطاليا قد انتهى ».

وعلى حين غرة وقعت الخيانة العظمى فى « ڤيلا فرانكا » : فلويس نابليون خشى الهزيمة فى إقليم البندقية ، وخاف هجوم بروسيا عليه ، وندم على الوعود التى بذلها لكافور ، فسالم النمسا ، وترك إقليم البندقية لها، كما ترك إيطاليا الوسطى للأمراء الفارين ، فأيقن ماتزينى صدق تكهنه ، واعتبر أن موقف لويس نابليون هو نتيجة للخيانة التىدبرت فى بلومبيير ، لانتيجة لجبن لويس نابليون ولا للمصاعب الحق فى الحرب ، كما اعتمد مرة أخرى على مخابراته الخاصة الناقصة ، فظن أنه اكتشف تفاهماً ما بين فرنسا وروسيا على تقسيم أوروبا إلى مناطق نفوذ ، وأن ڤيلا فرانكا هى تمهيد لمحالفة ثلاثية بين الإمبراطوريات الثلاث (فرنسا ، النمسا ، روسيا) فأبرق وأرعد ضد هذا « الانقلاب الأوروبى » ، وأثار مخاوف إنجلترا ، ودعا إلى عصبة تتكون من إنجلترا وبروسيا والدول الصغيرة للدفاع عن الحرية

الإيطالية ، وخاطب مشاعر البلاد فحض مواطنيه على أن يتهاونوا فى حزبيتهم ، وحثهم على إكمال العمل الذى بدءوه بالرغم عن فرنسا والنمسا .

واستقال كافور غاضبا أشد الغضب من نكول الإمبراطور عن القتال ، ولكن نفوذ كافور ظل مع ذلك قويا جدا،فأصر هو والملك وزعماء فلورنسا ومودينا كما أصر الديمقراطيون على وجوب إنقاذ إيطاليا الوسطى على الأقل ، فأدى إصرارهم هذا خلال فصل الخريف إلى القضاء على اعتراض الإمبراطور الذى لم يكن صادرا من كل قلبه ، واستحثوا الرجال الضعاف الذين تولوا الأمور فى تورينو ، غير أن مفتاح الموقف كان فى يد فلورنسا وحدها ؛ فقد آمن زعيمها ريكازولى (البارون التوسكانى الشديد البأس) إيمانا عميقا مثل ماتزينى بأن إرادة الله قد كتبت الوحدة الإيطالية التى ستؤدى إلى نتائج بالغة فى العالم ، كما كان ريكازولى أيضا يزدرى نابليون ، فلم يخف من تهديده ووعيده .

وأسرع ماتزينى إلى فلورنسا ، فوصل إليها فى أوائل أغسطس ، وكانت الحكومة البيدمونتية — ويا للعار — قد استثنته وهو أعظم الإيطاليين الأحياء من العهد الذى قطعته على نفسها فى بداية الحرب بالعفو العام عن المحكوم عليهم ، بيد أن ريكازولى سمح له أن يمكث فى فلورنسا آمنا مطمئنا على ألا يذيع نبأ حضوره إليها ، وكان هذان الرجلان يشتركان فى غير قليل من الصفات : فكلاهما لا تشوبه شائبة فى حياته الخاصة ، وكلاهما شجاع أمين

وطني حر الفكر غير أن الحق أنهما لم يتفقا على العمل معا ، ولكن كلا منهما احترم الآخر .

وكان ريكازولى واسع التفكير على عكس ساسة تورينو الضيق الأفق الذين أحجموا عن الاتصال بأحد من الديمقراطيين ، كما أن ماتزينى ظل فى أثناء الحرب متمسكا بسياسته التى ترمى إلى جعل الحركة حركة الشعب بقدر الإمكان .

وأصدر ماتزينى لأهل فلورنسا نداء يستنفرهم إلى هذا العمل العظيم فقال : « إنكم دعيتم إلى خلق الشعب ، وهو عمل من أعمال الله » ، ورأى أن تتمسك الأقاليم الحرة بحريتها أشد التمسك ، كما أدرك أن لويس نابليون لن يستطيع تنفيذ أغراضه ، وأن الدول العظمى يجب أن توافق على الحقائق التى تمت . ولم يتحدث عن خطر الهجوم النمسوى إلا قليلا بالرغم من أنه كان يعلم فى قرارة نفسه أن الأخطار أشد مما أعلنه على الناس ، واعترف فى خطاباته الخاصة بأن « الموقف صعب جدا » ؛ لأنه لو انعقد مؤتمر الدول العظمى الذى كان مقترحا عقده ، وأصدر قراراً فى صالح الأمراء المنفيين ما استطاعت إيطاليا أن تحتج احتجاجا ذا قيمة إلا إذا خاضت معركة حربية.

وكان ماتزينى يرجو لو أن نابليون استعمل القوة على أية حال ، فإن محاربة فرنسا كانت ستبسط الموقف المعقد ، ثم أبدى ماتزينى استعداده — بعد تردد كبير — للمعاونة فى الانضمام إلى بيدمونت فوعد بأن يمنع الإثارة

لجمهورية طالما كان الملكيون يتجهون إلى الوحدة ، وكتب إلى الملك فيكتور عمانويل نداء مشرفاً يحثه فيه ألا يخضع لفرنسا وأن يحزم أمره ليحصل على تاج إيطاليا ، فقال له : « يوم أن تتحدث بهذه اللهجة ستختفي الأحزاب ، ولن تقوم في إيطاليا إلا قوتان : هما الشعب وأنت »

ولم يتوقع ماتزيني أن يكتسب الملك اكتسابا حقا فيما يظهر ، فكتب مشيراً إلى هذا الخطاب يقول : « إن الملك متذبذب ضعيف ولا أعول عليه » ويبدو أن الملك قرأ هذا النداء ، واهتم به ، وربما كان له تأثير على الحوادث التي وقعت بعد ذلك .

وكان هدف ماتزيني الأعلى نشر حركة الوحدة ، ورأى أن على الشعب أن يعمل بنفسه من أجلها إذا لم تعمل الحكومة ، وأراد أن يجعل من توسكانيا وروما نا قاعدتين لغزو ما بقي من الإقليم البابوي ، ومن ثم يغزو نابولي والجنوب .

وشاركه الديمقراطيون وكثير من المعتدلين في هذا الأمل ، غير أنه كان يعني بالنسبة إليه ما هو أكثر من الوحدة ؛ إذ كان معناه عنده انتصار الحرية الدينية في رومة وسقوط البابا « قسيس الشر النابغة » كما سماه ، فتحطيم رومة البابوية سيتيح الفرصة لبعث إنجيل الدين الجديد ، فكتب يقول : « إن حرية رومة هي حرية العالم ، فيجب أن تثور رومة ، وتعلن انتصار الله على الأصنام ، وانتصار الحقيقة الخالدة على الزيف كما تنادي بحصانة الضمير البشري » .

وحض ماتزيني أصدقاءه الإنجليز والألمان على أن يثيروا الرأى العام ضد الاحتلال الفرنسى لرومة ، وأن يضغطوا على نابليون باسم مبدأ عدم التدخل ، كما أرسل وكلاءه ليعدوا العـــدة لنهضة قومية فى صقلية ، وأثار شعور الناس ليتقدم غاريبالدى بفرق إيطاليا الوسطى إلى أمبريا التى كان قد استردها المتطوعون البابويون من أيدى القوميين . وكان يريد أن يعقد له لواء الغزو لولا خشيته من « أن يخيف اسمه جمهرة الشعب » كما قال ، فاستمال غاريبالدى إليه ووعده بأن يجعله بطل الحركة ، وينزل هو عن حقه الشخصى الذى كان يعده أيسر مافى المسألة » .

واكتسب إلى جانبه فارينى دكتاتور مودينا ، وكان فارينى فيما مضى عضوا فى إيطاليا الفتاة،فوعد أن يساعد الغزوة ، كما حاول ماتزينى أن يكتسب ريكازولى إلى صفه،ولكن هذا الأخير وإن رأى أن التعاون مع ماتزينى خير من ترك توسكانيا تفقد حريتها ـــ أدرك أن الأخطار التى تحيط بهذه الحركة الجديدة أخطار عظيمة فى ذلك الوقت ، فلو هوجم البابا لدوت الصيحة فى أوروبا الكاثوليكية ، ولأجبرت نابليون على التخلى عن مشايعته لإيطاليا مهما كان عطفه عليها ، ومن ثم تجد إيطاليا نفسها وحيدة محصورة فى غمار حرب ضد النمسا . وهكذا أدت إرادة ريكازولى القوية وإدراك الملك للأمور إلى وقف مشروعات غاريبالدى . ولكن ماتزينى جهل الوضع الحقيقى للمسألة ولم يقدر الصعاب التى تعترض الطريق ، ولم يتحقق من قوة الرأى العام الكاثوليكى ، وظن أن النمسا ليست فى مركز يمكنها من القتال ، وأنها لو

قاتلت لأدى ذلك إلى إنهاض إيطاليا بأجمعها ضدها ، ولكانت هزيمتها محققة، فاتهم ماتزينى الملك بأن اعتراضه على الحركة راجع إلى خضوعه لنابليون وإن استشعر ماتزينى ضعف موقفه فى هذا الاتهام ، بيد أنه تأثر بالقسوة التى عاملت بها الحكومة بعض أصدقائه ، كما تأثر بتشددها الذى أدى به إلى أن يعيش مختفياً ، فكتب يقول : « أنا لا أطيق أن أكون سجينا بين شعبى ، وإنى لأشعر فى لحظات معينة بالتعس والكلال يدبان فى عقلى وروحى بما لم أشعر بمثله من قبل إطلاقا » . ولما أصر ريكازولى على أن يبرح ماتزينى توسكانيا ، ويئس هو من أن يصنع خيرا هناك بارحها إلى ليجانو ، ثم رجع إلى إنجلترا فى نهاية العام .

وانتقلت آراء ماتزينى إلى أيدى رجال أقدر منه على تنفيذها : ففى يناير عاد كافور رئيسا للوزراء ، فصمم على أن يظفر بالوحدة بشرط أن تكون رومة عاصمة إيطاليا ، واستعد لمهاجمة النمسا وإثارة المجـــر ولو تخلى عنه الإمبراطور نابليون ، بل كان يرجو فى لحظات تحمسه أن « يذهب إلى فينا » ولكنه أدرك فداحة المخاطرة ووجوب الاحتفاظ بحماية الإمبراطور لو استطاع إلى ذلك سبيلا ، فعندما وجد أن الإمبراطور لن يقبل ضم الأقاليم الحرة إلى بيدمونت إلا فى مقابل أن يأخذ نيس وسافوى قبل كافور هذه المساومة الحقيرة حزينا متردداً .

ولكن ماتزينى لم يقرأ أفكار كافور إلا عن طريق رسائله ، ولم يعلم

شيئاً عن أطماعه ، ولذلك ظن أن رئيس الوزراء يعارض فى الوحدة بل يعارض فى ضم توسكانيا ، وأنه يتعلق بأهداب المحالفة الفرنسية ليحمى نفسه من الديمقراطية فى بلاده ، فسخط على انتزاع سافوى التى قايضوا عليها دون أن يحترموا رغبات شعبها ، كما سخط سخطاً أشد على تخليهم عن نيس الإيطالية ؛ ولذلك تاق إلى إسقاط كافور مع أنه كان الرجل الوحيد الذى يمكن أن يعول عليه فى تحقيق آمال ماتزينى .

وكان ماتزينى على حق حين اعتقد أن كافور لن يستطيع أن يبدأ الثورة فى الجنوب ، وأن حكومته لن تصنع شيئاً إلا أن تتبع ما بدأته رماح الأحرار . ولرغبته فى تسهيل الطريق عليها وعد بأن يعاون فى الانضمام إلى بيدمونت إذا مانشبت الثورة فى الجنوب وأن يترك رومة وشأنها فى ذلك الحين ، كما مال إلى الاعتقاد بأن النمسا لن تهاجم إيطاليا وأن الجيش البوربونى سيسرح أو ينضم إلى الثائرين .

وكان هذا البرنامج « بسيطا » فى نظر ماتزينى فرجا أن يوحد الديمقراطيين على أساسه ، غير أن العقلاء منهم رأوا أنه كعادته لم يقدر الخطر تقديرا صحيحا ؛ إذ عرفوا أن هذا البرنامج يعنى نشوب قتال أشد مما افترض ماتزينى ، وفزعوا من تكرار الثورات الأولى التى أسىء تدبيرها ، فأصروا على ألا يذهب المتطوعون إلى صقلية إلا أن يقودهم غاريبالدى ، وتتحقق لهم مساعدة كافور الأدبية . وكان ماتزينى على استعداد لأن يرحب بقيادة

غاريبالدى للمتطوعين وإن لم يبادله شعورا قلبيا قويا ، ولكن لما علم أن غاريبالدى متردد فى الذهاب إلى صقلية أبى أن تتوقف الحركة على إرادة أى رجل مهما تكن شخصيته ، فأرسل فى أوائل مارس — حين كان غاريبالدى لا يزال مترددا — روزالينوبيلو النبيل الصقلى الشاب ليقود الثائرين فى الجزيرة ، وأنفق فى الاستعداد لهذه الحركة كل درهم لديه .

وشغلت هذه الحركة ماتزينى وأثارته إلى حد الفزع ؛ فقد أدرك بعض ما كان يكتنفها من الخطر الهائل والمسئولية الجسيمة ، فسافر إلى ليجانو ليكون على مقربة من مسرح الحوادث ، وهناك علم أن جهوده أثمرت وأن الفزع الذى عمل على إثارته فى الناس قد أزال تردد غاريبالدى وشكوكه ، فجعله يسافر هو وألف من رجاله إلى صقلية ، وكتب ماتزينى يقول : شكرا لله ؛ فإن إيطاليا لم تمت بعد ، وعندما جاءته الأنباء بانتصار غاريبالدى فى كالاتافيمى قال : « إن صقلية أنقذتنا وستنشأ إيطاليا » .

وفى ٧ من مايو أى بعد رحيل غاريبالدى إلى صقلية بيومين وصل ماتزينى إلى جنوة ، وظل مختفيا بالرغم منه بحيث لم يستطع أن يرى أصدقاءه إلا ليلا ، ولكنه أمتع نفسه فى أوقات فراغه بعصفورين دوريين أليفين كانا يأتيان إليه فى أوقات الطعام تتبعهما دجاجتان ، فكان يقول : « إنى مغرم بالدجاج الذى أطعمه بعد الغذاء ، ولربما أطعمته خبزا وخمرا ليقوى على الصدمات والمصائب! » .

ولكن الرجال الذين نظمهم للحملة لم يرحبوا به واعتبروه «متطفلا» عليهم ، وهو الذى كان مستعدا دائما لأن يجابه المخاطر ، ويمنح الآخرين الشرف ، وهو الذى طوق جسده الواهن بقيد من الواجب المحض فكتب يقول : « الله وحده يعلم أننى أجهدت عقليا وجسديا فكل عمل أقوم به يفدحنى ويئودنى » ، ولكن كان من المحتوم أن تثور شكوكهم حول دوافعه ؛ فهو لا يزال على دأبه من عدم الاقتناع ومن نهك نفسه ونهك غيره ، كما عاد يقوم بدوره الغامض القائم على معلومات غير صحيحة ، فراح يطعن فى غير حكمة ولا روية فى المشروعات التى أحسن وضعها الرجال الأذكياء الذين نظموا حركة غاريبالدى بمهارة فائقة ، فشعر بيرتانى ومديشى وبكشيو بأن استقلال ماتزينى فى العمل سيتلف عليهم عملهم ، وتشبث هو بالطعن فى كافور بغير شعور على حين كان كافور — مهما قيل عن فقدانه للأخلاقية السياسية — يبذل كل أعصابه ليظاهر غاريبالدى ، ويكسب إيطاليا بأجمعها .

ولكن ماتزينى كان يشك فى الحكومة وعلاقتها بالإمبراطور شكا متواصلا فأراد أن يعمل مستقلا عنها دون أن يعادى الملكية ، فكان يحض فى جزيرة صقلية على الانضمام إلى بيدمونت ليقضى على دعاة الانفصال فى هذه الجزيرة ، أما فى شبه جزيرة إيطاليا نفسها فكان يتوق إلى منع الانضمام والاحتفاظ بحريته فى الدعوة إلى مبادئه الخاصة .

وهكذا على حين كان غاريبالدى ينتزع النصر إثر النصر من الكثرة

الهائلة من الأعداء فى صقلية كان ماتزينى يدبر حملة على الإقليم البابوى يُعْقَد له لواؤها راجيا أن يحرر متطوعوه بقية إيطاليا الوسطى ، ويهاجموا البوربون من الشمال ، بل يخلقوا نفوذا مستقلا عن كافور وغاريبالدى على السواء بحيث يؤدى هذا النفوذ فى مجرى الحوادث إلى قلب الملكية أو على الأقل إلى إجبارها على الانفصال عن فرنسا .

ولم يكن ماتزينى يعلم علم اليقين خطر الموقف وأنه لولا حماية نابليون لإيطاليا ووقوفه حائلا ما بين إيطاليا وبين النمسا فى الشمال وبينها وبين البوربون فى الجنوب لحلت بها كارثة كالكوارث التى مضت . وأخذ ماتزينى وبيرتانى يكملان الاستعدادات لهذه الحملة على رومة بموافقة غاريبالدى ، وساعدهم ريكازولى والملك — فيما يبدو — بعض المساعدة .

غير أن كافور أدرك أن هذا معناه خسران صداقة الإمبراطور ، فعقد مع بيرتانى — الذى فترت همته فى مشروع الحملة — اتفاقا على كل الأمور عدا الثقة بالإمبراطور ؛ ولذلك فإن القوة التى تقرر ذهابها إلى الشاطىء البابوى أبحرت لتنضم إلى غاريبالدى فى صقلية . وسواء أجهل ماتزينى هذا الاتفاق أم علمه ورفض الارتباط به فقد ذهب إلى فلورنسا حيث جماعة أخرى من المتطوعين تنتظر بجوار المدينة لتعبر الحدود فأصر ماتزينى على أن يقودهم فى الهجوم على « بيريجيا » ، على حين أصر كافور على وجوب تسريحهم ، فتدخل ريكازولى ليخفف من غلواء رئيس الوزراء ، وأقنع هؤلاء المتطوعين بالذهاب إلى غاريبالدى فى صقلية .

وفى أقل من شهر أعلن البيدمونتيون الحرب على البابا ، فتغلب فانتى — وهو أحد أتباع ماتزينى فى أيام الغزوة على سافوى — على الأقاليم البابوية الباقية والتى لم يكن يحتلها الفرنسيون . وتقدم غاريبالدى من الجنوب وقد عقد له لواء النصر ، ودخل نابولى، فتحرر وسط إيطاليا وجنوبيها عدا رومة وما يجاورها ومركز صغير كانت تحتله فلول الجيش البوربونى ، ووقفت النمسا موقف المتفرج ، وحلفاؤها يسحقون فى إيطاليا ؛ فقد خافت تهديدات نابليون .

وهكذا أوشكت الوحدة الإيطالية أن تتم ، ولكن هذا العمل الرائع حطمته مخاوف الحرب الأهلية : فغاريبالدى — وكان لا يبالى العقبات — تاقت نفسه إلى السير بجيشه إلى رومة، أما كافور فرأى أن غزو رومة معناه محاربة فرنسا وأنه لن يخوض هذه الحرب بحال من الأحوال . وحاول كريسبى وبيرتانى تنظيم الجنوب ليعارضا به كافور وحزبه معارضة يسهل عليها أن تأخذ اللون الجمهورى ، فذهب ماتزينى إلى نابولى ، وظاهر كريسبى وبيرتانى مظاهرة قوية ، وحض غاريبالدى على الاستمرار فى الحرب على أن يذهب إلى البندقية بدل رومة ؛ فقد رأى ماتزينى كما رأى كافور خطر النزاع مع فرنسا ، وكتب إلى إنجلترا يقول : « إذا تقدم غاريبالدى إلى البندقية نلنا الوحدة فى خلال خمسة أشهر ، أما إذا لم يتقدم إليها فقد استولى علينا الهجوع ، ودبت فينا الفوضى ثم ما هو إلا قليل حتى تتم الوحدة » .

وأهاب بأهل نابولى أن ينقذوا مبدأ السيادة الشعبية بأن يشترطوا لانضمامهم إلى الملك فيكتور عمانويل قيام جمعية قومية إيطالية بوضع دستور جديد ، ولكن ما كان أعقم هذه الصيحة وأخطرها ! لأن جمهرة الشعب تاقت للانضمام إلى الملك كيفما كان الأمر ، وكان من الجنون أن يوضع مستقبل البلاد فى بوتقة تجار الدستور فى حين تتهدد المتاعب هذه البلاد الناشئة من كل جانب . وكان من السهل أن يصور الناس ماتزينى عدوا للوحدة ، فصاح الغوغاء من أهل نابولى تحت نوافذ بيته طالبين رأسه وهو الرجل الذى وهب لهم كل شىء ! فدعاه پالاڤيكينو ، وكان معاوناً لمانين وصديقاً لغاريبالدى وشبه دكتاتور فى نابولى ، دعاه فى لطف إلى الرحيل عن نابولى ، وقال له : « إنك تفرق وحدتنا بالرغم عن إرادتك » .

ولكن ماتزينى رفض أن يتنزل عن أى شىء من الحقوق الإيطالية ليعيش على أرض إيطالية ، وتكدر كدراً شديدا، كما غضب غاريبالدى من أجله، فتدخل لمصلحته ، وحماه الملك فقال : « دعوا ماتزينى وشأنه ؛ فإذا صنعنا إيطاليا بدونه أصبح لا حول له ولا قوة ، وإذا عجزنا عن صنعها فدعوه هو يصنعها، وسأكون من رعيته وأصفق له » .

ولكن ماتزينى تألم ألما مريرا ، وآذته هذه المسألة فكتب يقول : « لقد نهكت عقلا وجسدا ، وبات أفضل شىء عندى أن أترك غاريبالدى يحقق الوحدة سريعاً وأن أقضى قبل وفاتى عاما فى ولهام جرين أو أستبورن فى راحة طويلة أتبادل فيها كلمات قليلة عاطفية تيسر على الطريق إلى النهاية ، وأراقب طيور النورس البحرية ، وأمضى فى إغفاءة حزينة » . وفى أوائل نوفمبر غادر ماتزينى نابولى بعد أن قابل غاريبالدى مقابلة ودية وضعا فيها خططهما للاستيلاء على رومة والبندقية .

الفصل الحادي عشر

في سبيل البندقية

١٨٦١ — ١٨٦٦ — من السادسة والخمسين إلى الحادية والستين .

السياسة بعد سنة ١٨٦٠ — خيبة الأمل في إيطاليا — رومة والبندقية — الاتجاه نحو الملكية — الحياة في إنجلترا — السياسات الأمريكية والأيرلندية — ماتزيني وغاريبالدى — عروض من ڤيكتور عمانويل — حرب سنة ١٨٦٦

كانت بقية حياة ماتزيني سلسلة من الكآبة التي تحرك الأشجان ، فما كان ليستريح حتى تكمل الوحدة على حين أدركه الكبر ، ونزل به المرض وأمسى متعبا أبدا ، وتاقت نفسه إلى الراحة وممارسة الأدب بعد أن طوق جسده الواهن وروحه التعسة باضطرابات السياسة ومتاعبها وآمالها الكواذب . إن المرء ليطمئن ويستقر حين يوقن أن ما صنعه يفيد بلاده أو الجنس البشرى ؛ إذ يعلم أنه اختار الطريق الصعب ولم يحجم أبدا ، ولكن الأمر يختلف فيما يتصل بماتزيني كما أبانت النتائج القريبة على كل حال ؛ فقد ضيع

حياته تضييعا محزنا ، وأجهد ملكاته الرائعة فى زحزحة « صخرة سيسيفوس » العاتية ، وقد أقر هو بذلك أحيانا .

ولو أنه أنفق هذه السنوات الأخيرة فى تأليف كتاب عن الدين ، ذلك الكتاب الذى ظل مستقرا فى عقله ، أو فى إنشاء « كنيسة البشراء » التى دعا إليها — لصنع شيئا أعظم من صنع إيطاليا ذاتها ؛ فقد بعثر معظم عمله السياسى من ذلك الحين إلى آخر حياته ، وكان يقول : إن « نجمى هو الكلب ودأبه النباح دون أن يسمع له أحد ! » .

كان ماتزينى محقا مجيدا فى مثله العليا غير أنه أتلفها بجهله للحقائق ، فأخفق فى خياله القريب بسبب تعصبه الحزبى وحقده السليط على لويس نابليون وشكه فى الساسة الإيطاليين ؛ ومن ثم لم ير أن الملكيين هدفوا إلى الوحدة جادين مثلما هدف هو ، بل كانوا أكثر منه روية وتعقلا ، كما لم ير أن لويس نابليون أراد أن يكون صديقا لبلاده إيطاليا ، وأن تردده وارتداده كانا إذعانا لضغط الرأى العام الكاثوليكى الذى لا يرحم .

إن ماتزينى لا يستطيع الهرب من ماضيه ، إنه يشتهى نوعا واحدا من العمل اشتهاء المحموم الذى لا يتعقل ولا يتروى ؛ ولذا لم يكن فى مقدوره أن يرى أن الثورة والتآمر اللذين كان لهما مبررات فيما سبق وأتيحت لهما فرص النجاح منذ عشرين عاما مضت — لم يعودا كذلك الآن .

ربما صعب على المرء أن يكون مثاليا وسياسيا معا ، ولكن ماتزينى لم يقر

بهذه الصعوبة ، فلم يستطع لجدته وصلابته أن يترك الآخرين يحققون مثله بطريقتهم الخاصة ، فقد آمن إيمانا خطيرا بأنه يملك وحده « الفطرة السليمة للتصرف فى الموقف » : ولم يقر بأن الآخرين ربما يكونون على شىء من الصواب فى سياستهم ، هل هذا هو التمرد البالغ الواضح أو الخفى على قرار مواطنيه ؟ هل هو بطولة الرجل المحق دون غيره أو هو كما وصفه أحد أصدقائه القدماء : « جرأة الأثرة الضخمة » أو هو الخطأ النبيل يقع من شخص تعلق عقله بالأسمى من الأمور ، فاحتقر السامى منها ؟ من يستطيع منا أن يقرر أيهما يخدم الإنسانية أجل خدمة : أذلك الذى يسعى إلى الأمور الصغيرة التى يستطاع نيلها أم ذلك الذى يلق النجاح فى السماء والإخفاق فى الأرض ؟

لقد علم ماتزينى أنه أخفق فى النتائج القريبة وأنه رجل خائب . والحق أنه كان يعتز بمدينته الفاضلة التى أوشكت أن تتم ، ولكنها جاءت عن طريق آخر غير الطريق الذى رسمه لها ، فوصلت إلى مقربة من الغاية التى تطلع إليها ؛ لقد أحب بلاده حبا قويا فصاغ لها مثلا أعلى ، ولكن الخيبة أدركته ، فكتب يقول : « إنى أرى فراغا كبيرا فى أوروبا ؛ فقد خلت من كل مجتمع للإيمان أو العقيدة ، ومن ثم خلت من الواجب واستهلاله وعبادته ومن المبادىء الأخلاقية ومن الأفكار العظيمة ومن العمل القوى فى سبيل الطبقات التى تنتج كثيرا ، ولا تزال بائسة أشد البؤس ، وإنى أعتقد أن إيطاليا ستنهض

وتنقذ أوروبا من هذا الفراغ ؛ فعندما تستنشق إيطاليا نسائم الحياة ستقول لنفسها ولغيرها سأملأ هذا الفراغ » .

كما كتب إلى دانيال ستيرن يقول : « قلما يهمنى أن تأكل إيطاليا التى تتكون من جماعات متوازنة قمحها وكرنبها رخيص الثمن ، كما لا يعنينى إلا قليلا أن يصدر عن رومة استهلال أوربى عظيم ، ولكن الذى يعنينى أن تكون إيطاليا عظيمة وصالحة وفاضلة وأن تؤدى رسالة إلى العالم » .

وهكذا كان ماتزينى يحلم حلما فاستيقظ فلم يجده شيئا ، وكان يبالغ مبالغة مريرة ، فيعنف مواطنيه ويقول لهم : « إنكم أقل شأنا من آبائكم ومن مصايركم » وعلى حد تعبيره الأثير لديه : « إن إيطاليا الجديدة تتلقى الوحى من مكياڤلى لا من دانتى » ؛ فليس فيها مبدأ رفيع ولا دين حق ولا إحساس بكرامة الحرية ، وكان انتقاده صحيحا إلى حد ما ؛ فإن الساسة الضعاف الذين خلفوا كاڤور وريكازولى كان أغلبهم نهازين ، كما كان بعضهم مجرد محتالين ، فأثاروا كل غضبه واحتقاره ، وأصبحت البلاد حلبة للصيد يمرح فيها صيادو المناصب والمتفرجون الذين قالت فيهم جيو ديتا سيدولى : «قد صنعوا إيطاليا ثم عادوا يأكلونها !» ؛ فكانت العداوة بين الشمال والجنوب وغيرة بيدمونت كما كانت اللصوصية والفوضى المالية — أعراضا لهذا البطر الخطير ، فلم يهتم بالآمال الأدبية العظيمة ، أى «برسالة إيطاليا الحية» — إلا القليل من الإيطاليين ، ولكن ماتزينى لم يفهم قيمة الوطنية المتزنة الجميلة التى صنعت إيطاليا بطريقتها

الخاصة ، ولم ير الخطوة العظيمة التى حدثت والتى أتت بالحرية السياسية والاجتماعية للبلاد ؛ فقد استغرقت تفكيره المسألة السياسية ، فلم يلتفت إلى التغيرات الاجتماعية التى كانت مستمرة فى إيطاليا إلا قليلا ؛ إذ لم يشر إطلاقا إلى الحركة التعاونية العظيمة التى ابتدأت فى إيطاليا فى تلك السنوات .

وفوق هذا كله لم تكن الوحدة قد تمت فى حين أن تمامها هو الشىء الوحيد اللازم لإيطاليا ، وآمن ماتزينى بأن القومية والأخلاق والدين سواء فى إيطاليا أو فى أوروبا ينبغى أن تهدف إلى الظفر بروما والبندقية ، فكتب يقول : « على أن أقتل نفسى بالعمل من أجل روما والبندقية ومن أجل الجمهورية ، لأصنع الأداة التى أريدها » .

وكان الظفر بروما يعنى سقوط البابوية وانتصار حرية الضمير وبزوغ دين جديد ، كما كان الظفر بالبندقية يعنى هدم الإمبراطورية النمساوية وإعادة بناء أوروبا الوسطى والشرقية اللتين ستبرهن فيهما إيطاليا على رسالتها « كزعيمة للقوميات المضطهدة » ، وقال : « إن العناية الإلهية قد جعلت مهمة الاستهلال شرطا ضروريا لحياة إيطاليا ، فنحن لا نستطيع أن نعيش بعيداً عن الحياة الأوروبية ، فلو حررنا أنفسنا لوجب علينا أن نحرر غيرنا ، وينبغى لنا أن نكون عظماء وإلا نمت ! » .

وكان ماتزينى لا يتعجل الأمر بالنسبة لروما ، ولذلك كان أحكم من غاريبالدى ؛ لأنه رأى أن أية محاولة للظفر بروما بالقوة معناها قيام

الحرب فورا ضد فرنسا والنمسا ، وقد أدرك أن هذه الحرب معناها الخراب، فكانت سياسته الرومانية فى الواقع كسياسة رجال الحكومة البيدمونتيين، وهى تحقيق انسحاب فرنسا عن طريق قوة الرأى العام ، لحث البرلمان على إصدار « احتجاج شديد الوقع ، ولكنه غير متطرف ، على أن يظاهره الشعب بكتابة عرائض يوقعها نصف مليون إيطالى ، كما حض على كتابة عرائض فى إنجلترا تطالب الحكومة الإنجليزية باستخدام نفوذها لأجل هذا الغرض ، ولكن اللورد جون رسل لم يكن يحتاج إلى هذا المهماز . كما رأى ماتزينى أن الظفر بالبندقية يجب أن يسبق الظفر بروما ، فقد خيل إليه أن إيطاليا من القوة بحيث تستطيع وحدها أن تحارب النمسا ، وقدّر القوة الحربية لكلا الطرفين تقديرات مبالغا فيها ، كما رأى ألا تستمر المحالفة مع فرنسا ، وألا تنافق إيطاليا نابليون ذلك المسيخ الدجال للقومية ، فوافقه كافور وخلفاؤه على رأيه وإن ارتدوا عنـــه حينا بعد حين ، فرأوا ألا يطلبوا المساعدة الفرنسية الخطيرة مرة أخرى ، ولكن ماتزينى لم يكن يؤمن بذلك فقط ، بل أراد أن يجعل المحالفة الفرنسية مستحيلة ، وأن يجبر الحكومة على محاربة النمسا بأن يثير إقليم البندقية أو يشجع المتطوعين تحت قيادة غاريبالدى على مهاجمتها .

وكذلك رأى أن تحالف إيطاليا القوميات فى شرق أوروبا ، فقد كانت هذه القوميات تشاركها فى الاهتمام بهدم الإمبراطورية النمسوية ، وشاطره هذا الرأى الملك وكافور وبقية الساسة الإيطاليين ، فلو ثار إقليم البندقية

والبلاد البلقانية لتبعتها المجر ، « ولقضت الحرب على الإمبراطورية النمساوية في عشرين يوما » ، ولذهبت تركيا بذهاب النمسا حتما ؛ فقد كان يرى أن الإمبراطوريتين المستبدتين إما أن تعيشا معا ، أو تموتا معا .

وزادت الثورة البولندية سنة ١٨٦٣ من قلقه لأنه أحب « بولندا الفقيرة المقدسة » كما يقول حبا قويا كحبه لها أيام جمعية « أوروبا الفتاة » ولام مواطنيه على عدم اهتمامهم بالشعب البولندى الذى أرسل فيما سبق أبناءه للقتال فى سبيل إيطاليا ، ونسى ماتزينى أن بولندا إذا ما انتعشت انضمت إلى الحلف الكاثوليكى المضاد لإيطاليا ، وحاول أن يستأجر سفينة لتحمل شحنة من الأسلحة إلى بولندا وتفرغها فى ثغر ليتوانى ، وشجع الحركة شبه البولندية فى إنجلترا تشجيعاً كبيراً ، وحاول أن ينظم موكبا فى هيدبارك لهذا الغرض .

وما انفك ماتزينى يرغب لبضع سنوات أن يساعد كل إثارة جمهورية فى إيطاليا ، ولكنه لم يدع ضد الملكية دعوة سافرة ، واحتفظ بدعايته للجمهورية سرا ليواجه احتمالات المستقبل . هذا بالرغم من أنه هاجم الحكومة هجوما بالغ الفظاظة لأنه تألم من توانيها ، كما أثارته المقالات التى كتبتها الصحف الملكية ضده ، وبالرغم من أنه تمسك بأن الملكية هى منبع كل هذه المتاعب .

وكان السبب الذى جعل ماتزينى لا يدعو ضد الملكية دعوة سافرة هو اعتقاده بأنه طالما بقى أمل فى أن تظفر الملكية بالبندقية وروما من أجل

وحدة إيطاليا فلاداعى لإزعاج الملكية بإثارة نزعة جمهورية عقيمة وإدرا كه أنه ما دام هذا الأمل فإن الخوف الشعبي الذى يشبه « حائطا من الثلج » سيجعل الجمهورية مستحيلة ، فهاجمه المتشددون مهاجمة عنيفة بسبب هذا الرأى المتزن ، ولكن ماتزينى ذهب فى تلك اللحظة إلى أبعد من ذلك ، فأحب أن يمنع مجرد الدعوة إلى الإصلاح السياسى ، وإن دعا إلى وجوب قيام برلمان تأسيسى بعد تمام الوحدة ؛ ليصدر ميثاقا قوميا .

وما من شك أن هذا الميثاق لو صدر لكان دستوراً غير محكم يقرر مؤقتا قيام الملكية الديمقراطية ، ويحدد واجبات البلاد الاجتماعية والوظائف التى تقوم بها الدولة والمجالس المحلية . كما أعد برنامجا مدنيا قويا يقوم على إنشاء نظام عام للتطوع وتأميم السكك الحديدية والمناجم وأراضى الكنيسة وإنشاء « بعض المشروعات الصناعية العظيمة » وتشجيع الدولة للجمعيات التعاونية للإنتاج ، وإعادة تنظيم الحكومات المحلية على أن تتكون من اثنتى عشرة منطقة كبيرة ومن مراكز مندمجة .

واستقر ماتزينى فى إنجلترا بعد عودته من نابولى فى نهاية سنة ١٨٦٠ ، ولم يبارحها إلا لىزور سويسرا زيارات عارضة . وسكن فى طبقة جديدة بلندن رقم ٢ أنسولو تراسى فى برمبتون . وعاد إلى حياته السالفة فى الخمسينات من عمره ، ينفق يومه فى كتابة الخطابات المجهدة وقد أضحت عذاباً جسمانيا له ، وكلّ بصره ، فاستحال عليه الاستمرار فى الكتابة ليلا ،

فكان يقرأ ساعتين ويذهب إلى آل ستانسفيلد فى المنزل المجاور له فى ثيرلو سكوير ، ثم يعود إلى منزله فى الحادية عشرة مساء ، ليقرأ الصحف الإيطالية وما يرد إليه من خطابات .

وأمست حياته الشخصية كفاحا فى سبيل صحته المنهاره ، فلم يعد يتغلب على أزمات المرض بقوة إرادته كما كان يفعل فى أيامه الخالية حين كتب إلى صديق يقول : « ابذل مجهوداً إراديا فتتحسن حالك ، فقد كنت أنا أصنع هذا وأنجح فيه على الدوام » ، كما كتب له مرة أخرى يقول : « سمعت أنك لا تزال مريضا ؛ عوفيت ؛ فإن من السخف أن تمرض على حين أن الشعوب تكافح من أجل حريتها » .

وكان دائما يزدرى الدواء والأطباء ويكره الطريقة الطبية التى ابتدعها فردريك هاهنمان السكسونى ، ويقول عنها : «إنها نظام حديدى جهنمى يحاول فردريك أن يقنع به الناس فى كل مكان وبشتى الطرق » .

نعم لقد أمسى ماتزينى يرزح تحت وطأة التعب المستمر الذى يسبب له ألماً حادا يطرحه فى الفراش أحيانا ، وقد لازمته عادة التدخين بالرغم من أن كثرة التدخين تؤذيه . وحاول لويد جاريسون بعد ذلك بسنين أن يجعله يقلع عن هذه العادة ، ولكنه عبثا حاول . ونزل به الروماتزم فجعله « يابساً أعجف كالساسة الإنجليز » فلم يقدر على تناول الغذاء الردىء الذى تطهوه له صاحبة المنزل ، فكان لايمسه ، ويخفيه حذر أن يؤلم شعورها .

غير أنه أحس من حين لحين « بحرارة الشباب يخالطها عناد الشيخوخة » وأدرك أن العمل قاتله لا محالة ، وألح عليه الظن بأنه لن يعيش إلى قابل .

وحاقت به المتاعب المالية مرة أخرى : إذ لم يعد دخله السنوى يكفى مواجهة التذاكر الطبية الثقيلة الوطأة التى يشير بها الأطباء ، كما أن حقوق الطبع التى استحقها من طبعات كتابه أخفقت فى دفع العوز عنه ، لأن ناشر كتبه الميلانى لم يدفع له من حقوقه شيئاً عامدا حيناً وعاجزا حينا آخر؛ وعمل له اكتتاب فى إيطاليا ، ولكنه جعل مال الاكتتاب رصيدا للمسألة البندقية ، كما أن خمسمائة الجنيه التى جمعت له فى إنجلترا سنة ١٨٦٦ ذهب معظمها فى الأغراض العامة .

وظل ماتزينى رصيناً مرحا كعادته خارج المنزل إلا أن الأمزجة الكئيبة كانت ترين على قلبه فيقول : لقد أسقمنى الناس والأشياء كما أسقمنى التطلع إلى سلام قانط ، وكتب أيضا إلى دانيال ستيرن وكان يراسله باستمرار فى ذلك الوقت : « أنا كما عهدتنى دائما أقوم بعملى فى غير ما حماسة ولا أتوقع شيئاً من إحساسى بالواجب ، ولا آمل فى شىء بقى لى فى حياتى الفردية ، وأعرف من يحبنى فأحبه لا لأنه يجلب إلى المرح ، ولكن لأنه يمنحنى قسطاً من الحزن ! ولا أزال كما كنت فى أيام شبابى أومن بالمستقبل الذى أحلم به لإيطاليا والعالم ، ولكننى أمسيت مريضا فاعتزلت وهدأت إلا حين يكثر كلام الناس عن الدهرية المادية وعن التكتيك وعن السعادة وعن الموسيقى الفرنسية » وعندما اغتيل لنكولن قارن ماتزينى بينه وبين نفسه ، فاعتراه

الحزن؛ لأن لنكولن مات وهو يعلم بأن غايته انتصرت، أما هو فربما يموت دون أن يعلم مصير غايته!.

ولم يكن لعمل ماتزينى الأدبى أهمية فى ذلك الحين لأن السياسة والمرض استهلكا قواه وإن كانت أشواقه لا تزال تتجه كما اتجهت دائماً إلى حياة الدرس، فكتب يقول: «وددت لو أجر ساقى من مكتبة إلى مكتبة ومن سجل دير الى سجل دير آخر؛ لأكشف عن اتجاهات بعض المفكرين العظماء المجهولين»؛ فقد جذب الكتاب الصوفيون مثل جواتشيم وأيكهارت اهتمامه أكثر من ذى قبل، ويبدو أنه انضم إلى جمعية صوفية فى إيطاليا اتخذت «دانتى» رئيسا روحيا لها، ولكن علم الأرواح الحديث أثاره، وأغضبه فقال: «عندما كف الناس عن الإيمان بالله طردهم اللهمن حظيرته فجعلهم يؤمنون بكاليجوستر ومائدته المستديرة!».

وزاد إعجابه بالحياة الإنجليزية، فتمسك بأن الإيطاليين ينبغى أن يقلدوا الإنجليز فى حرية الحياة والتفكير، مع أنه كان يشك فى أن خطاباته لا تزال يعبث بها فى مكتب البريد الإنجليزى! وأزجى بعض المديح للملكية والأرستقراطية الإنجليزية، ولو أنه قال: إن قوة كبار الماليين المتزايدة ستؤدى إلى انتهاء الملكية والأرستقراطية معا».

وأصبح ماتزينى مرة أخرى شخصية معروفة فى السياسية الإنجليزية، فقد شرع أحد الكورسيكيين ويدعى جريكو فى اغتيال لويس نابليون، ولم يكن

ماتزينى يعلم بهذه المؤامرة ولم يشترك فيها ، ولكنه كان يعرف جريكو فيما مضى ، ووجدت مع هذا الجانى بعض خطابات كان قد أرسلها إليه ماتزينى ، فانتهز « البوليس » ، الفرنسى هذه الفرصة ، واتهم ماتزينى بهذه الجريمة ، وأدانته المحكمة الفرنسية دون أن تقيم الدليل على صلة خطاباته بهذه المؤامرة ! كما اتهم صديقه ستانسفيلد الذى وجد اسمه وعنوانه فى إحدى هذه الخطابات ، فوجدا التوريون والأيرلنديون فى مجلس العموم الفرصة سانحة ليسيئوا إلى سمعة ستانسفيلد ، ولكن ستانسفيلد آثر أن يستقيل من الوزارة الإنجليزية ، ولا يتخلى عن أصدقائه ! وكان هجومهم مغرضا ظاهر الوقاحة ، بل كان ملهاة مضحكة ؛ فإن دزرائلى الذى سارع إلى اتهام ستانسفيلد بالتشجيع على الاغتيال ووُجه شخصيا بقطعة من شعره القصصى كان قد كتبها فى شبابه يمجد فيها « قاتل الملوك الفولاذى » .

وكان ماتزينى يراقب الحرب الأهلية الأمريكية مراقبة شديدة ؛ فقد ضاق بالرق ، واستنكره ، فعطف على « جمعية لندن لتحرير الأرقاء » ، وساهم فيها وكانت تلك الجمعية تعطف على شمالى أمريكا فى الحرب الأهلية ، وكتب إلى مستر ماليسون سكرتيرها وكان صديقاً له : « إنى أومن فى أيامنا هذه بوجود ثلاثة أشياء يجب على الإنسان أن يحتج عليها قبل أن يموت لو أراد أن يقضى هادئ الضمير وهى : الرق ، قسوة رأس المال ، التشدد والنفاق فى الأمور الدينية » .

كما كتب إلى مستر مونكيور كونوى يقول : « إن إلغاء الرق هو

المسألة الدينية المقدسة فى معارككم الحالية ، ولكنه لم يتحمس بهذه الدرجة للاتحاد بين الشمال والجنوب ؛ فقد كان يعتقد أن أمريكا « تتسع لدولتين أو ثلاث دول فيدرالية متآخية » بالرغم من أنه كان يفضل قيام الشعوب الكبيرة ويصر على ذلك.

وعندما انتهت الحرب الأهلية توسل إلى الأمريكيين ألا يتلفوا انتصارهم فى هذه الحرب بأن يرفضوا إعطاء الزنوج حق التصويت حتى لو كان من رأيهم أن حق التصويت ينبغى أن يسير جنباً إلى جنب مع التعليم ! . وتاقت نفسه كما تاقت سنة ١٨٥٤ إلى تدخل أمريكا فى سياسات العالم لتساعد على إنشاء أوروبا المقبلة على أساس القومية والجمهورية فقال للأمريكيين : « لقد أصبحتم شعبا زعيما فيجب أن تعملوا على هذا الأساس ؛ فإن دوركم معروف وعليكم أن ترتضوه فى المعركة الكبيرة التى تدور فى العالم الآن ما بين الحق والخطأ ، وبين العدالة والاستبداد ، وبين المساواة والامتياز ، وبين الواجب والأثرة ، وبين الجمهورية والملكية ، وبين الصدق والأكاذيب ، وبين الله والأوثان ! » .

وكان يرجو من الأمريكيين أن يقلبوا مشروع نابليون فى المكسيك رأسا على عقب ؛ فقد كان هذا المشروع يعنى « وجود الاستعمار على أبواب الأمريكيين » كما يقول . ولكن لما بدأ التدخل الفرنسى الإنجليزى فى المكسيك واشتد الشعور الأمريكى ضد إنجلترا — كتب يقول: « إن الحرب

ضد إنجلترا جريمة وخطأ ، أما فى سبيل المكسيك فهى أمر مقدس » . كما كتب هو ولدرو رولان وكارل يلانيد إلى الرئيس أبراهام لنكولن قبيل اغتياله يلحون بأن مسألة المكسيك خطر يتهدد الاتحادالأمريكى ، واقترحوا عليه أن يتعاون هو وديمقراطيو أوروبا تعاونا يسقط نابليون أو يضعفه ، وشرحوا له خطتهم : ومؤادها أن يغزو الأمريكيون المكسيك على حين يثير حلفاؤهم غير الرسميين حركة جمهورية فى فرنسا أو ينظمون هجوما على رومة . ويبدو أن لنكولن قد أقام لهذا الاقتراح وزنا إذ عندما سُرح جيش الشمال فى نهاية الحرب الأهلية وود ماتزينى لو تطوع هؤلاء الرجال لمساعدة المكسيكيين — سرى الهمس بأن الحكومة الأمريكية ستتبع رأى ماتزينى لأنه سيؤدى إلى مؤاخاة الشمال والجنوب ، وبهذا يكتسب الزنوج حق التصويت بغير منازع » .

كما اهتم ماتزينى بعد ذلك بسنوات اهتماما كبيرا بمصير الأيرلنديين الفينيانيين المسجونين (وكانوا جمهوريين من دعاة الانفصال عن إنجلترا) فكتب يقول : « إنى أشعر بالتعس والغيظ لهؤلاء الفينيانيين المحكوم عليهم. إن هذا اليوم هو عيد ميلاد الملكة فيما أظن ؛ أو لم تقرأ جلالتها الصحف ؟ ألا تجد فى قلبها شعورا نسائيا يدعوها لأن تسأل مجلس الوزراء تخفيف العقوبة ؟ إن قتل هؤلاء الرجال سيكون فى الواقع خطأ عظيما ؛ فإن بيرك إذا ما قتل أصبح روبرت إيمت لعام ١٨٦٧ ، وسيضرم شعور الانتقام النار فى عزائم هؤلاء الفينيانيين الجمهوريين ، كما تصبح أحلامهم وأمانيهم عن طريق

الاستشهاد وبسببه نوعا من الدين والعقيدة ؛ ولذلك لست أرى رأيكم فى إعدامهم ؛ فإن إعدامهم ماهو إلا قتل شرعى تسنون له قانونا لتحاربوا الفكر ، ذلك الفكر الذى لا ينبغى أن يفند أو يقضى عليه إلا بالفكر فقط . فبيرك وزملاؤه مؤمنون صادقو الإيمان بالقومية الأيرلندية وإن كانوا فى نظرى مخطئين من الناحيتين الفلسفية والسياسية ، ولكن هل لنا أن ندحض الخطأ الفلسفى بالشنق ؟ » وبعد أن أرجىء تنفيذ حكم الإعدام فيهم قال : « لقد تجنبتم فضيحة إعدام بيرك ، وقد سرنى ما صنعتم ؛ فأنا أهوى إنجلترا ، ولا أريد أن يلحقها العار ! » .

بيد أن ماتزينى كان يبذل معظم مجهوده السياسى فى تلك السنوات للاستيلاء على إقليم البندقية ؛ فقد اتفق مع غاريبالدى قبل مبارحته نابولى سنة ١٨٦٠ على غزو هذا الإقليم أو غزو رومة فى العام المقبل ، ولكن كلا الرجلين كان يضمر غيرة من الآخر مما منع كل تعاون قلبى بينهما ، ولم يكن العيب فى هذا على ماتزينى إلا قليلا . ولا بد أن ماتزينى شعر بأن غاريبالدى قد ثبت اسمه فى مخيلة الشعب بالرغم من أنه لم يؤد لبلاده ما أداه هو لها ، ولكن ماتزينى مع ذلك كان على استعداد لأن يترك لغاريبالدى هذا الفخار ، ويبقى هو فى المؤخرة . أما غاريبالدى فكان على الضدق إذ أسر فى نفسه سيئات أخذ يتعهدها وينميها ، فلم ينس الخلاف الذى شجر بينهما فى رومة سنة ١٧٤٩ ؛ ولذا قال ماتزينى : « إذا أعطيتم غاريبالدى المتطوعين ذات يوم فسيرسلنى إلى الجحيم فى اليوم التالى ! »

كما كانت نظريات ماتزيني تثير غاريبالدى ، فسماه « النظرى الكبير » ، وكان غاريبالدى سهل الانقياد ، ضعيفا ضعفا يفوق الوصف ، كما قال عنه ماتزيني بحق ، ولكنه كان يكره أن يظن الناس فيه أنه متأثر بنفوذ أى شخص مما شكا منه ماتزيني فقال : « إن خُير غاريبالدى بين مشروعين أحدهما لى والآخر لغيرى فسيختار بلا ريب مشروع غيرى ! » .

وسعى الساعون بالشقاق ليوسعوا شقة الخلاف بين الرجلين ؛ فبالرغم من أنهما كانا يتحرقان شوقا إلى تحرير البندقية وروما اختلفا فى الوسائل لتحقيق هذه الغاية ، فآمن غاريبالدى بالملك فى حين لم يؤمن ماتزيني به إلا قليلا ، كما أراد غاريبالدى أن يتفاهم هو والحكومة ، أما ماتزيني فأراد أن يعمل مستقلا عنها بوجه عام ، ورأى ماتزيني أن يركز الوطنيون جهودهم فى تحرير البندقية ، أما غاريبالدى فكان يحن إلى مشروعه الأثير لديه ، وهو المسير إلى روما ، وعندما هجر هذا المشروع إلى حين مال إلى القيام بدور الفارس الجوال فى أوروبا الشرقية حيث يستطيع أن يهاجم النمسا من المؤخرة .

وكان مينجهتى وفريق من المعتدلين أشباه السياسيين — وهم أولئك النهازون الجبناء الضعاف المبادىء — يريدون فى تلك الأثناء أن يخمدوا الإثارة الديمقراطية ، ولكنها ظلت على ما هى عليه دون أن يكدرها مكدر إلى حد ما ، وذلك بفضل ريكازولى البعيد النظر الذى أصبح رئيسا للوزراء بعد موت كافور .

ولو بقى ريكازولى فى منصبه لأصدر عفوا لماتزينى عن عقوبة الإعدام التى صدرت عليه سنة ١٨٥٧ ، وما ظل أعظم الإيطاليين الأحياء يعتبر مجرماً فى بلاده نفسها ، ولكن ريكازولى طرد من منصبه بمؤامرة دبرت له ، وخلفه راتزى وكان شديد الارتباط بالإمبراطور لويس نابليون ، فلم يستطع أن يعفو عن ماتزينى وهو عدو الإمبراطور .

وبدأ راتزى ينافق غاريبالدى الذى انتهى كما تكهن ماتزينى إلى « الحيرة والوحدة » كما انتهى إلى كارثة فى إسبرومونت ، وكان ماتزينى يعارض هذه المهمة المتهورة ، ويستنكرها أشد الاستنكار لدى أصدقائه الإنجليز ، ومع ذلك بذل مجهودا واضحا فى جمع المال لغاريبالدى ، وعندما اتخذ غاريبالدى شعارا له « رومة أو الموت » رأى من واجبه أن يساعده ، فبعد يوم من عبور المتطوعين إلى صقلية — وكانوا فى طريقهم المضحك المبكى إلى رومة — غادر ماتزينى لندن لينضم إليهم ، بيد أنه عندما وصل إلى ليجانو سمع أن الجنود الإيطاليين أطلقوا النار على المتطوعين ، وأن غاريبالدى أصيب برصاصة إيطالية ، فأشفق ماتزينى إشفاقا شديدا مما حدث حتى أصابه الهذيان ، فخيل إليه أن أشباح الشهداء الوطنيين تعنفه كما عنفته سنة ١٨٣٦ ، وأخذ يصيح «غاريبالدى قد مات» ، ولم يستطع أصدقاؤه أن يهدئوا من روعه ، وما إن عوفى حتى انفجر فى الحكومة والملكية انفجارا مدويا يتهمهما بالضعف وبأنهما لا تريدان إقامة إيطاليا الموحدة ، كما هددهما برفع علم الجمهورية ثانية .

غير أنه استعاد هدوءه ، فنسى هذا التهديد ، ورجع إلى خطته القديمة

وهى إرسال المتطوعين إلى إقليم البندقية ، وكانت الحكومة مضطرة إلى اتباع تلك الخطة . وحنق ماتزينى على النمسا « من أجل بولندا المسكينة الشجاعة التى تركت وحدها فى الميدان » كما يقول ، ورجا أن يكون الهجوم على النمسا منقذا لبولندا . وفى ربيع سنة ١٨٦٣ عرض عليه الملك عروضا غريبة ليتحالفا . وكان كلا الرجلين يفتتن بصاحبه افتتانا خاصا : فقد كان كلاهما يتشوق للظفر بإقليم البندقية ويكره النمسا ، كما كان الملك يشارك ماتزينى « المثير الأعظم » فى رغبته أن تتحرر قوميات أوروبا الشرقية ، كما أن كليهما أثارته وأحنقته وزارة مينجهتى التى تولت السلطة بعد « إسبرومنت » ؛ فقد كانت وزارة ضعيفة فى إلهامها القومى ، خائفة من القوات الديمقراطية فى حين أن كافور لو كان هو الذى يتولى السلطان لأمسك بزمام هذه القوات الديمقراطية وقادها ، ولكن زملاء ماتزينى المتآمرين ساوموا فى هذه العروض مساومة شديدة ، ثم وافقوا بعد شهور من المفاوضة المرهقة على أن يثير ماتزينى ثائرة إقليم البندقية بشرط أن يترك خلال ذلك كل حركة جمهورية حتى يجعل الملك يطمئن ، فيأمر حكومته بأن تمد الثائرين بالأسلحة ، بل تعلن الحرب على النمسا . وكان كل من الملك وماتزينى سيشجع النهضة فى المجر وغاليسيا .

ومن الصعب على أى الأحوال أن نعرف أثر هذه المحالفة بينهما ، بيد أن الحقيقة التى أسفرت عنها المفاوضات ضعفت كثيراً أو قليلا ؛ لأن مؤامرة جريكو جعلت من العسير على الملك أن يتعامل هو وماتزينى بالرغم

من أن نفرا قليلا هم الذين اعتقدوا أن ماتزينى كان شريكا فى هذه المؤامرة .

وأصيب الوزراء بمرض الخوف من الاتصال بالثوريين ، وربما أنذرهم المنذرون أن ماتزينى جعل طردهم من مناصبهم شرطا لبذل معونته للملك ، فاعترضوا على الاتفاق بينهما مما جعل الملك وماتزينى لا يظهران احتراما للحكومة البرلمانية التى حاولا أن يوجداها عن طريق الاتفاق الشخصى بينهما ، ولكن إلحاح ماتزينى ضايق الملك ، فحول انتباهه إلى غاريبالدى ، وكان هذا الأخير يقوم فى ذلك الوقت (أبريل سنة ١٨٦٤) بزيارة إنجلترا حيث كان نفوذه ينتشر كالأسطورة القوية كما انتشر فى بلاده ، ولكنه صُدم بمؤثرات كان يسعى بها الساعون للاستحواذ عليه : فالراديكاليون الإنجليز أرادوا استخدامه فى سلسلة من المظاهرات الشعبية . ووضع بالمرستون خططه ليظل غاريبالدى فى قبضة مضيفيه وهما دوق شزرلند وتشارلس سيلى (نائب لينكولن) الذى كان مسئولا عن سلوك غاريبالدى فى إنجلترا ، كما أن فيكتور عمانويل كان قد أرسل رسله فى أثناء مفاوضته مع ماتزينى ليقنع غاريبالدى بقيادة النهضة فى غاليسيا ، فضلا على أن ماتزينى كان يريده للحركة البندقية . وهكذا كان هذا الرجل المحترم فى حيرة من هذا، يحاول أن يرضى كل إنسان على ألا يبدو منقادا إلى أحد .

وكتب ماتزينى إلى غاريبالدى يدعوه للقيام بجولة فى أقاليم إنجلترا قبل أن يحضر إلى لندن ؛ وعندما وصل إلى لندن قابله ماتزينى فى منزل تشارلس سيلى فى « جزيرة ويت » ، فتم الصلح بينهما حتى ظن ماتزينى أنه اكتسب

غاريبالدى إلى صفه ، كما أن غاريبالدى تحدث عن ماتزينى فقال : «إن ماتزينى هو مستشار شبابى وصديق الدائم » ، وكان ذلك فى أثناء تناولهما الغذاء فى هيدنجتون فى منزل ألكسندر هيرزن الثرى الوحيد بين المنفيين . فكانت هذه المقابلة إنذارا للحكومة الإنجليزية بالخطر ، فارتكبت أعمالا حقيرة أدت إلى رحيل غاريبالدى .

وكان ماتزينى يظن أن غاريبالدى مخلص لمشروع البندقية ، فذهب إلى ليجانو ليستعجل الاستعدادات للثورة فى إقليم البندقية فى حين أن غاريبالدى غير رأيه فى هذه المسألة دون أن يزود ماتزينى بأية فكرة عن هذا التغيير ؛ وقبل خطة الملك التى أعدها لغاليسيا ، فركب يخت دوق سزرلاند إلى إسكيا ؛ ليبحر إلى الشرق ، ولكن الخطة أفشى سرها للعالم ، فخاف الملك هذا الإفشاء ، وسرعان ما نفض يده من المؤامرة .

فتألم ماتزينى من غاريبالدى ومن الملك لما حاولاه من ربط عرا الصداقة بينهما ، وبالرغم من ذلك طفق يقنع غاريبالدى بزيارة إنجلترا تارة أخرى ، والقيام بجولة فى الأقاليم الإنجليزية وأفضلها فى رأيه نيوكاسل ، كما شك ماتزينى — وكان معذورا — فى أن الوزارة اشتركت فى إعداد مشروع غاليسيا لتذهب بغاريبالدى بعيدا عن بلاده أو لترسله إلى حتفه . ولما صدع قلبه هذا الموقف الغامض صمم على أن يسلك طريقا أوضح ، وأدت الحوادث التالية إلى أن يعود ماتزينى إلى عداوته القديمة الواضحة للحكومة ؛ فقد تم

بين فرنسا وبيدمونت « اتفاق سبتمبر » وكان من أكثر المعاهدات مساسا بالشرف وأسوئها تدبيرا . ويظهر أن الطرفين أشارا فى الخطابات الملحقة بهذا الاتفاق إلى ترك الحقوق الإيطالية فى رومة ، فاستنكر ماتزينى هذا التسليم استنكارا شديدا ووصفه « بسياسة التهرب والوسائل الملتوية » التى تهدد بإغراق إيطاليا ، كما كتب يقول : «إنى أفضل نصف قرن من العبودية على الأكاذيب الوطنية » ؛ ولكنه أثار الضحك حين اعتقد أن الحكومة البيدمونتية عرضت على فرنسا جانبا كبيرا من بيدمونت لتشترى رضاها عن الاستيلاء على البندقية أو رومة .

وقامت معركة مريرة بين ماتزينى وبين كريسبي الذى تدهورت قيمته واحترامه ؛ إذ هاجمه كريسبي فى مجلس النواب ، واتهمه بأنه يفرق البلاد ويقسمها شيعاً بمبدئه الجمهورى ، فأفحمه ماتزينى حين قال عنه : إنه انتهازى كان بالأمس أشد الجمهوريين عناداً وأصبح اليوم يستعرض إيمانه المحدث بالملكية . ومال ماتزينى إلى فصم الخيوط الرفيعة التى تربطه باليسارية البرلمانية وقال عنها : « إنها تخلت عن حميتها الديمقراطية ، وتظاهرت بالبرود الذى يشبه الثلج ، وتصرفت كما يتصرف أعضاء البرلمان الإنجليزى » . ولكنه أحجم عن الوقوع فى شقاق تام مع الملكية ؛ فقد كان يرجو أن تهاجم الحكومة النمسا .

ولكن الأمور جرت بأحسن مما كان يتصور ماتزينى ؛ فإن الاحتجاج على « اتفاق سبتمبر » حطم وزارة مينجهتى ، ثم سنحت الفرصة فى ظل

وزارة « لامارمورا » الأمين الشجاع ، فأسرعت بالمفاوضات الدائرة لعقد الحلف البروسى . وفى أوائل أبريل سنة ١٨٦٦ أمضيت المعاهدة مع بروسيا ومع أن ماتزينى كان قد دعا إلى التعاون مع ألمانيا سنة ١٨٥١ و سنة ١٨٦١ اتهم الآن هذه المحالفة البروسية لأنها تمت « مع رجال يمثلون الاستبداد » كما ظن أنها تنطوى على نزول إيطاليا عن حقها فى التيرول ، ولم يكن ذلك صحيحاً فقد ضللته مرة أخرى استعلاماته الخاطئة ، كما علم علم اليقين عن طريق استعلامات لا شك فيها كما يقول بأن إيطاليا وعدت بالنزول عن سارديفيا وجزء من بيدمونت إلى فرنسا نظير مساعدة نابليون لها .

وكان ماتزينى يكره الدبلوماسية كراهية شديدة ، ولكن المسألة هى مسألة الحرب فى سبيل البندقية ؛ ولذلك حض رجاله على الانضمام إلى المتطوعين ، حتى إذا انتهت هذه الحرب بالنصر استطاعوا أن يسيروا إلى رومة . ووضع خططاً خاصة لهذه الحرب ، فكان من رأيه أن يتجنب الحصون المربعة ويدفع كتلة الجيش الرئيسة إلى إقليم البندقية على حين يعسكر المتطوعون فى أستريا ، ويحاولون إنهاض السلاف . وسواء أكانت هذه الخطة من بنات أفكار ماتزينى أم لم تكن فقد اتفقت مع خطة كان يفضلها ريكازولى الذى عاد رئيساً للوزراء ، ويفضلها كذلك كيالدينى أحد القواد الإيطاليين ، وربما كان يفضلها أيضاً بسمارك ، ولكنها نبذت أو على الأقل شوهت بسبب معارضة لامارمورا لها .

وكان العالم يتوقع أن تنتصر إيطاليا بسهولة ؛ ولكن القيادة العاجزة

أضاعت الفرصة كما أضاعتها سنة ١٨٤٨ ، فانهزم الجيش فى كاستوزا ، كما انهزم الأسطول فى ليسًا ، وفقد غاريبالدى والمتطوعون الروح المعنوية التى كانت فيهم سنة ١٨٦٠ ، فباءت حركتهم فى التيرول بالفشل ، فى حين انتصر البروسيون انتصارا سريعاً حاسما على خلاف ما كان متوقعاً ، فخاف نابليون أن تؤدى الحوادث المفاجئة إلى إخفاق مشروعاته ، فخطا خطوة إلى الأمام بأن أرسل إلى إيطاليا رسالة يقول فيها : إن النمسا عرضت عليه أن تتنزل عن إقليم البندقية إليه هو ، وأنه بدوره سيسلم هذا الإقليم إلى إيطاليا لو أعلن السلام .

لقد كانت نهاية مريرة مذلة أن يلقى الإيطاليون السلاح تحت أثقال الهزيمة ، وأن يتركوا التيرول وأستريا ، وأن يأخذوا البندقية لا عن طريق الغزو ، ولكن بنزول نابليون حاميهم البغيض . وكان ماتزينى يجهل أن الحكومة إنما خضعت بالرغم عنها للمصير الذى حتمه الموقف الحربى ، فلاح له الأمر جبنا محضا يحمل « العار والخراب » ، فقال وفى قلبه حسرة : « إن هذا حظى ؛ فقد كتب على أن أقضى آخر أيامى حزينا ، وإن وقع الحزن لشديد على من يحب حين يرى أن الشىء الذى يحبه أكثر من غيره قاصر عن أداء رسالته ! » .

الفصل الثانى عشر

السنوات الأخيرة

١٨٦٦ — ١٨٧٢ — من الحادية والستين إلى السادسة والستين

التحالف الجمهورى — الحياة فى ليجانو — مينتانا — الحركة الجمهورية من سنة ١٨٦٨ إلى سنة ١٨٧٠ . مؤامرة مع بسمارك — حبس ماتزينى فى جايتا وإطلاق سراحه — هجومه على الدولية — وفاته

لما كان ماتزينى يجهل الحقائق فقد ألقى بأوزار الحوادث التى وقعت على عاتق الملكية ، فرأى أن الشعب ضحى من أجل مصالح الأسرة المالكة ، وأن الهزيمة والعار نجما من اللبس والغموض اللذين نبعا « من زيف الملكية الأصيل » ، وأن الحكومة السيئة والاستبداد (وإن لم يكن غليظا) وضخامة الجيش والوظائف المدنية والشرطة والفوضى المالية المتتابعة هى كلها ثمار الملكية .

وأنكر ماتزينى أنه يريد الجمهورية لذاتها فى ذلك الوقت ؛ فإن مجيئها — فى رأيه — هو مسألة سنوات تطول أو تقصر ، وينبغى أن يترك نتصارها للزمن؛ ولكن العار هو « داء الآكلة الذى يجعل عظام الشعب نخرة »

ولا يشفيه من هذا الداء إلا الجمهورية ؛ فالجمهورية هى التى ستكسب رومه، وتدخل إستريا والتيرول فى حظيرة الوطن ، وتمد يدا للقوميات المكافحة فى الشرق ، ولكن الجمهورية يجب أن تكون « تعليما أخلاقيا » يغير الرجال من عبيد إلى مواطنين ، « ويمنحهم الشعور برسالتهم وقوتهم وكرامتهم » ، ولن يكون هدف الجمهورية انتقاما أو سلبا أو إنكارا للديون أو عنفا على رجال الدين . كما شن ماتزينى حربا صليبية على باكونين والاشتراكية الخشنة التى سارت قدما فى البلاد .

وكان ماتزينى قد وعد بألا يعود إلى إثارة الناس ودعوتهم إلى الجمهورية إلا إذا أعلن عن ذلك صراحة ، وهكذا صنع فى ذلك الحين ، فأسفر عن نيته وأعطى الجمهورية كل قواه المنهارة ، وكان الجمهوريون قد يئسوا من تحقيق الغرض الذى يسعون إليه مهما حسنت الأمور ، مع أنهم كانوا حين ذاك ذوى قوة لم تكن لهم منذ خمس عشرة سنة خلت . فإن ما لحق الشعب من عار « كاستوزا » و « ليسا » لم تخف وطأته عليه بعد ، كما زعزع الأمل الكاذب عقيدة الناس فى الرجال والدساتير ، ودفعهم الشعور بالعار القومى إلى الجنون ، وترددت الحرب الأهلية على ألسنتهم ، وذهبت هيبة الملك تحت فداحة الرذيلة الشخصية والهزيمة الحربية ؛ ولذلك اشتد التشاؤم ، وعظم السخط ، فتأهب الناس ليسلكوا بهذا التشاؤم وذلك السخط مسالك اشتراكية أو جمهورية .

وبالرغم من أن الإيطاليين تباطئوا فى اتباع ماتزينى فى مؤامراته أسبغت عليه السنوات الطوال من تضحيته بنفسه والسرية التى أحاطت به وهو المنفى المتآمر فى نظر مواطنيه سحرا رائعا ، بل كان أسطورة من الأساطير ، فوقع أربعون ألفا على عريضة يلتمسون فيها العفو عنه ، وانتخبته مسينا أكثر من مرة نائبا عنها ، ولكن المعتدلين فى مجلس النواب ألغوا دون وعى هذا الانتخاب المرة بعد المرة ، فتميز الناس غضبا من هذا التعصب ، وحاول نواب اليسار جهدهم أن يردوا الغالبية إلى جادة العقل ، وقال أحد رؤساء الوزارات الإيطالية المعاصرين : « لا تزال لديكم فسحة من الوقت لتحولوا بين ماتزينى وبين إغماضه عينيه إلى الأبد فى أرض أجنبية »

وعندما صدر العفو عنه فى بداية الحرب رفض قبوله ؛ فقد عده إحسانا ، كما أبى أن يأخذ مقعده فى البرلمان ، ورجع إلى ليجانو ينفق كثيرا من وقته مع صديقيه جيوزيب ناثان وزوجه سارة ، وقال عنهما : « إن جيوزيب أوفى أصدقائى الإيطاليين وسارة إحدى الفضليات اللائى عرفتهن » وكانت سارة تمرضه فى نوبات مرضه التى ازدادت عليه .

وأخذ يطالع كما قال « البحيرة الهاجعة الجميلة وغروب الشمس الرائع المنفرد الذى يعلم الناس كيف تموت الآمال » ، وكان فى حال صحته يلتزم ما اعتاده فى حياته الإنجليزية ، فيكتب طوال اليوم ويدخل السرور على أصدقائه فى المساء بأحاديثه الطلية ، ودفعته مؤامراته للذهاب إلى جنوة

فعاش فيها مختفيا فى منزل أسرة عاملة فى ساليتا دى أوريجينا يطالع من نوافذه المنظر الفخم لهذه المدينة وللريڤييرا . وكاد يفصح عن شخصيته ذات مرة عندما صاح من النافذة على ولد كان يعذب جُنْدُباً ، وظل على صلة وثيقة بأصدقائه الإنجليز وحباته الإنجليزية ، كما ظل يقرأ بانتظام

واعتاد زيارة إنجلترا ليقضى عيد رأس السنة مع آل ستانسفيلد أو مع غيرهم من أسرتهم ، فيعبر الألب فى زمهرير الشتاء مخاطرا بصحته ، وقد أمسى هرما أثقلته الآلام ، وغاض وجهه ، وعلته شحبة الموت ، واستحال شعره الأسود الكثيف أغبر خفيفا ، وعندما رآه وليم لويد جاريسون بعد أن غاب عنه إحدى وعشرين سنة حزن لما لاحظه من التغير الذى طرأ عليه ، بيد أنه قال : « ظلت على حالها عيناه السوداوان اللامعتان وملامحه التقليدية والعقل الضخم والروح الشامخة التى لا تقهر ، كما بقى له ذلك الامتزاج بين الاعتدال الصحيح وثبات البطولة والشفقة الجمة وقوة الإلهام » .

ثم ألح عليه العمل ، وأصابته الكتابة بالدوار ، وأخذ يفقد تصميمه وعزمه ، فكان « يعيش فى إعصار مثل أولوبغير فرنسيسكا متعبا مكدودا مشتاقا إلى الراحة » ، ولكنه لم يرخ عنانه أبدا ، وقال : « لقد ارتبطت بأولئك الذين نظمتهم من أجل المصلحة الوطنية ، ولا بد لى أن أعلن الجمهورية فى إيطاليا قبل أن أموت » .

وعلى حين كان ماتزينى ينظم « تحالفه الجمهورى » ، ويضيع نفسه

فى تفصيلات هذا العمل الضخم الذى أدت كلها إلى نتائج زهيدة — كان القلق فى إيطاليا يقضى على احتياطات الحكومة ، وكان ريكازولى قد أبعد من منصبه بسبب عدم مهارته ومعارضة غاريبالدى له معارضة ضارية لا هدف لها ، وعاد راتزى « دساس سنة ١٨٦٢ » إلى السلطة وبدأ نفاقه الذى لم يؤد إلا إلى « إسبرمونت » أخرى ، ولسنا فى حاجة هنا إلى تحليل قصة التوازن الغامض الخسيس الذى كان يريده راتزى بين الإيطاليين المعتدلين وبين فرنسا . وكان غاريبالدى تواقا إلى الاستيلاء على رومة ، ولم يعد يهمه إلا قليلا أن يكون ذلك الاستيلاء باسم الملكية أو باسم الجمهورية ؛ فقد عزم على أن يغزو — سواء أوافقت الحكومة أم لم توافق — الإقليم الصغير الذى لا يزال باقيا للبابا حيث يواجه الجنود المرتزقة البابويين ويهزمهم ، ويدخل رومة .

وكانت الجمهورية عند ماتزينى مسألة أكثر حيوية من الوحدة ؛ إذ رأى أن إيطاليا تستطيع عن طريق رومة الجمهورية وحدها أن تنجز رسالة المدنية للعالم ، فكتب يقول : « لو انضمت رومة إلى الوحدة الإيطالية كما انضم غيرها من الولايات فإنى لا أرى مانعا من أن تبقى تحت ظل البابا ثلاث سنين أخرى » ، وكره مشروع غاريبالدى ، فلم يتحمس له إذ لو نجح هذا المشروع لكان معناه أن تدخل الملكية رومة فضلا عن بقاء البابا هناك . وكان ماتزينى يريد أن ينهض الرومانيون من تلقاء أنفسهم ، ويعلنوا الجمهورية ؛ فقد كان على يقين من أنهم لو فعلوا ذلك لرددت إيطاليا كلها صدى الصيحة

الجمهورية ، ولذهب البابا إلى غير رجعة ، ومع ذلك كان ييئس من حزبه أحيانا ، فيسعى إلى الحل الوسط .

وعندما بدأ غاريبالدى فى غزوته أخيرا ، وظاهرته الحكومة — فقد فضلت أن تعادى فرنسا على أن تقع الحرب الأهلية بين الإيطاليين — نسى ماتزينى كل شىء غير الأمل فى كسب رومة ، وحث أتباعه على الانضمام للغزاة ، ولربما كان يذهب هو معهم لولا أن المرض طرحه فى الفراش .

ولما ظهر عجز غاريبالدى واضحا للعيان وعسكرت الفرق الفرنسية مرة .خرى لحماية رومة رأى ماتزينى أن المتطوعين قد ذهبوا إلى مصيدة ، وتوسل إلى غاريبالدى أن ينسحب إلى نابولى ، ويرفع علم الثورة هناك ، ويجمع القوات لهجوم آخر مأمول فيه ، ولكن غاريبالدى كان يسير إلى الهزيمة وقد أعماه العناد ، ولم يكن من طبعه أن يصغى لأى إنسان ولا سيما ماتزينى ، كما كان الدساسون الساعون بالوشاية قد أقنعوه بأن ماتزينى يعبث برجاله ، فاقتنع غاريبالدى بهذا القول الذى لا ظل له من الحقيقة ؛ وأقام على هذا الاقتناع إلى أن مات ماتزينى .

وذهب المتطوعون إلى قضائهم المحتوم فى مينتانا ، وكان راتزى الذى سما بنفسه ويود أن يسير إلى رومة لولا معارضة الملك — قد استقال قبل ذلك ببضعة أسابيع ، وخلفه مينابريا الذى أجبره الرأى العام على أن يحتل جزءا من الإقليم البابوى ، غير أنه عندما نزل الفرنسيون إلى البر سحب

ميناريا فرقه العسكرية خشية أن تحاربه فرنسا ، واستشاطت البلاد غضبا من الإهانة الفرنسية ، وصبت حنقها بطبيعة الحال على التاج البيدمونتى ، وبرأ المحلفون الصحف الجمهورية التى قدحت فى الملك ، وظاهر بعض النواب الحركة الجمهورية مظاهرة خفية ، وغامرت فى هذه المظاهرة جمعيات الإخوان التى كانت على اتصال بماتزينى . وكان لماتزينى أتباع بين البنائين الأحرار وإن لم يكن هو واحدا منهم ، كما كان له أتباع بين المتطوعين السابقين .

وكان أسوأ النذر على الملكية أن الحركة الجمهورية اكتسبت أتباعا كثيرين فى صفوف الجيش ورتبه ، فاندفع ماتزينى تواقا إلى غزو رومة وإلى إعلان الجمهورية . ولما كان يدرك أن الرومانيين لا يستطيعون النهوض وحدهم وأن الفرنسيين فى رومة وأن حركة المتطوعين لن تسنح لها الفرصة رأى أن الخطة الوحيدة التى يمكن أن يتحدى بها الفرنسيين ، ويستولى على رومة — هى القبض على زمام الحكومة جيشاً وأسطولا ودار سلاح ، ثم إعلان حرب صليبية على الفرنسيين يلقى فيها بكل موارد البلاد . وكان يظن أن الملكيين لن ينفصلوا عن فرنسا ، ولن يهاجموا البابوية ، وكان ظنه هذا صوابا بالنسبة للوزارة المحافظة التى كانت تتولى زمام الأمر حين ذاك ، كما يئس من الطبقات المتوسطة ، بيد أنه كان على ثقة من أن الجمهور سيستجيب له ولا سيما الجيل الناشىء ونساء إيطاليا ؛ فقد رأى أنهم تحرروا من الجبن والانتهازية اللتين ضربتا بمخالبهما فى الآخرين .

وبعد موقعة مينتانا ترك ماتزينى لندن مرة أخرى ، وذهب إلى ليجانو

ليكون على مقربة من عمله ، وكان يسافر منها إلى جنوة ذهاباً وإياباً ، واتسع وقته بعد هذا كله ليكتب استغفاراته الدينية التى سماها « من المجلس إلى الله » ، وهى خلاصة تعاليمه كلها ، وكان أتباعه من أهل جنوة كثيرى العدد حين ذاك ؛ فعندما ذهب إلى جنوة سرا أخذت دوريات من العمال الذين يحملون الأسلحة خفية يسيرون على طول الطريق بين المحطة وبين مسكنه ليحرسوه من الشرطة خشية أن يقبضوا عليه ، وجلس أعضاء الجمعية فى انتظاره وهم مسلحون بالمسدسات .

ووصف أحدهم الاجتماع فقال : سمعنا طرقا خفيفا على الباب ، ثم ظهر لنا ماتزينى ببدنه وروحه ، ظهر ذلك الساحر العظيم الذى مس خيال الجماهير كأنه بطل من أبطال الأساطير ، فقفزت قلوبنا بين ضلوعنا ، وذهبنا لنستقبل هذه النفس العظيمة فى إجلال واحترام ، وتقدم ماتزينى فى بشاشة الطفل الواضحة وابتسامته المقدسة وصافحنا على الطريقة الإنجليزية ، وخاطب كلا منا باسمه ، كما لو كانت أسماؤنا مكتوبة على جباهنا ، لم يكن متخفيا وكان يلبس حذاء من قماش ومعطفا بقلنسوة ، وبدا فى قوامه المتوسط المعتدل كأنه فيلسوف عاكف على الدراسة ، لا يطوف بخياله أن يزعج أى شرطى فى العالم .

وفى ربيع سنة ١٨٦٩ تاقت نفسه إلى العمل بالرغم من فشل المؤامرة التى دبرت بين حامية ميلانو ، وكان هو الذى ثنى عزمها ؛ وأدت اعتراضات

الحكومة إلى طرده من سويسرا ، ولكنه عاد إليها فى أغسطس من ذلك العام « أكثر حزنا مما كان » يشعر بضعفه عن ذى قبل جسمانيا وعقليا ، كما يشعر بعجزه عن أداء المهمة » كان يعانى الآلام باستمرار حتى اعترف لأحد أصدقائه بأنه ربما يحجم عن بذل مجهوده ، وكان من الواضح أن ضعفه المطلق سيجعله يتوقف عن عمله دون ما أمل فى نجاح ، فكتب حزينا يقول : « إن خطتى الجديدة ستثبت أنها أضغاث أحلام كسوابقها »

وفى ربيع سنة ١٨٧٠ ذهب إلى جنوة تارة أخرى ليعد تفصيلات مؤامرة جديدة ، ولكن هذه المؤامرة تحطمت كما تحطم غيرها من قبل . وكان كل شىء فى ذلك الحين قد مدت عليه الحرب الفرنسية الألمانية المقبلة ظلالها . واتجه ماتزينى إلى ألمانيا بعواطفه هو ومواطنوه عدا البلاط الملكى والحكومة؛ فقد رأى الإيطاليون أن انتصار الألمان على الفرنسيين سينتقم لهم مما وقع فى مونتانا ، ويجبر الفرنسيين على الجلاء عن رومة .

فبالرغم من احتجاج ماتزينى على المحالفة البروسية التى وقعت سنة ١٨٦٦ ظل ثلاث سنوات يدبر مؤامرة طائشة مع بسمارك ؛ إذ فى الوقت الذى وقعت فيه موقعة مونتانا أو قريب منه أرسل مذكرة إلى بسمارك عن طريق شخص كان يسعى بينهما يقول فيها : « أنا لا أشارك كونت بسمارك فى آرائه السياسية على الأقل كما أن طريقته فى التوحيد لا تجتلب عواطفى ، بيد أنى أعجب بصلابته ومجهوده واستقلاله عن الأجنبى ، كما أومن بوحدة ألمانيا ،

وأريدهذهالوحدة مثلما أريدوحدةبلادى تماما ، وإنى أستفظع الإمبراطورية والسيادة التى تدعيها على رومة ، ورأى ماتزينى فى هذه المؤامرة فرصة ليدفع مشروعاته إلى الأمام ، وليمنع فى الوقت نفسه قيام محالفة فرنسية ، إيطالية ضد ألمانيا ، فطلب من بسمارك أن يرسل له سلاحا ومالا ، ووعده فى نظير ذلك أن يؤمنه ضد الاتحاد الفرنسى الإيطالى العدائى .

ففاوضه بسمارك أمدا طويلا كما فاوض غاريبالدى ، وعندما أضحت الحرب أمرا مقضيا وعلم بسمارك أن فيكتور عمانويل وكثيرا من المحافظين الإيطاليين يحاولون مرة أخرى أن يزجوا بالبلاد فى محالفة فرنسية — وعد بأن يرسل السلاح والمال إلى ماتزينى ، وأسرع هذا بالقبول ، كما وعده بأن يهاجم رومة بالقوات الثورية ، وتعهد بأن يحترم رغبة البلاد فيما لو قررت جمعية تأسيسية المناداة بالملكية ، غير أن بسمارك علم بأن الخطر من المحالفة الإيطالية الفرنسية قد زال فلم يرسل المساعدة التى وعد بها .

وقد برهنت هذه المؤامرة على مقدار التدهور السياسى الذى انحط إليه ماتزينى فى أخريات حياته ؛ فقد طلب مساعدة من دولة أجنبية فى أمر يفضى إلى الحرب الأهلية فى بلاده ، فدل بذلك على أن السنوات الطويلة من التآمر شوهت خياله الأخلاقى !

وأصر ماتزينى على أن يستغل النقود التى أرسلها بسمارك فى مؤامرة جديدة فى صقلية ، ولكنها كانت مهمة حمقاء ، وحاول أصدقاؤه عبثاً

أن يرجعوه عنها ، ولكن ولوعه بالتآمر استولى عليه فسافر متنكرا إلى الجزيرة . وكما حدث فيما سبق اندس خائن فى خاصته ، وكان يمرضه فى أثناء مرضه ، فأفشى خططه إلى الشرطة الفرنسيين ، فعندما وصل ماتزينى بباخرة نابولى إلى پاليرمود قبض عليه ، وأخذ إلى جاييتا حيث عومل بكل مظاهر الاحترام المستطاعة حتى اقد استغرق الحارس ثلاث دقائق كاملة ليغلق عليه الباب بالمفتاح ، فلا يحدث صوتا عسى أن يخفف بذلك من وقع السجن عليه !

ومن ردهات هذا السجن الضخم حيث وقف البوربون وقفتهم الأخيرة منذ تسع سنوات مضت كان ماتزينى يراقب البحر والسماء ، كما كان يراقبهما فى سافونا منذ تسع وثلاثين سنة خلت ، فكتب يقول : إن الليالى جميلة والنجوم تلمع لمعانا لا يرى إلا فى إيطاليا ، وأنا أحب النجوم كأنها أخواتى ، وأربط بينها وبين المستقبل فى عديد من المسالك . ولو كان لى الخيار لفضلت أن أعيش فى وحدة تامة أعمل فى كتابة تاريخى أو فى غيره ولا أفتر عنه إلا لحظات يدفعنى فيها الواجب لرؤية امرأة فقيرة أمد لها يد العون ، أو عامل أستطيع إرشاده ؛ أو يدفعنى مجرد الرغبة فى النظر فأرى شخصا أعرفه أو أتطلع إلى حمائم كورتيش ولا شىء غير ذلك ! » .

وكان ما تزينى يدخن فى سجنه سيجارا مختلفاً أنواعه ، ويقرأ مترجمات سيئة من كتب شكسبير وبايرون من مكتبة السجن ، وإذا رغب فى أفضل

منها قرأ « بيت المقدس » تأليف تاسو . ولما كان يفكر فى كتاب يؤلفه عن بايرون طلب الاطلاع على نقد بايرون الذى جاء به تين فى كتابه عن الأدب الإنجليزى ، وقال ماتزينى عن تين : « إنه كاتب مادى ، ومن المؤكد أن آراءه لا تتفق مع آرائى ، ولكننى أعيش فى شبه إغفاءة عقلية ؛ ولذلك فأنا أعتمد على التضاد والإثارة لأوقظ عقلى بما استنتجه من كتاب تين ، فهو على ضلال عقلى يستطيع به أن يوقظنى ! » .

وأطلق سراحه بعد بضعة أسابيع من الاستيلاء على رومة ، ولكنه ما فتىء يرفض العفو عنه ؛ ليظل طليقا حرا فى عمله ؛ حتى لا يخامره ظل من نكران الجميل لأى شخص ولو الملك » .

وتاقت نفسه فى ذلك الحين أن يهرب من المظاهرات الشعبية العاطفية وأن يلوذ بحياة هادئة بين أصدقائه . وقضى فى رومة ليلة قلقا مسهدا من الذكريات ، فقد مضت إحدى وعشرون سنة منذ أقنعته مارجريت فولر، وجوليا مودينا أن ينجو بحياته حين كان أحد الحكام الثلاثة لرومة . ثم ذهب إلى أصدقائه آل روسلى فى لجهورن ومنها إلى جنوة ليزور قبر أمه، وتفادى من الاستقبالات فإنه لا يزال مريضا مرضه القديم ، وكتب إلى إنجلترا يقول : « إن الشىء الوحيد الذى لمس وجدانى حقا هو ساحة الكنيسة فى جنوة : لقد كان الوقت متأخرا ، والمكان خاليا ، غير أن الحارس عرفنى وخرج من البوابة لاستقبالى ، وجاء بعض الفقراء ومعهم قسيس صفا ينحنون حتى ليكادون

يلمسون الأرض ، لم يبتسم أحد منهم ، ولم يحاولوا أن يهللوا ذلك التهليل السخيف ، لأنهم شعروا بحزنى ، فعمدوا إلى إظهار مشاركتهم لى فى هذا الحزن . وكان ماتزينى يرى أن الترحيب الشعبي ما هو إلا احطام وهباء ، فكتب وهو فى جاييتا يقول : « إن قصيدة سوينبيرن التى مدحنى بها أحزنتنى؛ فمن أنا ومن يمدح ؟ » .

لقد تبعثرت مثل ماتزينى ، وأصبحت روما كما يقول « مدنسة بفساد الملكية وعارها » ، وأدرك أن استيلاء الملكية على العاصمة يعنى أن الجمهورية لن تأتى فى أيامه ، وإذا كانت إيطاليا لم تعلن جمهوريتها فقد أعلنت الجمهورية فى فرنسا ، ولكن بطريقة كرهها ماتزينى . ولما أسقطه حزبه قال : « إيطاليا التى تخصنى والتى دعوت إليها وهى أحلامى وقلبى ، إيطاليا العظيمة الجميلة الأخلاقية ، أهذه تلك ؟ أهذا الخليط من النهازين والجبناء والمكافلة الصغار الذين يتسترون وراء اقتراحات الأجنبى هم إيطاليا ؟ أظن أننى دعوت إلى روح إيطاليا ؛ فما بالى لا أرى إلا جثتها ؟ » .

وكتب إلى مستر ستانسفيلد يقول : « نعم ، يا عزيزى إنى أحب إيطاليا التى أحلم بها ، بلادى المسكينة أحبها أكثر مما أظن ، وأهواها منذ كانت حلمى القديم فى سافونا ، وأود أن أراها قبل أن أموت إيطاليا أخرى مثالا لروحى وحياتى تنبعث من قبرها الذى طواها ثلثمائة سنة ؛ فإيطاليا الحالية ليست إلا شبحا ومسخا مضحكا من إيطاليا الحق ، وهذه

الفكرة تتلبسنى ، وتجعلنى كالإنسان غير المكتمل عند فرانكشتين يبحث عن روح من خالقه »

وتخلى ماتزينى عن التآمر وإن كان فى بعض الأحايين يعلق آماله على الثورات وما انفك يؤمن بأن شهراً من العمل يحول الشعب أكبر مما تحوله عشر سنوات من الدعوة ! » غير أنه أدرك أن الجمهورية بعيدة المنال جدا بحيث لا يستطيع أن يصنع من أجلها شيئاً الآن إلا أن يعلم مواطنيه فى هدوء ولا سيما الطبقات العالية منهم ، فأرسل رسالة يقول فيها : « أخبروا عمال جنوة أن هذا ليس وقت التظاهر ، بل هو وقت تعليم النفس،إن ألمانيا هى البلد الوحيد الذى يستحق الجمهورية » .

ولذلك ساعد على تنظيم جمعيات الإخوان ، ودعا إلى إقامة فصول ليلية للعمال وإنشاء مكتبات شعبية،وجمع أرصدة مالية لمساعدة الجمعيات التعاونية للإنتاج ، وأسس صحيفة « رومة ديلبوبلو » لنشر مبادئه ، وما زال يرجو أن يكتب التاريخ الشعبى لإيطاليا وكتاباً فى التعليم القومى ، ولكن هذه الآمال لم تتحقق مع الأسف . ونشر كتابه « من المجلس إلى الله » وسُر لنجاح الترجمة الإنجليزية لهذا الكتاب ، وقد نشرت هذه الترجمة صحيفة «الفورتينتلى»، واهتم اهتماماً شديدا بالحركات الإنجليزية التى تهدف إلى منح النساء حق التصويت ، وتعارض تنظيم الدولة للرذيلة .

وانحصر عمله الرئيس فى تلك السنوات الأخيرة فى محاربة الاشتراكية

الفجة ، فقد ملأ قلبه هما ذلك « الغزو البربرى » الذى هدد الطبقات العاملة الإيطالية بانتشار الاشتراكية والفوضوية ؛ فالدولية بعد أن كانت تهدف فى مرحلتها الأولى إلى تنظيم النقابية أصبحت ميدانا للمعركة بين الفوضويين تحت زعامة باكونين وبين الشيوعيين الذين يتبعون كارل ماركس .

وكان ماتزينى فى أيامه الأولى على صلة بالفوضويين وباكونين ، ونصح أتباعه بأن ينضموا إليهم ، وحسن رأيه فى زعمائهم الإنكليز مثل ودجار وكريمير لقوة عقولهم وقلوبهم وإخلاصهم الشديد للغاية التى يسعون إليها .

وحاول ماتزينى أن يجعل الدولية جمعية سياسية ثورية ، ولما عارضه كارل ماركس وهزمه انسحب منها ، ومنذ ذلك التاريخ تحولت الدولية إلى طرائق أخرى غير الثورة .

ولم يكن ماتزينى يفرق بين الشعبتين اللتين كانتا تتقاتلان من أجل السيادة على الدولية ؛ فقد نظر إلى الإلحاد والفوضوية فى جانب ، وإلى الاشتراكية فى جانب آخر نظرة سواء .

وكانت كلتاهما فى الواقع غريبة عن الأساس الروحى لحياته وإيمانه المتأجج بقوميته ، بل غريبة عن برنامجه الاقتصادى المعتدل ، ولكنه حرص على أن يظهر أن انتقاده لها لم يأت من ضعف إلهامه الاجتماعى . ولما استعمل المحافظون الإيطاليون عبارة « برابرة » استعمالا ينأى بها عن معناها الحقيقى رد عليهم ماتزينى ردا مفحما بقوله : « إن أولئك الذين تسمونهم برابرة إنما

يمثلون فكرة ، يمثلون نهضة العمال التى لا مناص منها ، وحاجهم بأن الدولية هى الثمرة التى تنتج حتما من عدم مبالاة الطبقة المتوسطة بالإصلاح الاجتماعى وأن الجمعية التى انعقدت للدولية فى فرساى كانت أكثر إجراما من كوميونيت باريس .

وكان ماتزينى لا يميل كثيراً إلى الجمهورية الثالثة التى كان يرأسها تيير ، والتى لم تعن باسترداد نيس ، تلك الجمهورية التى نجمت من ضعف الاختيار ، وكانت جمهورية فى مظهرها فقط .

وعندما قرأ ماتزينى كتاب رينان « الإصلاح العقلى والأخلاقى » تيقن لديه ما كان يبديه من عدم الثقة فى فرنسا والاطمئنان إليها . وكان غالبا ما يستعرض هذا الكتاب ، وهو على فراش الموت ، ويسلقه بلسان حاد يبين عن خيبة أمله فى روح رينان

وانتهت حياة الكفاح الطويلة إلى تعب وإحساس بالإخفاق فقال : «إن حياة هذه الآلة التى ظلت تكتب وتكتب طوال خمسة وثلاثين عاما بدأت تثقل على ثقلا غريبا » كما أحاطت به الهموم الشخصية المريرة فإن برأخته الوحيدة الباقية على قيد الحياة رفضت أن تراه بسبب مانشب بينهما من خلافات دينية ، فضلا على أن غاريبالدى لم يصالحه قط ، ولولا عناية تانى الشديدة بماتزينى فى نهاية ١٨٧١ ما قدر له أن يعيش بعدها إلى حين ،

فقد رعاه برتانى فى مرضه بمثل الرعاية التى نظم بها حملة ألف المتطوع فيما سبق .

وما زال ماتزينى يرفض قبول العفو عنه ، وسافر تحت اسم مستعار إلى بيزا وجنوة ومنها إلى فلورنسا حيث وضع إكليلا من الزهر على قبر أوجد فوسكولو ، وكان قد نقل جثمانه من كنيسة شزويك ليستقر فى سانتا جروسى ، وكانت جيوديتا سيدولى قد قضت نحبها ، فأخذ ماتزينى يتساءل : هل ماتت جيوديتا الصالحة القديسة وهى مسيحية ؟ إن الإيمان يريح وسادة الميت ولو كان إيمانا ناقصا أو مشوبا بنظرية زائفة ! فهو خير للمرء من العلم الجاف الأعجف الممسوخ المكتئب الذى يسمى فى هذه الأيام بالفكر الحر أو المذهب العقلى » .

واستشعر ماتزينى بأن نهايته قد قربت ، بل ودلو يحين حينه فقال : من الغريب أن أرى كل الذين أحبهم يذهبون واحدا إثر واحد وأظل أنا حيا لست أدرى : لماذا ؟ ، وقد انحصر اهتمامه فى أن يستمر عمله بعد وفاته ، فكتب يقول : « لا يعنينى كم من السنين والشهور سأعيش ؟ أترى يقل حبى لكم لأننى ذهبت إلى مكان آخر أعمل فيـــه ؟ وهل سيقل حبكم لى إذا لم أقم بعمل؟ أنا أعتقد أنكم ستعملون عندما أترككم أخيراً، ستعملون جميعاً بإيمان وحمية قويين لتحولوا دون أن تذهب حياتى عبثا » ، كما قال للعمال فى إيطاليا فى كلماته الأخيرة : أحبوا بلادنا التعسة العظيمة ، واعملوا

من أجلها ، بلادنا التى دعيت إلى أقدار سامية ، ولكنها وقفت فى الطريق ، وقفها أولئك الذين لا يستطيعون المضى فى الطريق ولا يعرفونه ، أحبوها فهذا الحب هو أفضل طريقة تحبوننى بها ! »

وكان من أواخر أعماله أن سدد قرضا ظل مدينا به نصف حياته .

وفى ربيع سنة ١٨٧٢ الهادىء كان يعيش ماتزينى فى منزل يملكه بلجرينو روسيللى صهر أصدقائه القدامى آل ناثان فى ليجانو ، وكان هذا المنزل فى شارع مادلينا فى مدينة « بيزا »، وكان الناس يراقبون ذلك الرجل الغريب الأبيض الشعر الذى يتسمى باسم براون ، وهو يسير فى نزهته اليومية ، ويتطلع بعينين ودودتين ، ويحدث كل طفل بألفاظ رقيقة عذبة ، هذا هو ماتزينى .

وفى أوائل مارس سنة ١٨٧٢ ثقل عليه المرض ، وأخذ يسارع إلى النهاية المحتومة ، وفى العاشر من ذلك الشهر توفى وكانت آخر كلماته : « آمنوا بالله ، نعم ؛ لقد آمنت بالله » . ودفن بجوار أمه فى مقبرة أستجلينو خارج جنوة ، كما كان يرغب ، وكتبت على قبره عبارة « لكاردوكى » :

« هنا يرقد الرجل الذى ضحى بكل شىء » .

« وعطف كثيرا وأحب كثيرا » .

« ولم يكره قط أحدا » .

محتويات الكتاب

صفحة

الفصل الثانى عشر

مطبوعات الإدارة العامة للشئون الثقافية

بوزارة الإرشاد القومى

---

١ ـ السلسلة الثقافية

١ ــ تاليران «عقائد وشهوات» :

هذا هو الجزء الأول من الكتاب القيم الذى ألفه « د . ف ـ كوبر » وترجمه الدكتور محمد أبو طائلة . وقد تناول فيه المؤلف شخصية رجل سياسى من طراز عجيب : كان قسيساً فاجراً وعربيداً مقامراً ووزيراً مرتشياً ، ولكنه أوتى من الدهاء ما رفعه على جميع معاصريه من الساسة .

(٢٢٥ صفحة) الثمن ١٠ قروش

الناشر ــ مكتبة الأنجلو المصرية .

٢ ـ تاليران « عالم مضطرب » .

وفى الجزء الثانى من هذا الكتاب يصور المؤلف العصر الذى عاش فيه تاليران ، وموقفه من نابليون ، وكيف عارضه عقب انتصاراته ، ونادى بحفظ السلم فى فرنسا وأوروبا .

(٢٤٦صفحة) الثمن ١٠ قروش

الناشر ــ مكتبة الأنجلو المصرية .

٣ ــ الثورة الأيرلندية :

هذه قصة صراع أمة للتحرر من النير البريطانى ، يرويها الدكتور على الراعى ناقداً ومحللا ومقارناً .

(١٩٠صفحة) الثمن ١٠ قروش

الناشر دار الفكر العربى

٤ ــ ثورات وعروش :

فى هذا الكتاب ألوان رائعة من الكفاح الشعبى بين الحاكمين العابثين وبين الشعوب التى تضطرم فى قلوبها نار الحرية ، كتبها بأسلوبه الرصين الممتع المرحوم الأستاذ حسن الشريف .

(٢٣٢ صفحة) الثمن ١٠ قروش

الناشر مكتبة النهضه المصرية .

٥ ــ الجزائر الثائرة :

كتاب ألفه الكاتبان الفرنسيان « كوليت وفرنسيس جانسون » وتولت الإدارة الثقافيه تعريبه . وهو يكشف عن المظالم والفظائع التى ارتكبها الفرنسيون بالجزائر منذ بداية غزوها فى القرن الماضى حتى الوقت الحاضر .

وقد حرص المؤلفان على تأييد مايقولانه بأسانيد رسمية تبين ما أصاب الشعب الجزائرى المكافح من ضيم فى الميادين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية على يد الاستعمار الفرنسى .

(فى ١٩٢ صفحة) الثمن ١٠ قروش

الناشر دار الهلال

٦ — دراسات فى الشرق الأوسط :

كتاب يتناول الشرق الأوسط من حيث جغرافيته ، وبتروله ومناطقه ، وأهمية الشرق الأوسط الإستراتيجية ، والتزاحم على النفوذ فيه ، واستعماره قديماً وحديثاً ، ومشكلة الأحلاف . لمؤلفه الأستاذ سيد أحمد عثمان .

(فى ١٠٢ صفحة) الثمن ٥ قروش

الناشر ـ مكتبة نهضة مصر .

٧ — نهرو :

كتاب يبسط حياة الزعيم الهندى الكبير جواهر لال نهرو وقصة كفاحه فى سبيل تحرير بلاده ترجمة الأستاذ محمد بدران الثمن ١٠ قروش

الناشر ـ مكتبة النهضة

ب — مختارات الإذاعة

١ — مع الناس :

عشرون حديثاً للأستاذ فكرى أباظة ، يتحدث بها إلى مستمعيه بأسلوبه الساخر ، ونقداته الاجتماعية اللاذعة .

(١٩٠ صفحة) الثمن ٧ قروش

٢ — مطالعات :

واحد وعشرون حديثاً للأستاذ عباس محمود العقاد فى شتى فروع المعرفة.

(١٥٧ صفحة) الثمن ٧ قروش

٣ — مع الكتب :

هذه أحاديث تناولت فيها الدكتورة سهير القلماوى ألواناً منوعة من الكتب التى ظهرت بعد الثورة المصرية الحديثة ، وعالج فيها مؤلفوها نواحى مختلفة فى ميادين الفكر . (١٥٧ صفحة) الثمن ٧ قروش

٤ — صفحات من تاريخ الاستعمار :

فى هذا الكتاب ألوان شتى من الاستعمار ، فى التاريخ القديم والحديث ، عرضها الدكتور سليمان حزين ، فى ثلاثة وعشرين حديثاً .

(١٣٧ صفحة) الثمن ٧ قروش

٥ — عظماء الشرق :

يضم هذا الكتاب دراسات لحياة اثنتين وعشرين شخصية شرقية ، كان لها فى حياة الشرق آثار قوية فى ميدان السياسة والجهاد ، أو فى عالم الفكر ، فى العصور القديمة والحديثة . وهذه الدراسات بأقلام الأساتذة - فتحى رضوان ، وعبد الحميد العبادى ، ومحمد فريد أبو حديد ، والدكتور مهدى علام ، والدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة .

(١٥٧ صفحة) الثمن ٧ قروش

٦ — صلاح الدين الأيوبى :

تمثيلية وطنية أذيعت على حلقات ، كتبها الأستاذ محمود شعبان .

(١٩٢ صفحة) الثمن ٧ قروش

٧ — فى التحليل النفسى :

مجموعة تناول فيها الدكتوران مصطفى زيور وأحمد فؤاد الأهوانى هذا الموضوع فى أحاديث ممتعة — وهما أستاذان من أساتذة علم النفس.

(١٤٦ صفحة) الثمن ٧ قروش

٨ — الإسلام والحضارة :

تناول الدكتور محمد خلف الله أحمد فى هذا الكتاب الدور الذى قامت به الحضارة الإسلامية لهدى الإنسانية، وقدم بعض ذخائر المكتبة العربية الإسلامية، ثم تحدث عن بعض أعلام الفكر الإسلامى من أئمة تلك الحضارة. (١٤٩ صفحة) الثمن ٧ قروش

٩ — الإسلام والجهاد :

مجموعة من المقالات تبين معنى الجهاد، وعلى من يجب ومتى يجب؟ وبماذا يكون؟ وضد من؟ وآثار الجهاد الحق، مع ذكر أمثلة رائعة من مواقف المسلمين فى الجهاد فى صدر الإسلام والإشهاد بكثير من الآيات القرآنية. والأحاديث النبوية، والمواقع التاريخية.

ألفه الأساتذة - أحمد حسن الباقورى، وحسن مأمون، ومحمد فرج السنهورى، والدكتور إبراهيم سلامة، ومحمود شلتوت، وعبد الوهاب حمودة

(١٤٤ صفحة) الثمن ٧ قروش

١٠ — قتال حتى النهاية :

مسرحية وطنية سياسية تمثل الحركة الوطنية فى عهد المرحوم محمد فريد، وما قام به هو وتلامذته ، والمصريون الأحرار ضد الاستعمار الغاشم وإحباط مساعيه فى مد أجل امتياز قناة السويس إلى سنة ٢٠٠٨ م ، وأسباب ثورة سنة ١٩١٩ مع صور رائعة للحياة المصرية فى شتى نواحيها . لمؤلفها الأستاذ محمد متولى .

(فى ٣١٢ صفحة)　　　　الثمن ٧ قروش

١١ — الأسرة فى التشريع الإسلامى :

كتاب يتناول شئون الأسرة ، وكيف تعيش فى ظل السعادة ، وأقوم السبل لحل ما قد يكون بين أفرادها من مشكلات ، وبيان حقوق كل من الزوجين قبل صاحبه ، وحقوق كل من الأب أو الابن قبل الآخر ، والوسائل الشرعية لحفظ كيان الأسرة . لمؤلفه الأستاذ محمد فرج السنهورى .

(فى ١٢٠ صفحة)　　　　الثمن ٧ قروش

١٢ — من روائع القصص العالمى :

قصص مختارة من الآداب العالمية مترجمة عن - الصينية ، والهندية ، والفارسية ، والنرويجية ، والألمانية ، والنمسوية ، والإيطالية ، والمكسيكية — بأقلام الأساتذة - إبراهيم المصرى ، أنيس منصور ، الدكتورة سهير القلماوى، على الراعى ، محمود إبراهيم الدسوقى .　　　　الثمن ٧ قروش

يظهر قريبا

١٣ — تكوين مصر :

عرض تاريخى شائق لمصر فى شتى العصور والحضارات التى مرت بها ، منذ أيام قدماء المصريين حتى العصر الحديث وقد عارض فيه مؤلفه الأستاذ محمد شفيق غربال قول المؤرخ هيرودوت « مصر هبة النيل » ، وأثبت بالتحقيق العلمى والتاريخى أن مصر « هبة المصريين » .

الناشر ـ مكتبة النهضة المصرية　　　　الثمن ٥ قروش

١٤ — فى المعركة :

كتاب يدور حول تأميم قناة السويس وتطورات الموقف الدولى بعده والكشف عن أسرار الاستعمار وتحليل مفاجآته ، ودحض مفترياته ومغالطاته لمؤلفه الأستاذ فتحى رضوان .

الناشر ـ مطبعة عيسى الحلبى

الثمن ٥ قروش

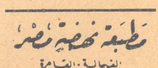
وكتب هذه السلسلة جميعاً تطلب من دار الجمهورية للطبع والنشر بالقاهرة بشارع جلال رقم ٢٤

ماعدا كتاب « فى المعركة » فيطلب من مكتبة عيسى الحلبى شارع خان جعفر بجوار سيدنا الحسين

مطبعة نهضة مصر
الفجالة . القاهرة







الثمن ١٠ قروش